لَمَسَاتٌ مِنْ إِعْجَازِ كَلَامِ اللَّهِ

في سيرة كلمة الله

السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام



أ. د/ فؤاد بن محمود بن محمد سندي





الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م - مكة المكرمة

لمسات من إعجاز كلام الله
في سيرة كلمة الله
السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام

أ. د/ فؤاد محمود محمد سندي

الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م
مكة المكرمة

ⓗ فؤاد محمود محمد سندي ، ١٤٣٠ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

سندي ، فؤاد محمود محمد
لمسات من إعجاز كلام الله في سيرة كلمة الله - السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام. / فؤاد محمود سندي - مكة المكرمة ، ١٤٣٠ هـ
٣٠٦ ص ؛ ٢٤ سم
ردمك : ٣-٧-٢٣٠٧-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١ - المسيح في القرآن ٢ - قصص الأنبياء أ. العنوان
ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٣٠/٢٢٦٤

رقم الإيداع : ١٤٣٠/٢٢٦٤
ردمك : ٣-٧-٢٣٠٧-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

* ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [سورة النساء:١٧١]

* ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)﴾
* ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١)﴾
* ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)﴾
* ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾
* ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤)﴾
* ﴿مَا كَانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥)﴾ [سورة مريم]

* ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾
* ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾
* ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾
* ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء:١٥٧-١٥٨]

المقدمة

الحمد لله، الواحد الأحد، الفَرْد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفواً أحد،

والصلاة والسلام على خير من عرف الله، ووحّده، وله قام وسجد، سيدنا ونبينا محمد ذي الخُلق العظيم والأمر الرَّشَد،

وعلى آله وصحبه، ومن اتّبعه إلى أبد الأبد،

وبعد :

فهذه [فصول] في سيرة السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، كتبتُها تحت عنوان :

(لمسَاتٌ من إعجاز كلام الله.. في سيرة كلمة الله)

وهذا الكتاب يعد [الحلقة الثالثة] في (سلسلة):

(من لطائف التعبير القرآني. في سير الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام)

وقد سجَّلْتُ فيه - بتوفيق الله تعالى - سيرة السيد المسيح.. منذ ميلاده، إلى موتته الحقيقية آخر الزمان، وحتى شهادته عليه السلام علىَ قومه يوم القيامة.

***

ولما كان ميلاد عيسى ابن مريم عجيباً فريداً، ونهايته غريبة فَذَّة إذ ولد عليه السلام من أم من غير أب، ورفع إلى السماء بروحه وجسده عُني القرآن الكريم بذكر أطراف من سير مَن اتصل به وهم:

أولاً : أسرة عيسى ابن مريم وهم : (آل عمران)، الذين اصطفاهم الله تعالى مع مَن اصطفاهم مِن الأخيار الأطهار .

ثانياً : جدة عيسى لأمه وهي : (حنة امرأة عمران)، التي نذرتْ لله ما في بطنها محرراً لخدمة [بيت المقدس].. فلما وضعتْها أنثى حزنتْ وسمَّتها (مريم) أي: العابدة المطيعة لله، وعوّذتها وذريتها بالله من الشيطان الرجيم، وسألتْ ربها أنْ يتقبّل نذرها.. فتقبل الله تعالى ابنتها مريم، وأنبتها نباتاً حسناً.

ثالثاً : كافل السيدة مريم أم عيسى وهو: (النبي زكريا) عليه السلام وكان شيخ الأحبار في زمانه، وهو زوج خالة مريم، وقام بكفالتها خير قيام، واتخذ لها [محراباً] خاصاً مرتفعاً في [المسجد الأقصى] تتعبّد فيه وحدها..

ولما رأى (زكريا) رزْق الله يأتي مريم في المحراب من غير أسباب، دعا هنالك ربه الكريم أن يهبه ذرية طيبة..

رابعاً : ابن خالة عيسى ابن مريم وهو : (النبي يحيى بن زكريا) عليهما السلام، ويُسمّى (يوحَنَّا المَعْمَدَان).. وكان عيسى عليه السلام يُصغي إليه وهو يدعو بني إسرائيل إلى توحيد الله، وإلى تطبيق شريعة موسى كليم الله عليه السلام .

خامساً : والدة عيسى المسيح وهي: (مريم ابنة عمران)، التي اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، فأحصنت فرجها فنفخ الله فيها من روحه، وألقى إليها كلمته (كن)، فخُلِق في رحمها ولدها (عيسى) مِن أم من غير أب، وجعلها الله وابنها آية للعالمين على وحدانية الله وعلى طلاقة قدرته جلَّ جلاله .

من أجل ذلك جعلتُ كتابي هذا على قسمين متداخلين..

القسم الأول : وفيه (سبعة فصول).. تناولت فيها سيرة من اتصل (بالمسيح عيسى ابن مريم) عليه السلام، وهم المذكورون آنفاً وهم: [آل عمران، وامرأة عمران، ومريم ابنة عمران، وزكريا كافل مريم، ويحيى بن زكريا].. عليهم السلام .

***

والقسم الثاني : وفيه (تسعة فصول).. تناولتُ فيها سيرة السيد المسيح عيسى ابن مريم آخر أنبياء بني إسرائيل عليه السلام.. [اسمه بين اللغة والقرآن، وحَمْله العجيب، وميلاده الغريب، وكلامه في المهد واختيار الله له نبياً ورسولاً، مصدِّقاً لما بين يديه من [التوراة]، وآتاه [الإنجيل]، وجعله مبشِّراً برسول يأتي من بعده اسمه (أحمد) وهو سيدنا محمد ^ ، وأيَّده (بروح القدس)، وأمدَّه بالمعجزات الباهرات] .

وذكرتُ : ما لقيه عيسى المسيح من قومه من تكذيب وكُفر ومؤامرات وتخطيط لقتْله،

{وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً} [النساء١٥٧].

ووضّحت : توفيق الله الحواريين ليكونوا أنصار عيسى لله ولدعوته، وإكرام الله لهم بإنزال مائدة من السماء عليهم،

وبيَّنتُ : طريقة نجاة عيسى عليه السلام من كيد أعدائه (كهنة اليهود)، وأن الله رفعه إليه وافياً بروحه وجسده .

وأثبتُّ : نزوله عليه السلام آخر الزمان من السماء إلى الأرض حَكَماً عَدْلاً يقتل المسيح الدجال، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويحكم بشريعة محمد ^ ، ويصلِّي خلْف إمام المسلمين ،

ثم يتوفاه الله تعالى في الأرض، ويُدفَن في المدينة المنورة في [الحُجرة النبوية الشريفة]، كما جاء في بعض الروايات .

وسجّلتُ : شهادة عيسى ابن مريم على قومه بني إسرائيل يوم القيامة بين يدي الله العزيز الحكيم، وعلى رؤوس الخلائق، وذلك بتكذيبه عليه السلام (اليهود) الذين فرَّطُوا بافترائهم عليه وعلى أمه بهتاناً عظيماً، وتكذيبه (النصارى) الذين أفرَطُوا بإطرائه، ورفْعه من مقام النبوة إلى مقام الربوبية، واتخاذه وأمه إلهين من دون الله .

وفي خاتمة الكتاب.. كتبتُ [خلاصة لسيرة السيد المسيح عيسى ابن مريم] عليه السلام؛ وذلك رغبةً في تسهيل تذكير القارئ بما قرأه منها، ولتثبيت العِبر والعظات التي خرج بها من وراء هذه السيرة الشريفة!!

***

وفي خاتمة هذه المقدمة.. أحب أنْ أذكر بإيجاز أهم ما قُمتُ به من أعمال في هذا الكتاب وهي :

(أ) حاولتُ - جهدي - أنْ أربط بين سيرة السيد المسيح ومَن وما اتصل به وبين ما جاء من ذلك في كتاب الله العزيز .

(ب) رتّبتُ أحداث السيرة حَسَب زمن وقوعها، مُتتبِّعاً الآيات القرآنية الواردة حول كل حدث منها .

(ج) اجتهدت في شرح معاني الآيات العامة والخاصة.. مع ترجيح الرأي الذي أراه عندما تتعدد الآراء .

(د) وضّحتُ معاني كثير من المفردات اللغوية الـواردة في الآيـات، مع ما يتصل بمادة المفردة اللغوية،

(هـ) ذكرتُ عدد ما وَرد من المفردات اللغوية في القرآن الكريم مـن مرات وأول ذلك وآخره مما جاء في آيات هذه السيرة .

(و) وضّحتُ أوجه إعراب بعـض التراكيـب، فـيما يلـزم إعرابـه، رجاءً في إفادة القارئ العزيز، وفي دفع اللبس المتوقع عنه.

(ز) كتبتُ جميع الآيات القرآنية برسم المصحف الشريف مع ضبطها كلها بالشكل الصحيح .

(ح) خرّجتُ جل الأحاديث النبوية الواردة في الكتاب .

(ط) وثّقتُ أغلب ما ذكرته من أخبار وأقوال بتسجيل اسم المرجع في [متن الكتاب]؛ لأريح القارئ من مشقة تنقُّل البصر بين [المتن والهامش].

(ي) حرَصتُ كثيراً على توضيح بعض ما في كثير من الآيات القرآنية من [إعجاز لغوي] ، يشهد بسمو [التعبير القرآني]، وبأن كلام الله تعالى بحق ليس كمثله كلام .

(ك) صنعتُ في نهاية الكتاب بعض الفهارس العلمية لبعض ما ورد فيه من أعمال، وذلك رغبة في تيسير الرجوع إليها .

وفي خاتمة هذه الخاتمة.. أقرر بصدق أن [هذا الكتاب] في حقيقته هو عبارة عن [اختيارات بعناية] من كتب شتَّى قديمة وحديثة، سجّلتْ بتفصيل أو بإجمال (سيرة السيد المسيح عيسى ابن مريم) عليه السلام .

وأذكر في تواضع أن [هذا الكتاب] في ثناياه [ترجيحات بدراسة] لبضعة أقوال من أقوال عديدة تالدة وطريفة، وردت حول [محور وبعض جنبات] موضوع الكتاب .

اجتهدتُ – بتوفيق الله تعالى – في [تجميع وترتيب] هذه وتلك بين دفتي هذا الكتاب .

وآثرتُ أن أقدِّم الكتاب [هدية] منِّي لأمثالي من طلبة العلم والمعرفة..

أذكِّر به مَن عرف منهم ما جاء فيه .

وأساعد منهم من لم تسعده ظروفه على الاطلاع على ما أعانني الله على الاطلاع عليه .

آملاً من هؤلاء وهؤلاء حُسْن القبول وصالح الدعاء . وضارعاً إلى ربي الكريم أن يتقبَّل عملي هذا، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به كما نفع بما سبقه من أعمال .

وأسأل الله جلَّ شأنه أن يعينني على [إتمام] سيرة من بقِي من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، على هذا النهج بل وعلى أحسن وأكمل منه بإذنه تعالى . إن ربي على ما يشاء قدير..

ولا أنسى أن أقدم شكري وتقديري لمخرج ومصمم هذا الكتاب وهو الأستاذ حاتم مبارك حميدة .

وما توفيقي إلَّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

***

أ. د/ فؤاد محمود محمد سندي

مكة المكرمة

جوال / ٠٥٠٥٥٠٧٣٤١

ص. ب : ١٦١٩٨

الاثنين ١٤ صفر ١٤٣٠هـ

٩ فبراير ٢٠٠٩م

الفصل الأول :

اسم المسيح عيسى ابن مريم بين اللغة والقرآن

وَرَدَ في (مسند الإمام أحمد) رحمه الله ، من رواية (أبي أمامة) رضي الله عنه، قال (أبو ذرٍّ) رضي الله عنه : قلت يا رسول الله : كم وَفاءُ عِدَّةِ الأنبياء؟ قال ﷺ : (مائة أَلْفٍ وعشرون ألفاً الرُّسُل من ذلك ثلاثمائة وخمسةَ عشرَ جَمْعاً غفيراً).

وقد ذكر القرآن الكريم بالتفصيل خمسة وعشرين منهم وهم:

(آدم ، إدريس ، نوح ، هود ، صالح ، إبراهيم ، لوط ، إسماعيل ، إسحاق ، يعقوب ، يوسف ، شعيب ، أيوب ، ذو الكفل ، موسى ، هارون ، داود ، سليمان ، إلياس ، اليسع ، يونس ، زكريا ، يحيى ، عيسى، ومحمد) .

صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين .

وأشار القرآن إلى بقية الأنبياء والمرسلين إجمالاً ، قال تعالى : {**وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ**} (النساء: ١٦٤).

والنبي هو إنسان من البشر أوحى الله تعالى إليه بشرع ولم يكلفه بتبليغه، وأما الرسول من البشر فهو إنسان أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه - فالرسالة أعلى مرتبة من النبوة ، وكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا.

هذا ولا شك أن أنبياء الله ورسله هم الصفوة المختارة من الناس وأفضل الرسل وأكرم النبيين وقادتهم وسادتهم هم أولو العزم من الرسل، وهم أرباب الشرائع وعددهم خمسة وهم: (نوح ، إبراهيم ، موسى ، عيسى ، ومحمد) صلوات الله وسلامه عليهم .

وقد أجمع المفسرون على أن سيدنا محمداً ﷺ هو آخرهم في البعثة ولكنه أولهم في المنزلة وأفضلهم في الرتبة ، ولهذا قدم في الذكر عنهم في قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً} (الأحزاب:٧).

هذا وقد جعلت حديثي في سيرة الأنبياء والمرسلين في محاور، وقدمت لكم منها بحمد الله تعالى فيما سبق أربعة محاور هي :

الأول : سيدنا آدم أول الأنبياء وأبو البشر عليه السلام.

والثاني : سيدنا نوح أول المرسلين وأبو البشر الثاني عليه السلام.

والثالث: سيدنا إبراهيم خليل الله وأبو الأنبياء عليه السلام (١).

والرابع: سيدنا موسى كليم الله وثالث أولي العزم من الرسل عليه السلام (٢).

واليوم أبدأ فأقدم لكم بعون الله تعالى:

المحور الخامس: وهو سيدنا المسيح ابن مريم، كلمة الله ورابع أولي العزم من الرسل عليه السلام (٣).

وسوف أجعل – إن شاء الله – حديثي عن هذا المحور كسابقيه في عدة جوانب أو أجعله في (فصول) مجتهداً بتوفيق الله في ترتيبها، مع تجميع الآيات القرآنية الواردة حول كل جانب منها، ومحاولاً بعون الله

---

(١) وهذه المحاور الثلاثة طبعت في الكتاب الأول من (لطائف التعبير القرآني، في سير الأنبياء والمرسلين) سنة ١٤٢٣هـ .

(٢) وهذا المحور الرابع طبع في الكتاب الثاني من (لطائف التعبير القرآني) بعنوان: [قبسات من إعجاز كلام الله في سيرة كليم الله موسى عليه السلام] سنة ١٤٢٥هـ ـ القسم الأول ـ .

(٣) وطبع الجزء الأول من خامس أولي العزم بعنوان: [المنتقى.. من سيرة المصطفى ﷺ.. ومن وما يتصل به في كتاب الله . سنة ١٤٢٩هـ .

تعالى توضيح بعض ما في الآيات الكريمات من معان وإشارات، ومن لطائف ولمحات، ومن عبر وعظات.

وأبدأ بالجانب الأول منها وهو :

(اسم المسيح عيسى ابن مريم) بين اللغة والقرآن،

فأقول : قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٤٥ ،٤٦): {**إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ**} .

فاسمه أوحي به من الله إلى أمه مِن قبل أنْ يُولد عليه السلام، بل من قبل أن تحمل به أمه عليها السلام. فاسمه العَلَم هو (عيسى) ، ولقبه (المسيح)، وكنيته (ابن مريم) نسبة إلى أمه (مريم ابنة عمران)، لأنه عليه السلام ولد لأم بدون أب!

هذا والسيد المسيح هو آخر أنبياء بني إسرائيل، وكان بين ميلاده وبين وفاة موسى الكليم (١١٦٥) ألف ومائة وخمس وستون سنة تقريباً، وكان بينهما رسل وأنبياء كثيرون، وقد قص القرآن لنا حياة سبعة منهم وهم: (داود ، سليمان ، إلياس ، اليسع ، يونس ، زكريا ، ويحيى) عليهم السلام.

هذا وليس بين عيسى عليه السلام وبين رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم نبي ولا رسول، فعن (أبي هريرة) رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الأنبياء إخوة لِعلَّات أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا

والآخرة، لأنه لم يكن نبي بيني وبينه). (صحيح البخاري ٣١٨٧، ومسلم ٤٣٦٢، وابن حبان ٦٨٢١ ومسند أحمد ٢/ ٤٠٦/ ٤٣٧).

وفي اللغة (المصباح ٤٤٠ ، المفردات ٣٥٧، بصائر ذوي التمييز ٦/ ١١١ لسان العرب ٦/ ١٥٢):

(عيسى) على وزن فِعْلى: اسم أعجمي غير منصرف للعُجْمة والعَلَمِيَّة. وقيل : هو عربي مشتق من (العيس) وهو البياض وذلك من قولهم : جمل أعيس ، وناقة عَيْساء، وجمعها: (عِيس) وهي: الإبل البيض يخالط بياضها شقرة يسيرة. وقيل: بل (عيسى) مشتق من العَوَس ومعناه: السياسة. فسمِّي عيسى عليه السلام لأنه ساس نفسه بالطاعة، وساس قلبه بالمحبة، وساس أمته بالدعوة إلى رَبِّ العِزَّة والجلال.

وهو بالعبرية (يشوع) ومعناه : المخلِّص ، وفي (الإنجيل) يدعى (يسوع) بالسين المهملة.

والنسب إلى عيسى: عيسيٌّ وعيسويٌّ ، وجمع عيسى: العِيسُون والعِيسَوْن.

وفي اللغة (المقاييس ٢/ ٥١٠ ، المصباح ٥٧١ ، المفردات ٤٧٠ ، لسان العرب ٢/ ٥٩٣، المعجم الوسيط ٢/ ٨٦٧، النهاية لابن الأثير):

(المسيح) من مسح: الميم والسين والحاء أصل صحيح، وهو: إمرار الشيء على الشيء بسطاً. يقال: مسحت الشيء المبتلَّ أو المتلطِّخ، أي: أمررت يدي عليه لإذهاب ما عليه من أثر الماء ونحوه.

والمسح في تعارف الشرع: إمرار الماء على الأعضاء، والمسح بالسيف معناه: القطع، فيكون على جهة الاستعارة.

(والمسيح) : لقب لعيسى ابن مريم عليه السلام أعلم الله تعالى به أمه مريم وخصه به، والإنسان له من اسمه نصيب، وأهل اللغة والتأويل لهم عدة أقوال في تعليل تسمية عيسى ابن مريم بالمسيح.. أختار لكم منها ما يلي:

- سمي عليه السلام بالمسيح لأنه كان لا يمسح بيده ذا عاهة إلا برىء، ولا ميتاً إلا يحيا بإذن الله.
- أو لأنه كان يمسح الأرض أي : يقطعها سائحاً لا يستقر، فكان عليه السلام تارة بالشام وتارة بمصر، وثالثة على سواحل البحر، وأخرى في المهامه والقفار.
- أو لأنه كان أمسح الرِّجْل، ليس لرِجله أخمص فلم يكن باطن قدمه مرتفعاً عن الأرض بل كان يمس الأرض ببطن قدمه.
- وقيل: سمى المسيح لأن جبريل عليه السلام مسحه بالبركة.
- أو لأن زكريا عليه السلام مسحه بيده.
- أو لأن الله جَلَّ جلاله مسح الذنوب عنه.
- وقيل : بل سمي المسيح لحسن وجهه إذ المسيح معناه أيضاً: الجميل الوجه، يقال: فلان على وجهه مَسحة من جَمال وحُسْن، أو لأنه كان عليه السلام أبيض مُشْرَباً بحُمْرة.
- وقيل : بل سمي عيسى ابن مريم بالمسيح لصِدْقه، فالمسيح معناه أيضاً: الصِّدِّيق.

- قلت: ولا مانع من اجتماع هذه الأسباب كلها أو بعضها فيه ﷺ، والله أدرى وأعلم.

هذا وقال (ابن فارس في مقاييس اللغة):

والمسيح من الناس أيضاً هو الذي أَحد شِقَّيْ وجهه ممسوح لا عين له ولا حاجب، ومنه سمي (الدَّجَّال) لعنه الله مسيحاً، لأنه ممسوح العين فهو أعور العين اليمنى، وهو المسيح الكذاب لأنه يقول: هو الله وهذا كذب، ولذلك خصَّه الله تعالى بالشوه والقبح والعور، وهذا المسيح إذا أذن الله بخروجه يقطع جميع البلاد في أربعين ليلة إلا (مكة المكرمة والمدينة المنورة) تمنعه الملائكة على أبوابها فلا يدخلها.

فعيسى ابن مريم ﷺ هو مسيح الهدى، والدجال لعنه الله هو مسيح الضلالة.

وفي آخر الزمان ينزل عيسى ابن مريم من السماء عند المنارة البيضاء شرقي (دمشق)، فيصلي خلف إمام المسلمين صلاة الصبح، ويحكم بالشريعة المحمدية حَكَماً عدلاً، ويكسر الصليب، ويقتل الخِنزير ويقتل الدجال بنَيْزَكِه أي: بحَرْبته عند باب (لُدْ الشرقي) في (فلسطين).

(صحيح البخاري ٢٢٢٢، ومسلم ٢٩٣٧، ومسند أحمد ٢/ ٥٣٧، وسنن أبي داود ٤٣٢١، والترمذي ٢٢٤٠، وابن ماجه ٤٠٧٥).

هذا وفي القرآن الكريم ذكر اسم (المسيح عيسى ابن مريم) (خمساً وثلاثين مرة) في (ثلاث عشرة سورة) هي: (البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، التوبة، مريم، المؤمنون، الأحزاب، الشورى، الزخرف،

الحديد، والصف). وقد فُصِّلت سيرته عليه السلام في أربع منها وهـي: (مريم، المائدة، آل عمران، والنساء).

هذا وقد ذُكر اسم السيد المسيح في القرآن على سبع صور هي:

- **الصورة الأولى**: وفيها جاء الاسم كـاملاً: (لقبـاً وعلَـماً وكُنْيـة): (المسيح عيسى ابن مريم) وذلك في ثلاثة مواضع.
منها في (آل عمران ٤٥) {**إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**}.

- **الصورة الثانية**: وفيها جاء الاسـم: (علَـماً وكنيـة): (عيـسى ابـن مريم) وذلك في عشرة مواضع، منها في (البقرة:٨٧):
{**وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**}.

- **الصورة الثالثة**: وفيها جاء (اللقب والكنية): (المسيح ابن مـريم) وذلك في خمسة مواضع، منها قوله تعالى في (المائدة ١٧):
{**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**}.

- **الصورة الرابعة**: وفيها جاء (العلم وحده) : (عيـسى) وذلـك في ثمانية مواضع، منها قوله تعالى في (البقرة ١٣٦):
{**وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ** }.

- **الصورة الخامسة**: وفيها جاء (اللقب وحده): (المسيح) وذلك في ثلاثة مواضع، منها قوله تعالى في (النساء ١٧٢):
{ **لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ**}.

- **الصورة السادسة**: وفيها جاءت (الكنية وحدها): (ابن مريم) وذلك في موضعين، منها قوله تعالى في (المؤمنون ٥٠):
{وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً}.

- **الصورة السابعة**: والأخيرة: وفيها جاء (الاسم نداء): (يا عيسى أو يا عيسى ابن مريم) وذلك في أربعة مواضع منها قوله تعالى في (آل عمران ٥٥): **{إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}**.

ومنها قوله تعالى في (المائدة ١١٠): **{إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ}**.

إخوتي المسلمين ومن قبل أن يولد عيسى عليه السلام، كانت لأمه (مريم ابنة عمران) قصة لابد أن تُذْكَر، بل وكانت لأم مريم وهي (امرأة عمران) جَدَّةُ عيسى لأمه قصة، ولابد أن تُذْكَر قبل قصة مريم،

وثلاثتهم هم من (آل عمران) الذين اصطفاهم، الله تعالى فيمن اصطفاهم ، وذلك في قوله تعالي:
{إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (آل عمران ٣٤).

***

الفصل الثاني :

آل عمـــــران

قال (ابن عباس) رضي الله عنهما: قالت اليهود: نحن من أبناء إبراهيم ومن آل عمران، فنحن أبناء الله وأحباؤه، فأنزل الله هذه الآية {**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**} (آل عمران:٣٤). والمعنى: أن الله اصطفى هؤلاء بالإسلام، وأنتم يا معشر اليهود على غير دين الإسلام! (تفسير الخازن، تفسير الرازي ٨/ ٢١).

وقيل في (البحر المحيط): نزلت هذه الآية في (نصارى نجران) لما قالوا: المسيح ابن الله، فنزلت الآية رداً عليهم وإعلاماً أن عيسى من ذرية البشر المتنقلين في الأطوار المستحيلة على الإله.

قوله: "اصطفى" معناه: اختار، من صفا.

وفي اللغة: (المقاييس ٢/ ١١، المصباح ٣٤٣، المفردات ٢٨٦، اللسان صفا، المعجم الوسيط ١/ ٥١٧): (الصاد والفاء والحرف المعتل): أصل واحد، يدل على خُلوص من كل شَوْب وكَدَر يقال: صفا يصفو صفواً وصفاءً إذا خَلَص من الكدر فهو صاف.

ويقال: اصطفى فلان فلاناً الود معناه: أخلصه له، وصافاه أي: صَدَقه الإخاء والمودة، وصفَّى الشيء أي: أزال عنه القَذى والكدر. واصطفاه أي: فضَّله واختاره واجتباه، والصفوة من كل شيء (بتثليث الصاد) أي: صفوه وخياره وخالصه.

ونبينا محمد ﷺ هو صفوة الله تعالى وخيرته من خَلْقه ومصطفاه.

وجمع مصطفى: مصطفَوْن.

هذا واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافياً عن الشوب الموجودة في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمته سبحانه.

هذا والفعل (اصطفى) ورد في القرآن الكريم (اثنتي عشرة مرة): أولها في (البقرة ١٣٠): {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}

وآخرها في (الزمر ٤): {لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَه}.

هذا وفي قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} (آل عمران ٣٣)، ذَكَر الله تعالى بعض مَن أَحبَّهم مِن الناس واصطفاهم وجعلهم صفوة خَلْقه، ورفع درجاتهم، واختارهم للنبوة واجتباهم لحمْل الرسالة الواحدة بالدين الواحد منذ بدء الخليقة، وصفَّاهم من الصفات الذميمة، وزيَّنهم بالخصال الحميدة، وجعل منهم الرُسُل الذين يُبيِّنون للناس طريق الإيمان بالله مع طاعته، والعمل بما يرضيه عزَّ وجلَّ.

وهؤلاء هم طلائع الإيمان في شتَّى مراحله المتصلة على مدار الأجيال والقرون،

فبدأ سبحانه أولاً بأولهم وجوداً، وهو (سيدنا آدم) عليه السلام وكنيته في الجنة (أبو محمد) كُنِّي (بمحمد) خاتم النبيين ﷺ. (قاله السهيلي).

وآدم أصله بهمزتين (أأدم) على وزن أفعل إلا أنهم ليّنوا الثانية (آدم) فهو عربي مشتق - على الأرجح - من (أديم الأرض) أي: وجهها، لأن جسده خُلق من قبضة من جميع وجه الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبيْن ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب.

وإنما سمي آدم (إنساناً) لأنه نسي، أو لأُنسه بجَنَّته، وآدم ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل.

هذا ويقال: اختار الله تعالى آدم عليه السلام بخمسة أشياء: خلقه بيده في أحسن صورة ونفخ فيه من روحه وذلك يوم الجمعة، وعلَّمه الأسماء كُلَّها وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، وجعله أبا البشر.

هذا وقد ذُكر اسم (آدم) في القرآن الكريم (خمساً وعشرين مرة):
أولها في (البقرة ٣١): {**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**}.
وآخرها في (يس ٦٠): {**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**}.

[تفسير القرطبي ٤/ ٦٣، تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٩، بصائر ذوي التمييز ٦/ ٢٢]

ثم ثنَّى الله تعالى في الآية (بسيدنا نوح) عليه السلام، وهو الأب الثاني للبشر وهو شيخ المرسلين، وبعد الطوفان العظيم ليس أحد من الناس على وجه الأرض إلا مِن نَسْله على رأي جمهور المفسرين والمؤرخين قال تعالى: {**وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ**} (الصافات ٧٧).

وقد أطال الله عُمْـر نـوح، واستجاب دعـاءه في الكـافرين وفي المؤمنين، وهو أول رسول بُعث إلى أهل الأرض بتحريم نكاح البنات والأخوات والعمات والخالات وسائر المحارم، وأرسله الله تعـالى إلى ولـد (قابيـل) ومـن تـبعهم مـن ولـد (شـيث). وقيـل: اسـم نـوح (عبدالغفار) وقيل: اسمه (السَّكَن) ولقبه (نوح)، لقِّب بذلك لكثرة نوحه بالدعوة إلى الله تعالى، ثم لتأسُّفه على قومه لكونهم غرقـوا بـلا توبة، وهو أول أولي العزم من الرسل. وقيل: (نـوح) اسـم أعجمـي إلاَّ أنه انصرف لكونه على ثلاثة أحرف وسطه ساكن.

وفي كتاب الله العزيز ذُكر اسم نوح (ثلاثاً وثلاثين مرة):

أولها في [آل عمران ٣٣]: {**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً**}

وآخرها في سورة [نوح ٢٦]: {**وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً**} [زاد المسير ١٨٨ بصائر ذوي التمييز ٦/ ٢٦].

ثم ثلَّث الله تعالى في الآية (بآل إبراهيم)، و (إبراهيم) هو خليل الله عليه السلام وثاني أولي العزم من الرسل. وآل الإنسان هم قومه وأتباعه وأهل دينه، وقيل: آل إبراهيم هم: [إسـماعيل، إسـحاق، يعقـوب، والأسـباط]، والأنبيـاء مـن أولادهم.

واختار الله تعالى إبراهيم بخمسة أشياء: جعله أبا الأنبياء مـن بعـده، فقـد رُوي أنه خرج من صُلْبه ألفُ نبي من زمانه إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، واتخذه الله خليلاً، وأنجـاه من النار، وجعله إماماً للناس، وابتلاه بكلمات فوفَّقه حتى أتـمَّـهُنَّ.

واصطفاء آل إبراهيم عليه السلام بأن جعل فيهم النبوة والكتاب، ورسـول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مندرج فيهم لأنه من ولـد (إسـماعيل الـذبيح ابـن إبـراهيم

الخليل). ولا خلاف في أنه مَنْ ليس بمؤمن ولا موحِّد فإنه ليس من آل محمد ﷺ وإنْ كان قريباً له.

هذا واسم إبراهيم ذُكر في القرآن الكريم (تسعاً وستين مرة):

أولها في [البقرة ١٢٤]: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}.

وآخرها في [الأعلى ١٩]: {صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}.

ثم ربّع الله تعالى في الآية (بآل عمران): وعمران هذا – على الأرجح – هو: (عمران بن ماثان) من ولد (سليمان بن داود) عليهما السلام. وكان عمران هذا صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه فهو إمامهم وكبيرهم، وهو أبو مريم البتول، أم المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام.

وامرأة عمران هي (حَنَّة بنت فاقوذ أُمُّ مريم)، وقد تزوج (زكريا) عليه السلام – على رواية – (باليصابات) أخت حنة، وقيل: اسمها (إيشاع) فيحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم أبناء خالة من هذا الوجه.

وقد وَهِم بعض الدارسين فظنَّ أنَّ عمران في هذه الآية هو (أبوموسى وهارون) عليهما السلام. والذي يؤيد أنَّ عمران في الآية (أبو مريم أم عيسى) ورود اسم مريم بعد هذه الآية، وبين موسى وعيسى ألف وثمانمائة سنة. وقد اصطفى الله تعالى لعمران (السيدة مريم) وذلك بولادة عيسى عليه السلام بغير أب، ولم يكن ذلك لأحد في العالم.

هذا (وعُمران) بضم العين اسم للبُنْيان من عمَر فلان الدار يعمرها [من باب نصر] أي: بناها فهي معمورة، وعمر القوم المكان

أي: سكنوه فهو معمور. (وعِمران) بكسر العين علَم للإنسان وهو ممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون.

وقد ذُكر اسم (عمران) في القرآن (ثلاث مرات): في سورة [آل عمران] مرتين: في قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}، وفي قوله تعالى: {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً}،

وفي سورة [التحريم ١٢] مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا}.

هذا وقال [صاحب الظلال ١/ ٣٩١]: "وهكذا ذَكَر السياق القرآني في [آية آل عمرانٍ] آدم ونوحاً مفردين، وذكر آل إبراهيم وآل عمران أسرتين، وذلك إشارة إلى أن آدم بشخصه ونوحاً بشخصه هُمَا اللذان وقع عليهما الاصطفاء، أما إبراهيم وعمران فقد كان الاصطفاء لهما ولذريتهما كذلك، على أن وراثة النبوة والبركة في البيت ليست وراثة الدم وإنما هي وراثة العقيدة"

وقال [الإمام القرطبي ٤/ ٦٣]: "وخصَّ الله تعالى هؤلاء بالذِّكْر من بين الأنبياء لأنَّ الأنبياء والرسل بقضِّهم وقضيضهم مِن نَسْلهم".

ومعنى قوله: {على العالمين} أي: اصطفى هؤلاء على عالمي زمانهم بالنبوة والرسالة والخصائص الروحانية والجسمانية، فأرواحهم عليهم السلام في غاية الصفاء والشرف، وأبدانهم في غاية النقاء والطهارة، وقواهم المحركة والمدركة في غاية الكمال. [التفسير الكبير للرازي ٨/ ٢٢].

وقيل: اصطفاهم الله تعالى على جميع الخلق إلى يوم الصُّور فهم صفوة الخلق أمَّا (سيدنا ونبينا محمد) ﷺ فقد جازت مرتبته الاصطفاء لأنه حبيب ورحمة. فالرسل عليهم السلام خُلقوا للرحمة، ومحمد ﷺ خلق بنفسه رحمة. قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء ١٠٧]؛ لذلك صار ﷺ أماناً للخَلق لمَّا بعثه الله أَمِن الخلق العذاب العامَّ إلى نفخة الصور. وقال ﷺ: (أنا رحمة مهداة) أي: هو بنفسه رحمة للخلق، وهو هدية من الله تعالى للخَلق.

قال تعالى: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران].

(ذرية) بدل من آل إبراهيم وآل عمران، أو هو منصوب على الحال أي: في حال كونهم ذرية بعضها من ولد بعض، يعني في التناصر في الدين وفي توارث القيم والإخلاص والطاعة. والله سبحانه (سميع) لأقوال العباد (عليم) بنيَّاتهم وضمائرهم وأفعالهم يصطفي مِن خَلْقه مَن يعلم استقامته قولاً وفعلاً وهو سبحانه يعاقب الكاذب على كذبه. وفي هذا تهديد [لليهود] الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وفيه تهديد أيضاً [للنصارى] الذين قالوا: إن المسيح ابن الله!!

هذا و(سميع عليم) ليستا من صيغ المبالغة في جناب الله تعالى وإنْ جاءتا على وزنها، وإنما هما صفتان ثابتتان كاملتان لله تعالى ومعناهما - والعلم عند الله - أنه سبحانه (سميع) بذاته ولو لم يوجد شيء يُسْمَع، و(عليم) بذاته ولو لم يوجد شيء يُعْلَم.

وبعد هذا الإعلان التمهيدي لمن اصطفاهم الله على العالمين، ينتقل السياق القرآني مباشرة إلى (آل عمران) ومولد (مريم)، قال تعالى: {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً} [آل عمران٣٥]، وهذه المرأة هي جدة عيسى ابن مريم لأمه عليهم السلام.

***

الفصل الثالث:

جَدَّة عيسى لأمه

قال الله تعالى عنها في سورة [آل عمران ، ٣٥ / ٣٦]: { إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى} ... قوله: (إذ) ظرف والتقدير: اذكر يا محمد إذ قالت امرأة عمران، وهذه جَدَّةُ عيسى لأمه .

وأجمع المفسرون على أنَّ اسمها: (حنة بنت فاقوذ) وأنها كانت امرأة صالحة وَرِعة تَقِيَّة ومن العابدات.

وقد ذَكَر (محمد بن إسحاق) وغيره [قصص الأنبياء ٤٦٣]:

أنَّ أُمَّ مريم هذه كانت عاقراً لا تَحْبَل حتى أسنَّت وشاخت، وكانت تتمني أنْ يرزقها الله ولداً يملأ عليها حياتها وتُفرِغ عليه حنانها، وتُنشئه نشأة صالحة ليكون كأبيه (عمران) ملتحقاً -[بيت المقدس]. وذات يوم رأتْ (حنة) هذه طائراً يَزُقُّ ويُطْعِم فَرْخاً له فاشتهت الولد! ودعتْ ربها الكريم أنْ يرزقها ولداً تلحقه بالمعبد، وتتصدَّق به على الهيكل لله تعالى، فأجاب الله دعاءها وآتاها سؤلها، فحاضت من فورها فلما طَهُرت واقعها (عمران) فحملت ففرِحت فرحاً كبيراً، وفرح زوجها. وفجأة مرض الزوج، واشتدت عليه وطأة المرض فراحت زوجته حنة تُمَرّضه، وشُغلت به عمّا في بطنها، ولم يلبث عمران طويلاً بل لبّى نداء ربه ليجد ما عمله من خير مُحْضَراً. [المسيح عيسى ابن مريم لعبد الحميد جودة السحار ص٢].

وحزنت امرأته الأرملة، وداعبتها فكرة أضاءت نفسها من جديد، لماذا لا تُنْذر ما في بطنها لخدمة [بيت المقدس] من قبل أنْ تلده؟ واطمأنت حنة إلى هذه الفكرة فشخصت ببصرها إلى السماء وقالت في صدق وحرارة: {رب إني نذرت لك في ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم}. وهكذا ألْهم الله تعالى امرأة عمران أسرار النداء والدعاء فنادت ربها تبارك وتعالى قائلة: (ربّ) ولم تقل (إلهي) لأنّ الربوبية يلاحظ فيها التربية من البداية إلى النهاية، أمّا الألوهية فهي خاصة بما فيه تكليف. [مريم والمسيح للشعراوي ٥١].

وكأنها أرادت بنذْرها لما في بطنها ألاّ تربيه هي حتى يقْدر على الخدمة، بل كانت تريد نذْره من أول أمره، بحيث لا تتنعَّم بطفولته كما تتنعم الأمهات! وقولها: (رب) منادى حذف منه حرف النداء.

وفي القرآن الكريم جاء لفظ (رب) منادى (سبعا وستين مرة)، وجاء لفظ (ربنا) منادى (تسعا وستين مرة)، ولم يُسْبق في المرات كلها بحرف النداء إلا في [موضعين]: أحدهما في سورة [الفرقان ٣٠]: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً}،

والموضع الثاني في [الزخرف ٨٨]: {وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ}.

ولعل السر في حذف (يا) من نداء الرب - والعلم عند الله - ليزول عن النداء معنى الأمر، ويتمخض التعظيم والتنزيه والإجلال، وليعبِّر المنادي عن شعوره بقربه من ربه جلَّ جلاله، أمَّا الموضعان اللذان ذُكر فيهما حرف النداء (يا رب) فقد جاء النداء فيهما على سبيل الحكاية.

[من أسرار التعبير القرآني حروف القرآن، للدكتور عبد الفتاح لاشين ١٧٧] هذا والنذْر في قول امرأة عمران: {**رب إني نذرت لك ما في بطني محررا**} معناه: يا رب إني أوجبتُ على نفسي وألزمتها أنْ أجعل ما في بطني من الحمل لك يا رب غير مملوك لأحد سواك، ومعتَقاً من جميع متطلباتي الخاصة، ومن رزق الدنيا وأشغالها، مفرَّغاً لعبادتك، وخادماً في [بيت المقدس] حبيساً على ذلك.

وفي [تفسير القرطبي ٤/ ٦٦]: "وكان هذا النذر جائزاً في شريعتهم وكان على أولادهم أنْ يطيعوهم، وهذا من نذر الأحرار من الأبرار".

هذا وإذا كان النذر في حقيقته هو أمر أريد به الطاعة زيادة عما كُلِّف به المكلَّف ولكن يكون من جنس ما كلَّفه الله تعالى، فالنذر ينمُّ عن عشق العبادة لله، لأنك لو لم تعشق عبادة ربك جلَّ جلاله لما زدْتَ على ما كلَّفك. [مريم والمسيح للشعراوي ص٤٥].

وقصة نذر (امرأة عمران) تكشف لنا عن قلب (أم مريم جدة المسيح) عليهم السلام، وتوضح لنا ما يعمُر هذا القلب من إيمان عميق، ومن توجُّه إلى ربها بأعزِّ ما تملك، وهو الجنين الذي تحمله في بطنها خالصاً لربها، محرَّراً من كل قيْد، ومن كل شرك، ومن كل حقٍّ لأحد غير الله ﷺ، فلا تكون عبوديته إلا لله وحده فهذا هو التحرر، ومن هنا يبدو التوحيد أنه هو الصورة المثلى للتحرر.

[في ظلال القرآن للسيد قطب ١/ ٣٩٢].

ولكن لم يكن يقوم بخدمة [الكنيسة] إلا الأولاد الذكور، وكانت (امرأة عمران) ترجو أن يكون ما في بطنها ولداً ذكراً فلِذا نذرتْ وحرَّرت وتنازلت عن الانتفاع الدنيوي بما في بطنها، وأخذت تناجي ربها تبارك وتعالى وتتضرع إليه سبحانه سائلة منه القبول قائلة ما نصت عليه آية سورة [آل عمران]: {فتقبل مني إنك أنت السميع العليم}.

أي: يا رب هذا نذري بفلذة كبدي، وقد تيتَّم بموت أبيه من قبل أنْ يولد، جعلته يا رب صدقتي [لبيتك المقدس] فتقبله مني على وجه الرضى، فإنك أنت ربي السميع لتضرعي ودعائي وندائي، وأنت ربي العليم بما في ضميري وقلبي ونيتي.

وهذا الدعاء الخاشع من هذه المرأة الصالحة ينمُّ عن الإسلام الخالص لله تعالى، وعن التوجه إليه سبحانه كُلِّية، وعن التجرُّد من كل شيء إلا ابتغاء قبوله ورضاه عزَّ وجلَّ، فهي محبة لربها مخلصة في إسلامها.

قال تعالى: **{فلما وضعتها}** أي: وعندما ولدتْ (امرأة عمران) النَّسمه المنذورة التي كانت في بطنها وجدتْ رحمها الله المولود أنثى وليس ذكراً فتألَّمت وتحسَّرت وحزنت وأسِفت، فقالت معتذرة باكية: **{رب إني وضعتها أنثى}** أي: قد جاءت أنثى لا تؤدِّي الغرض الذي قصدته، وذلك لضعف الأنثى، ولما يصيبها من الحيض والنفاس، كما أنَّ الأنثى عورة لا تصلح لمخالطة الرجال في المعبد؟!

{والله أعلم بما وضعت} .. قرأ (أبو بكر وابن عامر): (بما وضعْتُ) بسكون العين وضم التاء، على أنّ هذه العبارة من جملة كلام (امرأة عمران)

السابق على أنها قالته لا عن طريق الإخبار لله تعالى، وإنما قالته على طريق التسليم لله والخضوع والتنزيه له من أنْ يخفَى عليه شيء سبحانه.

هذا وقرأ (الجمهور): (بما وضعَتْ) بفتح العين وسكون التاء، فيكون من كلام الله عزَّ وجلَّ والمعنى: والله عالم بالذي وضعتْه (امرأة عمران) قالته أو لم تقلْه، وهو سبحانه أعلم بحال هذه الأنثى، وسيكون لها شأن عظيم وخصوصية كبرى وإن كانت أنثى، فلا داعي يا أمها للتحسُّر والتحزُّن.

ويقوِّي هذه القراءة أنه لو كانت هذه العبارة من كلام (امرأة عمران) لكان وجه الكلام (وأنت يا رب أعلم بما وضعْتُ)، ولكن الآية أتت: {**والله أعلم بما وضعَتْ**}.

ورُوي عن (ابن عباس) رضي الله عنهما في رواية شاذَّة: (بما وضعْتِ) بسكون العين وكسر التاء، أي: قيل لها هذا القول، وفيه تعظيم لشأن هذه الأنثى التي وضعتِها يا ابنة عمران.

{**وليس الذكر كالأنثى**} أي: وليس الذكر التي طلبت لخدمة [بيت المقدس] كالأنثى التي وضعت، فهذه هبةٌ من الله تعالى، وعطاء الله يا أمَة الله أعظم شأناً مما تمنَّيت، ولن يصل الذكر إلى مرتبة هذه الأنثى.

وفي [تفسير الرازي ٨/ ٢٤]: "وهذا الكلام يدل على أنَّ (امرأة عمران) كانت مستغرقة في معرفة جلال الله، عالمة بأنَّ ما يفعله الرب بالعبد هو خير مما يريده العبد لنفسه!!

***

الفصل الرابع :

وإني سميتها مريم

قال تعالى على لسان (جدة عيسى لأمه) في سورة [آل عمران ٣٦]
{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}
وفيه إشارتان لطيفتان.

الأولى: أن الأم هي التي تولَّت وحدها تسمية ابنتها دون أبيها، وذلك لكون الأب قد مات قبل أن تولد البنت، وفيه تعريض بيُتْم هذه المولودة، استدراراً لرحمة الله عليها.

وفي [الإكليل للسيوطي]: "وفي الآية دليل على جواز تسمية الأطفال يوم الولادة، وأنه لا يتعين يوم السابع".

وفي [تفسير القاسمي ٤/ ٨٣٥]: "كما فيها مشروعية التسمية للأم وأنها لا تختص بالأب".

والإشارة الثانية: أن (امرأة عمران) سمتها (مريم) تقرباً إلى الله عز وجل وإظهاراً أنها غير راجعة في نيتها، إذ أنّ (مريم) في (لغتهم العبرية السريانية) معناه: العابدة خادمة الرب.

[فتح القدير لابن حجر ٦/ ٥٤١، محاسن التأويل ٤/ ٩١ ، بصائر ذوي التمييز ٦/ ١٠٩].

وكأنّ هذه الأم المؤمنة بهذه التسمية الحسنة تقول: إنْ فات ابنتي هذه الخدمة في [بيت المقدس] لأنها أنثى، فلتكن عابدة فيه طائعة لله تعالى، قائمة في خدمة عقيدتها ومنهجها في ذاتها، فإني قد سمَّيتُها (مريم) ضارعة إلى ربي الكريم أنْ تكون اسماً على مُسمًّى، وأنْ يكون فعْلها بإذن ربها مطابقاً لاسمها وأن يصْدُق فيها ظَنِّي.

هذا وقد ورد اسم (مريم) في القرآن الكريم (أربعاً وثلاثين مـرة) في (إحدى عشرة سورة): أولها في [البقرة ٨٧]: {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}، وآخرها في [التحريم ١٢]:
[وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا].

وفي هذه المرات جاء اسمها منادى في [خمسة مواضع]: أربع منها في سورة [آل عمران] : في الموضع الأول جاء النـداء عـلى لـسان (زكريـا) عليه السلام: {قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا}.

وفي المواضع الثلاثة الأخرى جاء النداء على لسان (الملائكة) عليهم السلام:

{وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ}.

{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}.

{إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ}.

وأما الموضع الخامس فقد جاء فيه الاسم منـادى عـلى لـسان (بنـي إسرائيل) قوم مريم وذلك في سورة [مريم ٢٧].

{فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً}.

هذا وقد علمـتْ (أم مـريم) بفطرتهـا وبـما علمهـا الله أن الـشَّيطان الرجيم هو الذي يوسوس للعابدين الطائعين، ويجعلهم يتمـرَّدون عـلى عبودية الله تعالى ويدفعهم إلى ارتكاب المعاصي، وتيقَّنـتْ أنـه لا يعـصم الإنسان من نزغات الشيطان الرجيم إلا الله القوي العزيز، من أجل هذا التجأت (أم مريم) عليهما السلام إلى ربها عزَّ وجلَّ تسأله أن يعصم ابنتها

وذريتها من آفات الدنيا والدين، إذ قالت في ضراعة وخشوع: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران ٣٦].

وبهذه الكلمة تودع الأم القانتة هديتها اليتيمة بين يدي ربها، وتدعها لحمايته ورعايته، تعيذها به سبحانه وتعيذ ذريتها المنتظرة من الشيطان الرجيم.

هذا والفعل (أعيذ) أصله من: عاذ يعوذ معاذاً ومعناه: اعتصم والتجأ. ويقال: أعذته وأعيذه بالله أي: عصمته وحفظته ووقيته وأجرته وحصنته. و(العوذة) هي: ما يعاذ به من الشيء، ومنه قيل للتميمة والرُّقْية: عوذة. و(المعوِّذتان) هما: {قل أعوذ برب الفلق} و{قل أعوذ برب الناس} لأنهما تعوذان قارئهما وتعصمانه من كل سوء.

[المصباح ٤٣٧، المفردات ٣٥٥].

هذا و(الذرية) قيل: أنها مشتق من (الذرء) وهو الخَلْق والإيجاد، وقد ترك همزها للتخفيف. وعلى هذا تُطلق الذرية على الأصول وعلى الفروع، فالولد للوالد ذرية لأنه ذري منه، والأب أيضاً ذرية للابن، لأن ابنه ذري منه، فالفعل متصل به من الوجهين، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس ٤١] أي: آباءهم وأصولهم.

وقيل الذرية: منسوبة إلى (الذَّرِّ)، والمعنى: أخرجهم الله من ظهر آدم ونسلهم كالذر، أي: صغار النمل. وعليه فإطلاق الذرية على الآباء يكون: مجازاً. هذا والذرية تكون واحداً واثنين وجمعاً، وأصله الجمع.

وفي نطقها ثلاث لغات، أفصحها ضم الذال (ذُرية) وبها قرأ السبعة، والثانية كسرها (ذِرية) وتروى عن (زيد بن ثابت). والثالثة بفتح الذال مع تخفيف الراء (ذَرِية) وبها قرأ (أبان بن عثمان).

وتجمع ذُرية على] (ذُريات) وعلى (الذرارى)، والأول جاء في كتاب الله العزيز (أربع مرات) منها قوله تعالى في سورة [الفرقان ٧٤]:
{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ}.

وفي القرآن الكريم ورد لفظ الذرية مفرداً مجرداً ومضافاً (ثماني وعشرين مرة): أولها في [البقرة ١٢٤]: {قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي}،

وآخرها في [الحديد ٢٦]:
{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}.
[المصباح ٢٠٧، المفردات ١٨٣، البحر المحيط ١/ ٣٧١، اللسان ذرأ].

هذا وأما لفظ (الشيطان) ففيه قولان: أحدهما أنه من: شَطَن يَشْطُن شطوناً [من باب قعد]، ومعناه: بَعُد عن الحق، وطُرِد عن رحمة الله، فتكون النون فيه أصلية ويكون وزنه: (فَيْعال)-

والقول الآخر: أنه مِن شاط يشيط بمعنى احتراق غضباً، وحَمِي ذميمة، فالنون فيه زائدة، ووزنه: (فَعْلان). [المصباح ٣١٣ المفردات ٢٦٤].

وقال (أبو عبيدة): الشيطان اسم لكل عارم عاتٍ متمرِّد مِن الجنّ والإنس والدوابِّ قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ} [الأنعام ١١٢]. فالشياطين: هم مردة الجن ومردة الإنس!

هذا وفي كتاب الله العزيز ورد لفظ (الشيطان) مفرداً (سبعين مرة): أولها في [البقرة ٣٦]: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ}.
وآخرها في [التكوير ٣٦]: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ}.

وفيه جاء لفظ (شياطين) جمعاً (ثماني عشرة مرة):

أولها في [البقرة ١٤]: {وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ}.

وآخرها في [الملك ٥]: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ}. [المصباح ٢٢١، المفردات ١٩٦، اللسان شطن].

أما لفظ (الرجيم) فمأخوذ من الرَّجْم وهو الرمي بالرِّجَام أي: الحجارة. يقال رُجِم فهو مرجوم، ويستعار الرجم للرمي بالظن والتوهم، قال تعالى: {لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً} [مريم ٤٦].

والرجيم: يحتمل أن يكون بمعنى فاعل، أي: راجم، على معنى الشيطان يرمي ويقذِف بالوسواس والشر والعصيان في قلب ابن آدم.

ويحتمل أن يكون بمعنى مفعول، أي: مرجوم على معنى أن الشيطان يُرجَم بالشهب أو يُطَرد عن رحمة الله وخيراته، أو يبعد عن منازل الملأ الأعلى ويُلْعَن.

وكلمة (رجيم) وردت في القرآن الكريم (ست مرات):

أولها في [آل عمران ٣٦]: {وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}.

وآخرها في [التكوير ٢٥]: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ}.

هذا وفي قول (امرأة عمران): {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} إشارة إلى حرصها ورجائها في أن يحفظ الله لها ابنتها (مريم) ويرعاها حتى تشب وتكبر ويكون لها ذرية. هذا والشيطان دوماً يدخل مع خلق الله في عراك، ولكنه لا يستطيع مع الله في عراك أبداً. [مريم والمسيح للشيخ الشعراوي ٤٩].

وقد جاء في الحديث النبوي عن (أنس بن مالك) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {**إن الشيطان واضعٌ خَطْمَه على قَلْب ابن آدم فإذا ذَكَر الله خنَسَ وإذا نَسِيَ الْتَقم قلبه فذلك الوسواس الخناس**}.

[أخرجه أبو يعلي ٧/ ٤٣٠١ وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٢٦٨].

وقد كَررتْ (أم مريم) قولها: (وإني) للتأكيد ولتغير المخبر به عن سابقه، فقد يُشْعِر كلامها السابق أنها كارهة لما وضعتْ، فأكَّدتْ في كلامها هذا إظهاراً لرضاها بما قدَّر الله تعالى، ولذلك انتقلتْ للدعاء الدال على الرضا والمحبة.

[المرأة في القصص القرآني للشرقاوي ٢/ ٦٠٨].

هذا وقد جاءت (الأفعال الثلاثة) السابقة في كلام (امرأة عمران) بصيغة الماضي: (نذرت)، (وضعتها)، (سميتها)، وذلك للدلالة على التحقُّق والثبوت، وعلى المُضِيِّ في الوفاء بما نذرتْ به بلا تردّد. وفي التعبير بـ[وإني أعيذها] بصيغة المضارع ما يدل على التجدُّد والاستمرار، لأن الاستعاذة من الشيطان مطلوبة في كل حين.

[روح المعاني ٣/ ٢٢٠].

***

ولقد عَلِم الله عزَّ وجلَّ إخلاص (حنة) أم مريم عليها السلام في مطلبها، وعَلِم سبحانه صِدْق نيتها في نذْرها، لهذا رضي جلَّ جلاله بابنتها (مريم) في النذر مكان الذَّكَر، ومن هنا جاءها الرد الجميل من الرب الكريم في ابنتها من جنس ما سألت ودعَتْ قال تعالى في سورة

[آل عمران ٣٧]: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

نعم نعم هكذا استجاب الله تبارك وتعالى دعاء (امرأة عمران) في ابنتها وفي ذريتها، ولم يكن لابنتها (مريم) ذرية إلَّا (عيسى ابن مريم) عليهما السلام. فالذرية تطلق على الواحد والاثنين وعلى الجمع كما سبق.

هذا وقد روى (الشيخان وأحمد) عن (أبي هريرة) رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من مولود يولد من بني آدم إلا نخسه -وفي رواية يمسه- الشيطان حين يولد، فيستهلُّ مِن مسِّه صارخاً إلا مريم وابنها).

ثم قال (أبو هريرة): واقرؤوا إن شئتم: {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}. [صحيح البخاري ٣٤٣١، ٤٢٧٤، فتح الباري ٨/ ٥٤١ صحيح مسلم ٢٣٦٦، شرح النووي ١٥/ ١٢٠، مسند أحمد ٧٦٥١].

وفي رواية أخرى عن (أبي هريرة) أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبه بأصبعه حين يولد غير عيسى وأمه ذهب ليطعن فطعن في الحِجاب). [مسند أحمد ١٠٣٩٤) قلت: والحجاب هنا هو المِشيمة التي يكون فيها الجنين.

وفي [حدائق الروح والريحان ٤/ ٢٧٩]: "وطعن الشيطان للأنبياء غير عيسى عليه السلام ليس فيه نقص لهم ولا ينافي عصمتهم منه، لأنهم معصومون عن وسوسته وإغوائه، والطعن من قبيل الأمراض والآلام المتعلقة بظاهر البدن والأنبياء غير معصومين من مثل هذا".

هذا وقد أرشدنا رسولنا الحبيب ﷺ إلى تحصين ذرياتنا من الشيطان الرجيم، فعن (ابن عباس) رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (لو أن أحدكم إذا أتى أهله، قال: بسم الله، اللهم جنبني الشيطان، وجنِّب الشيطان ما رزقتني، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يُسَلَّط عليه).

قال تعالى إجابة (لامرأة عمران) في ابنتها (مريم): ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ القبول: هو أخذ الشيء برضا، والحَسَنُ شيء فوق الرضا. والفاء في (فتقبلها) للتعقيب، ولبيان سرعة استجابة المولى عزَّ وجلَّ لدعاء المرأة التقية، وسرعة تحقيقه سبحانه لرجائها، فالله تبارك وتعالى من المؤمن قريب ولدعائه مجيب، قال تعالى في [البقرة ١٨٦]:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

فالله تعالى تقبل (مريم) من أمها: ورضي أن تكون محررة لعبادته وخدمة بيته على صغرها وعلى أنوثتها [تفسير المراغي ١/ ١٤٥].

هذا وقد جاء التعبير القرآني: (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ)، ولم يجيء: (فتقبلها بتقبل) وذلك - والعلم عند الله - للجمع بين الأمرين: (التقبل) الذي هو الترقي والمبالغة في القبول و(القبول) الذي يقتضي الرضا والإنابة. [تفسير محاسن التأويل ٤/ ٩٢]

قال [شيخ زاده في حاشيته على تفسير البيضاوي ١/ ٦٢١]: "فذَكَر (التقبل) أولاً بقوله: (فتقبلها) ليفيد الجِد والمبالغة ثم ذَكَر (القبول) بقوله: (بقبول)، ليفيد أن ذلك القبول ليس على خلاف الطبع بل هو على وفق الطبع وعلى أحسن الوجوه!!

وقال [الإمام الرازي في التفسير الكبير ٨/ ٢٥]: "وهذه الوجوه وإن كانت ممتنعة في حق الله تعالى إلا أنها تدل من حيث الاستعارة على حصول العناية العظيمة في تربية (السيدة مريم)، إذ تقبلها سبحانه بإقامتها مقام الذَّكَر في النذر ولم يقبل قبلها أنثى".

هذا والأرجح أن (أمها حنة) قدمتها (لبيت المقدس) عقب ولادتها.

فقد روي عن (ابن عباس) رضي الله عنهما أنه قال: حين ولدت (امرأة عمران) ابنتها (مريم) لفَّتها في خرقة، وحملتها إلى (الكنيسة) ووضعتها عند الأحبار أبناء (هارون) عليه السلام وهم في (بيت المقدس) كالحجبة في (الكعبة) وقالت لهم: خذوا هذه النذيرة محررة لله تعالى ولخدمة الهيكل. فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ومعلمهم (عمران)، فكان كل واحد منهم شديد الحرص على كفالة هذه اليتيمة. فقال لهم (زكريا) عليه السلام: وهو رأس الأحبار: أنا أحقُّ بها لأن خالتها عندي. وفي رواية: عندي أختها – من أبيها – فقال الأحبار: لا تَقُلْ ذلك يا زكريا، فإن (مريم) لو تُركت لأحقِّ الناس بها لتُركت لأُمِّها التي ولدتها، ولكن نقترع عليها، وكانوا (سبعة وعشرين) - على الأرجح – فدعوْا باقلامهم التي يكتبون بها [التوراة]، وقيل الأقلام هنا هي السهام، أي: القداح التي يتساهم بها. وفي [روح المعاني ٣/ ٢٥٣]: "وكانت من نحاس وهي مأخوذة من القَلْم بمعنى القطع، ومنه: قلامة الظُّفُر. وجمع الأحبار أقلامهم في موضع وغطُّوها، ثم أمروا أحد الغِلمان ممن في (بيت المقدس) أن يدخل يده من تحت الغطاء ويخرج قلماً واحداً،

فأخرج (قلم زكريا) فقالوا: لا نرضى واختصموا فيما بينهم على (كفالة مريم)، ثم اتفقوا على أن يلقوا أقلامهم إلى نهر - قيل هو (نهر الأردن) أو هو نهر جار في (حلب) - فألقوا فيه أقلامهم فارتفع (قلم زكريا) فوق الماء وترسبت أقلامهم، فلم يقبلوا له وقالوا: نقترع الثالثة فمن جرى قلمه مع الماء فهو يكفلها، فألقوا أقلامهم، فجرى (قلم زكريا) مع الماء وارتفعت أقلامهم، ففاز (زكريا) بالقرعة. فعند ذلك أخذ (زكريا مريم) عليهما السلام وبنى لها غرفة في (المسجد) مرتفعة لها سُلَّم وباب لا يدخل عليها إلا هو.

قال تعالى مخبراً رسوله الحبيب (سيدنا محمد) ﷺ: {**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**} [آل عمران ٤٤].

وقال رسول الله ﷺ: (ما تقارع قوم ففوَّضوا أمرهم إلى الله عزَّ وجلَّ إلا خرج سهم المحق).

وقال (محمد الباقر) ﷺ : "أول من سوهم عليه مريم بنت عمران". [فتح الباري ٥/ ١٥٧ + ٣٤٦، روح المعاني ٣/ ٥--].

وقال [الشيخ الشعراوي في مريم والمسيح ٥٣] بتصرف:

والناس لا يلجأون إلى القرعة إلا إذا اختلفوا فعندما يقترعون على شيء ما فَهُمْ قد خرجوا عن مراداتهم في الشيء إلى مراد الله عزَّ وجلَّ، وهو ما حدث عند كفالة (زكريا لمريم).

قال تعالى: {**وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا**}..

أي: وبعد أن تقبَّل الله الكريم (مريم الوليدة) بقبول حسن، ورضيها أن تكون نذراً محرراً (لبيت المقدس) وهي أنثى، زاد سبحانه في إكرامها وإنعامه عليها بأن أنبتها نباتاً حسناً.

أي: ربَّاها ونمَّاها بما يصلحها في جميع أحوالها، كما يُربَّى النبات الطَّيِّب في الأرض الصالحة، فنمَّى جسدها فكانت خير لِدَّاتها جسماً وقوة واكتمالاً طبيعياً، ونمى نفسها صلاحاً وعفَّة وسداداً وبُعداً عن الخطايا [كما قال صاحب حدائق الروح والريحان ٤/ ٧٩--].

وربَّاها تربية حسنة في عبادة وطاعة لربها [كما قال صاحب روح المعاني ٣/ ١٣٩--].

وسلك بها طريق السعداء [كما قال الإمام الطبري في تفسيره ٤/ ٦٩].

وجعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً [كما قال الحافظ ابن كثير في التفسير ١/ ٣٥٩].

وقال (ابن عطاء): "ما كانت ثمرته مثل عيسى عليه السلام فذاك أحسن النبات" [كما جاء في النسفي ١/ ٢٥٢].

قال تعالى: {وكفلها زكريا}..

قرأ (الكوفيون): (وكفَّلها) بتشديد الفاء على إسناد الفعل إلى الله تعالى (وزكريا) مفعول به ثان. وقرأ (باقي السبعة): (وكفَلها) بتخفيف الفاء على إسناد الفعل إلى زكريا فهو فاعل ومعناه ضمَّها إليه بإرادة الله تعالى وتوفيقه.

والقراءتان صحيحتان متواترتان [كما جاء في النشر في القراءات العشر ٢/ ٢٣٩].

وقرأ (أُبَيٌّ) رضي الله عنه: (وكفَلها) وهو بمعنى (كفّلها) والمعنى: جعل الله تعالى نبيه زكريا كافلاً لمريم ومربياً وضامناً لمصالحها وقائماً بشئونها، وذلك لا بالوحي بل بمقتضى القرعة [كما قال الإمام أبو السعود].

***

الفصل الخامس :

"كلما دخل عليها زكريا المحراب"

و(زكريا) هذا هو نبيٌّ عظيم من أنبياء [بني إسرائيل]، يرجع نسبه إلى (سلميان بن داود) عليهما السلام ومنه إلى (إبراهيم الخليل) على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فهو من نسل طاهر وأصل كريم، وكان عليه السلام رئيس الهيكل اليهودي من أولاد (هارون) الذين صارت إليهم سدانة المعبد، كما كان زكريا عالماً [بالتوراة]، فكان إمام علماء (بيت المقدس)، وكان في تلاميذه أربعة آلاف عالم قارىء التوراة.

[بصائر ذوي التمييز ٦٠/ ٩٢].

وقال (الشيخ عبد الرحمن السعدي): وهذا من منّة الله تعالى على العبد أن يجعل مَن يتولى تربيته مِن الكاملين المصلحين.

[تيسير الكريم الرحمن ١٢٢].

وعن (أبي هريرة) رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كان زكريا نَجَّاراً).

[أخرجه مسلم وابن ماجه وأحمد].

و(زكريا) اسم أعجمي، معناه في العبري: دائم الذِّكْر والتسبيح.

[تفسير النسفي ١/ ٢٥٢].

هذا وفي (زكريا) على المشهور لغتان: المد (زكرياء) والقصر (زكريا) وهما لغتا أهل الحجاز، وقرىء بهما في السبع.

وفي القرآن الكريم ورد اسم (زكريا) (سبع مرات): ثلاث منها في [آل عمران] ومرتان في [مريم] ومرة في [الأنعام] والسابعة في [الأنبياء ٨٩] في قوله تعالى:

{وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} .

هذا وقد بنى (زكريا لمريم) عليهما السلام (محراباً) خاصاً في (مسجد بيت المقدس).

قال (الزجاج): والمحراب في اللغة: هو الموضع العالي الشريف. [زاد المسير ١٩٠].

وجمع محراب: محاريب. قال تعالى: {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} [ص ٢١]. وقال تعالى: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ} [سبأ ١٣].

وقال (الأصمعي): المحراب هو الغرفة، والتسور لا يكون إلا من عُلُوٍّ. [الرازي ٢٧٨].

وفي [الكشاف ١/ ٣٥٨، والتفسير الكبير ٨/ ٢٧]:

وقيل: بنى (زكريا لمريم) محراباً في المسجد أي: غرفة، وجعل بابها في وسطها لا يصعد إليها إلا بسُلَّم، وكان إذا خرج زكريا يغلق عليها باب المحراب.

وقيل: سبعة أبواب! هذا ولا تسمى الغرفة محراباً إلا إذا كانت مرتفعة يرتقي إليها بسلم.

قال (وضاح اليمن) في [لسان العرب (حرب) جمهرة اللغة ٢٧٦]:

رَبَّةُ مِحْرَابٍ إِذَا جِئْتُها لم أَلْقَها وأَرْتَقِي سُلَّماً

وفي [المفردات للراغب ١١٩]: ومحراب المسجد قيل سمي بذلك، لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى.

وفي [المصباح المنير للفيومي ١٢٧]: ومحراب المصلي مأخوذ من المحاربة لأن المصلي يحارب الشيطان ويحارب نفسه بإحضار قلبه وتهذيب نفسه.

هذا (وزكريا) قد اتخذ (لمريم) عليهما السلام هذا (المحراب)، وهو أرقى وأشرف موضع في (بيت المقدس)، وذلك إكراماً لها وصوناً لعرضها، وكان لا يدخل عليها إلا هو وحده لقضاء حاجاتها ورعاية مصالحها.

قال (الإمام ابن كثير) في [قصص الأنبياء ٤٦٥]: فكانت (مريم) عليها السلام تعبد الله في محرابها، وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها، وكانت تقوم بالعبادة ليلها ونهارها حتى صارت يضرب بها المثل في عبادتها في [بني إسرائيل]، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة، حتى إنَّ (زكريا) نبي الله عليه السلام كان إذا دخل عليها موضع عبادتها وجد عندها رزقاً غريباً فيدهش ويتعجب من ذلك.

قال تعالى في سورة [آل عمران ٣٧]: {**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**}.

أي: وكان (زكريا) في كل وقت دخل فيه على (مريم) [المحراب] مكان عبادتها وجد ورأى عندها رزقاً غريباً عجيباً لم يحمله هو إليها، ولا هو مما يعهد في هذا الوقت من الزمن، (وزكريا) هو كفيلها الوحيد، والرزق هو أول المطلوبات من الكفيل.

قال (مجاهد وعكرمة وابن جبير) وغيرهم: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف.

وعن (ابن عباس) رضي الله عنهما: أن ذلك من ثمار الجنة، وكان رزقها ينزل عليها من الجنة. [تفسير البيضاوي ٢/ ١٥].

وفي [روح المعاني ٣/ ٢٢٤]: والذي عليه الجل أن ذلك عوض لها عن الرضاعة. فقد روي عن (الحسن) رحمه الله: أن (مريم) لم ترضع ثدياً قَطُّ.

قال (الحافظ ابن كثير) في [التفسير ١/ ٣٦٠]: وفي ذلك دلالات على كرامات الأولياء، وفي السنة المحمدية لهذا نظائر كثيرة.

هذا ولفظ (كُلَّما): اسم شرط غير جازم وهو في محل نصب على الظرفية الزمانية، ويقتضي التكرار ويدل على كثرة تفقُّد (زكريا لمريم)، ويشير إلى كثرة صلاة (مريم) وملازمتها لمحرابها.

هذا و(المحراب) منصوب على نزع (الخافض)، إذ حق الفعل (دخل) أنّ يتعدى (بفي) أو (بإلى) فيقال: دخل في المحراب أو إلى المحراب. لكنه اتسع فيه فأوصل بنفسه إلى المفعول [دخل المحراب] فهو كقولهم: دخلت الدار، وسكنت الشام.

[إملاء ما منّ به الرحمن لأبي البقاء ١٣٩].

والفعل (وجد) جواب (كلما)، و(عندها) يجوز أن يكون ظرفاً لوجد، ويجوز أن يكون حالاً من الرزق، وهو صفة له في الأصل أي: رزقاً كائناً عندها.

ولفظ (كلما) ورد في القرآن الكريم (خمس عشرة مرة):

أولها في [البقرة ٢٠]: ﴿ **يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ**﴾.

وآخرها في [نوح ٧]: {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ} . [معجم أدوات القرآن ٣٧٤].

وقال [الدكتور أحمد الشرقاوي في رسالته: المرأة في القصص القرآني ٢٠/ ٦١٤]: والرزق الذي كان عند مريم عليها السلام هو أعمُّ من الفاكهة في غير حينها المعهود، ولذلك جاء بصيغة التنكير (رزقاً)، وهذه الصيغة تفيد التعظيم والتعميم والتكثير، فهو رزق حسِّي ورزق معنويٌّ.

وهذا الرزق كرامة من سلسلة الكرامات التي أظهرها الله تعالى (لمريم)، تمهيداً للآية العجيبة التي تنتظرها، وهي خَلْقُ ابنها (عيسى) عليه السلام من غير أب.

فالكرامة تكريم لها وتشريف وتمهيد وإعداد لها، حتى تكون مهيأة أن تستقبل نفخة الروح وكلمة الله، وأن تلد (عيسى) عليه السلام على غير مثال من ولادة البشر!.

وكان (زكريا) عليه السلام يتعجب وينبهر مما يجده من رزق عند (مريم)، وليس لها كافل سواه لهذا سألها مستغرباً مستفهماً: {قال يا مريم أنى لك هذا} ؟

أي: (يا مريم) من أين لكِ هذا الرزق الآتي في غير حينه، والذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وكيف ومتى وصل إليك؟ والأبوابُ مغلقة عليك، ولا يدخل عليك غيري يا ابنة عمران؟!

قال [أبو البقاء العكبري في إملاء ما منَّ به الرحمن ص١٣٩]:

(قال يا مريم): كلام مستأنف فلذلك لم يعطفه بالفاء، ويجوز أن يكون الفاء محذوفاً والتقدير: (فقال يا مريم) كما حُذفت في جواب

الشرط في قوله تعالى في [الأنعام ١٢١]: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} والتقدير: فإنكم. وكما في قول الشاعر:

(من يفعل الحسنات الله يشكرها) والتقدير: فالله يشكرها.

والموضع الذي جاء فيه (قال يا مريم) يشبه جواب الشرط.

ولفظ (أنَّى) اسم استفهام يأتي بمعنى: [كيف]، فتكون في محل نصب حال، ومنه قوله تعالى: {قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [يونس: ٣٤].

وتأتي (أنَّى) بمعنى: (من أين) فتكون في محل نصب على الظرفية المكانية ومنه قوله تعالى: {قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا} [آل عمران ٣٧].

وتأتي (أنَّى) بمعنى ثالث وهو: (متى)، ومنه قوله تعالى:

{قَالَ أَنَّىَ يُحْيِـي هَـَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا} [البقرة: ٢٥٩].

وفي كتاب الله العزيز ورد لفظ (أنى) (ثمانياً وعشرين مرة):

أولها في [البقرة ٢٢٣]: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}، قال [أبو حيان في البحر المحيط ٣/ ١٧١]: و(أنى) في هذه الآية تحتمل المعاني الثلاثة أيضاً وهي [كيفما، ومن أين، ومتى]،

وانظر [شرح الكافية للرضي ٢/ ١١٦].

وآخرها في [الفجر ٢٣]: {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى}.

[معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم ١٥٧].

(فزكريا) عليه السلام كلما دخل (المحراب) على (مكفولته مريم ابنة عمران) وجد عندها رزقاً كثيراً عجيباً في غير حينه فيتعجب من ذلك

فيسألها: (يا مريم أنى لك هذا)؟ وبهذا التساؤل يلفتنا الله سبحانه وتعالى لفتة كريمة فيها صلاح الكون.

كما قال (الشيخ الشعراوي) في [معجزة القرآن ١/ ٣٤٩]:

فلو أن رَبَّ كل أسرة أو راعٍ لمجموعة من الناس عندما يجد مظهراً من النِّعم لا يتناسب مع قدراتهم البشرية قال لهم: من أين لكم هذا؟ لصلح الكون كُلُّه، ولأصبح كل إنسان رقيباً حقيقياً على أسرته.

هذا والآية ترينا مدى حرص (زكريا على مريم) وعلى سلوكها مع أنها عابدة متعبدة، فأراد عليه السلام أن يتأكد من مصدر ذلك الرزق.

وسمعتْ (مريم) سؤال (زكريا) فأجابته في هدوء وخشوع وصدق وتواضع واعتراف بنعمة الله وفضله، مع تفويض الأمر كُلِّه إليه تبارك وتعالى، حيث: {**قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**}.

أي: هذا الرزق الذي تجده عندي يا نبي الله هو من عند الله تعالى، ولم يأت به آدمي ألبتة، وهو سبحانه يرزق الناس جميعاً رزقاً واسعاً بغير جهد ولا تعب، وإنَّ الله يرزقِ من يشاء ما يشاء بغير حساب ولا تقدير لكثرته وبلا محاسبة، ومن حيث لا يحتسب الإنسان، بل ومن غير استحقاق وإنما يرزقهم تفضلاً منه سبحانه ومن غير مسألة منهم وبلا سبب، فهو سبحانه مسبب الأسباب.

[تفسير روح البيان ٢/ ٢٩].

فعطاء الله ممدود لا تحده حدود، ولا تقيده قيود، وفضل الله عظيم، وخزائنه ملأى، وهو سبحانه الرزاق الكريم وهو أجود الأجودين.

هذا وفي الحديث القدسي عن (أبي هريرة) رضي الله عنه:

{يمين الله مَلْأَى لا يغيضها شيء، سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض لم يَغِض ما في يمينه}.

[رواه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة، وفي شرح النووي ٧/ ٨٠]

والسح: هو الصب الكثير [كما في المصباح المنير].

هذا وصَدَّق (زكريا مريم) عليهما السلام فيما تقول وتُخبر، وتيقَّن بطلاقة قدرة الله تعالى التي تهب ما تشاء لمن تشاء دون اللجوء إلى الأسباب، وإنما تقول للشيء: كن فيكون، عند ذلك وفي ذلك المكان الطاهر المبارك توجّه (زكريا) الحليم إلى ربه الكريم يدعوه بأنْ يرزقه الله ذرية طيبة، مع أنه كان شيخاً فانياً وكانت امرأته عاقراً!

قال تعالى: {**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**} [آل عمران ٣٨].

قوله (هنالك): (هنا) ظرف مكان، ويستعمل أيضاً للزمان، واللام للبعد والكاف للخطاب، وتقديم الظرف للإيذان بأنه عليه السلام في ذلك المكان وفي ذلك الوقت أقبل على الدعاء من غير تأخير.

والمعنى العام: في ذلك المكان الذي كان (زكريا) قاعداً فيه عند (مريم) في (محرابها)، وفي ذلك الوقت الذي شاهد خلاله تلك الكرامات وخوارق العادات عند (مريم) دعا (زكريا) ربه، وسأله متضرعاً قائلاً في مناجاته: {رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء} أي: يا رب يا كريم أنا عبدك المسكين أعطني من عندك،

وبمحض قدرتك، ومن غير سبب معتاد، أعطني ذرية طيبة أي: ولداً مباركاً تقياً صالحاً رضياً ملائماً في صفاته وأفعاله ما أرجوه فيه وأتمناه منه. فإنك يا إلهي سميع نداء من ناداك، وقابل دعاء من دعاك.

هذا والدعاء بحصول الذرية الطيبة هو سُنَّة المرسلين والصِّديقين والصالحين.

وفي [قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٦٦]: قال (الحسن) رحمه الله: قال (زكريا): يا من يرزق (مريم) الثمر في غير أوانه، هب لي ولداً طيباً وإن كان في غير أوانه.

قال [الإمام الألوسي في روح المعاني ٣/ ٢٣٢]:

وجاء الطلب بلفظ الهبة، لأن الهبة إحسان محض ليس في مقابلة شيء، وهو يناسب ما لا دخل فيه للوالد لكِبَر سِنِّه، ولا للوالدة لكونها عاقراً لا تلد.

هذا والذرية تطلق على الواحد وعلى الجمع، والمراد بها هنا ولد واحد. وأنَّث (طيِّبة) لتأنيث لفظ الذرية.

وهكذا وفي (محراب مريم) مكان عبادتها ومنزل الكرامات عليها، تنبَّه (زكريا) إلى حاله وتحرَّكت في نَفْسِه الرغبة البشرية الفطرية في الذرية، وإنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها لحكمة عُليا في امتداد الحياة وارتقائها، وحَنَّ (زكريا) إلى النسل وطمع في أن يكون له ولد من صُلبه.

هذا وقد ذَكر الله تعالى في كيفية دعاء زكريا عليه السلام (ثلاث صيغ):

إحداها هذه المتوسطة الواردة في [آل عمران ٣٨]: {**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**} .

والثانية: الموجزة والواردة في سورة [الأنبياء ٨٩]: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ}.

والثالثة: المفصَّلة والواردة في سورة [مريم ١-٦]: {كهيعص ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً}.

قال صاحب [روح المعاني ٣/ ٢٣٢]: فدَلَّ هذا التَّكرار في الإخبار على أن الدعاء قد تكرر من (زكريا) عليه السلام (ثلاث مرات)، كل مرة بصيغة، وأنَّ بيْن الدعاء والإجابة زمناً، وقيل: وقد يكون دعاءً واحداً.

قلتُ: والراجح عندي - والعلم عند الله - أنَّ الدعاء كان واحداً متتالياً في وقت واحد ومكان واحد، حيث كان (زكريا في محراب مريم)، فخشع قلبه لِـمَا يرى من كرامات الله، ولما يسمع من كلمات (مريم) وتمنَّتْ نفسه الولد الصالح، فاختلجتْ في قلبه الطاهر الحاجات والطلبات، وتدافعتْ فيه الدوافع والمبرِّرات، وهو قاعد بين يدي (مريم) وعندما نهض قائماً في (المحراب) وجسده الواهي يرجف، وفؤاده النقيُّ يخفق، وملء نفسه الزكية رجاء في ربه الرحمن الرحيم، وحَسُن ظنه به سبحانه وتعالى فقد عوَّده المنَّان الحنَّان الرحمة والإحسان والامتنان بقبول الدعاء، وإجابة الحاجات طوال عمره، وهو عليه السلام في فتُوَّته وقُوَّته لا سيما عند الاضطرار وشدة الافتقار، فما أحوجه الآن وهو

في ضعفه وشيخوخته وشيبته، وامرأته المسنة عاقر منذ شبابها إلى شيبها، ما أحوجه وحاله هذه أن يستجيب الله تعالى دعاءه! ويتم نعمته عليه، ويرزقه وامرأته ولداً طيباً يورثه النبوة والحكمة والصلاح والعلم!!

وكان (زكريا) خائفاً أنْ يلي الأمر من بعده (مواليه وعشيرته) فلا يقومون لله بدينه حق القيام، لِـمَـا يعرف عنهم من التهاون، وعدم الاستمساك بالشريعة، فيضيع دين الله، ويضل (بنو إسرائيل) ولم يبعث فيهم نبي بَعْدُ، لهذا أخذ (زكريا) يسأل ربه ويدعوه ويناجيه ويناديه نداءً خفياً، ويلحُّ في الطلب قاعداً وقائماً أن يرزقه الله ذرية طيبة يرث عنه العلم والدين لا المال والدنيا (فالأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورَّثوا العِلم)، (والعلماء ورثة الأنبياء)، والله خير الوارثين.

[رواه أحمد ٥/ ١٩٦، وأبو داود ٣٦٤١].

وهكذا سأل (زكريا) ربه من غير أن يرفع صوته، وتكرر الدعاء في نفسه في وقت واحد وفي مكان واحد (ثلاث مرات)، وهدفه واحد ومضمونه واحد، وإن تعددت في الظاهر أساليبه وتعددت صيغه، فقد جمعت (المواضع الثلاثة) في (السور الثلاث) حقيقة (دعاء زكريا) وكوَّنت أمام القارىء المتأنِّي صورة كاملة لمقاصد هذا الدعاء.

وهذه الطريقة في التعبير والإخبار عما يجري في نفس الإنسان لَوْنٌ من ألوان الإعجاز القرآني الذي يصور المعنى الواحد في صور متعددة ليس بينها تناقض ولا تضارب، وإنما يجمعها تناسق وتكامل وترابط.

[المرأة في القصص القرآني ٢/ ٦٢٦].

ولهذا عقَّب البشارة (لزكريا بيحيى) عليهما السلام بالعطف بالفاء المفيد لسرعة الجواب، فقال تعالى في [آل عمران ٣٩]: {فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ}، وقال تعالى في [الأنبياء ٩٠]: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ}. وحتى قوله في [سورة مريم ٧]: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ} ظاهره اعتقاب التبشير الدعاء لا تأخره عنه.

هذا وقد علم الله الخبير صدْق نبيه (زكريا) وشدة حاجته للولد، ورأى سبحانه قَلْب (زكريا) النَّقي، وسمع صوته الخَفِيّ، فشمله برحمته الواسعة، وبشَّره بواسطة (ملائكته) بأن وهب له تبارك وتعالى ولداً اسمه (يحيى)، وأصلح له زوجه.

هذا وكما جاء (دعاء زكريا) في (ثلاث سور) من القرآن الكريم، فقد جاءته (البشرى) من ربه الكريم في (السور الثلاث وبصيغ ثلاث):

أولها: في [آل عمران ٣٩]: {فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ}.

والثانية: في [مريم ٧]: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً}.

والثالثة: في [الأنبياء ٩٠]: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}.

وهكذا جاءت الإجابة والبشارة بالعطف بالفاء المفيد لسرعة الجواب: (فنادته الملائكة) و(فاستجبنا له) وصدق الله العظيم القائل في محكم التنزيل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر ٦٠].

وقد دعاه سبحانه الأنبياء من قبل (زكريا) ومن بعده فاستجاب لهم، قال تعالى في سورة [الأنبياء ٧٦]: ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ [الأنبياء ٨٣، ٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ [الأنبياء ٨٧، ٨٨]، وعن يوسف عليه السلام عندما دعا ربه أن يصرف عنه كيد النسوة، قال تعالى في سورة [يوسف ٣٤]: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وعن (سيدنا محمد) صلى الله عليه وسلم ومَن معه مِن المسلمين في (غزوة بدر الكبرى)، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، وعن (المؤمنين) كل المؤمنين الذين يدعون ربهم ويذكرونه ويستغفرونه ويسألونه أن يؤتيهم ما وعدهم على رسله، قال تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾.

أحبتي.. وبتأمل آيات الإجابة والبشارة (لسيدنا زكريا) نجد أنها وإن تعددت سورها وتنوعت صيغها إلا أنها في مجموعها آيات مترابطة متكاملة تكوّن أمام القارىء المتأني صورة كاملة لإجابة ربّانية وبشارة

ملائكية، مضمونها واحد وهدفها واحد، ففي آية سورة [الأنبياء ٨٩] ينادي (زكريا) عليه السلام ربه عزَّ وجلَّ: {رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} أي: يا ربِّ لا تتركني منفرداً وحيداً بلا ولد يؤنسني ويرثني إرث نُبوّة، ويقوم مقامي بعد موتي، وأنت يا ربِّ خير مَن يبقى بعد مَن يموت، فأنتَ حسبي إن لم ترزقني وارثاً مِن صلبي!

وفي هذه الآية يخبر الله تعالى أنه قد استجاب لدعاء (نبيه زكريا) ولبى نداءه: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ}.

(وزوج زكريا) – على رواية – هي: (اليصابات أخت حنة بنت فاقوذ) فهي (خالة مريم) وقد بلغت آنذاك (تسعاً وتسعين سنة)، والتعبير القرآني البديع أطلق عليها في هذه الآية (زوجاً) دون (امرأة) لأن الله تعالى هنا أصلحها لأن تحمل وتلد (يحيى) من زوجها (زكريا) والذي تجاوز (المائة) وبعد أن كانت امرأة عاقراً لم تحمل ولم تلد قَطُّ.

ثم في آية [آل عمران ٣٩] يُخبر الله تعالى أنَّ الملائكة هي التي نادت (زكريا) وبشرته عن ربه تبارك وتعالى: {فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ} أي: نادته جماعة الملائكة أو ناداه (جبريل) عليه السلام كما جاء في قراءة (ابن مسعود) رضي الله عنه [تفسير الطبري ٣/ ١٦٩] وأخبرتْه أن الله تعالى يبشره (بيحيى).

وفي آية سورة [مريم ٧] يؤكد الله تعالى (لزكريا) عليه السلام أن البشارة بالولد إنما هي هِبَةٌ منه جلَّ جلاله، وأنَّ تسمية هذا الولد إنما هي من عنده تبارك وتعالى: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى}.

وآية [آل عمران ٣٩] تذكر المقام الشريف الذي كان فيه (زكريا) حين دعا ربه وسأله الولد: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ}.

وآية [الأنبياء ٩٠] تبين الحالة الحسنة التي كان عليها (زكريا) وأهله فأوجبت لهم إجابة الدعاء وهبة الولد: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}.

(فزكريا) عليه السلام دعا ربه جلَّ وعلا، وناجاه حالة كونه قائماً في صلاته ودعائه في (المحراب)، وفي هذا دليل على أنَّ المرادات تُطْلَب بالصلوات، وفيها إجابة الدعوات وقضاء الحاجات، وكما قال (ابن عطاء) رحمه الله: "ما فتح الله على عبدٍ حالة سَنِيَّة إلا باتباع الأوامر وإخلاص الطاعات ولزوم المحاريب"، [تفسير النسفي ١/ ٢٥٣].

هذا وقد كان (رسولنا محمد) ﷺ إذا حزَبه أمرٌ وعزَّت عليه أسبابه، قام إلى الصلاة يدعو الله خالق الأسباب ومسببها.

هذا وقد جاء في [تفسير ابن كثير ١/ ٣٦٠]: خاطبت الملائكة (زكريا) عليه السلام مشافهة خطاباً أسمعته إياه، وهو قائم يصلي في (محراب) عبادته ومحل خلوته ومجلس مناجاته.

هذا وقد كان (زكريا وزوجه) ومِن بعدهم ولدهما (يحيى) كانوا كمن كان قبلهم من الأنبياء والمرسلين يسارعون في الخيرات، ويبادرون في عمل الحسنات طاعة لله تعالى وتقرباً منه، وكانوا دوماً يفزعون إلى ربهم سبحانه وتعالى في حال الرخاء وحال الشدة، ويدعونه رغباً ورهباً أي: رغبة في رضوانه وثوابه، ورهبةً من غضبه وعذابه، وكانوا لله سبحانه وتعالى

خاشعين خائفين متذللين متواضعين في عبادتهم غير معتدين في دعائهم، ولا يستكبرون عن الدعاء بنوعيه: دعاء العبادة ودعاء المسألة.

(فزكريا) ﷺ بذلك قد جمع آداب الدعاء وتحلَّي بموجبات الإجابة، وبمشاركة زوجه له في الصفات الحميدة فاستحقَّ الوالدان أنْ يُنعم عليهما بالولد الصالح فكانت أسرة مباركة تستحقُّ رحمة الله ورضاه.

***

الفصل السادس :

"يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى"

لقد منَّ الله الكريم على عبده ونبيِّه (زكريا) عليه السلام (بكفالة مريم ابنة عمران)، وأجاب دعوته، ولبَّى حاجته إلى الولد، فنادته الملائكة وبشَّرته بأنَّ الله وهب له على شيخوخته وعُقْم امرأته غلاماً، وقد اختار سبحانه وتعالى لهذا الغلام اسم (يحيى)، كما نصت عليه آية سورة [مريم ٧]:

{يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً}،

(نُبَشِّرك) بضم النون وفتح الباء وتشديد الشين، وهذه قراءة أهل المدينة. وقرأ (حمزة والكسائي): (نَبْشُرك) بفتح النون وتسكين الباء وتخفيف الشين. وقرأ (حميد المكي): (نُبْشِرُكَ)،

وقال (الأخفش): وهي ثلاث لغات بمعنى واحد.

وفي [تفسير القرطبي ٤/ ٧٥، وزاد المسير ١٩١]:

(نُبَشِّرُكَ) من البشارة، و(نبْشُرُك) أي: نُسِرُّك ونُفرِحك، وأصله: أنَّ بَشرة الإنسان تنبسط عند الفرح والسرور.

قوله: (سميّا) أي: شريكاً له في هذا الاسم. فمن كان اسمهما واحداً فكلاهما سَمِيُّ الآخر، أي: تسمَّي باسمه. (ويحيى) عليه السلام لم يكن قبله أحد يُسمَّى يحيى، فاسمه هذا بِكْرٌ، وللاسم البكر وقعه في النفوس.

وقيل: (سمياً) أي: شبيهاً ونظيراً ومماثلاً في الفضل والكمال والسمو والرفعة والشرف، إذ أنَّ (يحيى) هذا لم يَعْصِ الله قَطُّ، ولم يهم بمعصية من حال الصغر.

قال [صاحب أضواء البيان ٤/ ٦٤]:

والمعنى الأول هو الصواب لأنّ (يحيى) عليه السلام ليس بأفضل من (إبراهيم وموسى ونوح) عليهم السلام.

وفي [تفسير القرطبي ١١/ ٨٣]:

وقيل: إن الله اشترط القَبْل: {لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً} لأنه سبحانه وتعالى أراد أن يخلق بعد (يحيى) عليه السلام أفضل منه وهو (نبينا محمد) صلى الله عليه وسلم.

وفي [فتح القدير للشوكاني]:

وفي قوله تعالى: {لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً} فضيلة (ليحيى) من جهتين:

الأولى: أن الله سبحانه وتعالى هو الذي تولَّى تسميته بهذا الاسم ولم يَكِل تسميته لأبويه.

والجهة الثانية: أنَّ تسميته باسم لم يوضع لغيره مِن قبلُ، يفيد تشريفه وتعظيمه.

وفي [روح المعاني ١٦/ ٩٤]:

وفي تعيين اسمه عليه السلام تأكيد للوعد مِن الله تعالى في قوله: {فاستجبنا له}. هذا وفي الآية إشارة إلى أنَّ (يحيى) سوف يكبر حتى يصير غلاماً.

هذا وأما قوله تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً} [مريم ٦٥] فمعناه: أنه تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مماثل يساميه في العُلُوِّ والعظمة والكمال.

قلتُ: ولا مانع من الجمع بين المعنيين في الآيتين: (فيحيى) عليه السلام لم يُسَمَّ أحدٌ قَبْله بهذا الاسم، (ويحيى) هذا هو الوحيد من بني آدم الذي لم يهُمَّ بمعصية ولم يعمل خطيئة.

والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء في العظمة والكمال، وأيضاً لم يُسَمَّ أحدٌ باسمه وهو سبحانه وتعالى يقول: {**أنا الله وهذا اسمي اختص به ذاتي ولن تجد له سمياً في الدنيا كلها**}.

ولم ولن يجرؤ أحد أبداً أنْ يطلق اسم الله على ابن له أو زوج أو على أي شخص كان، حتى الآلهة التي اخترعها الإنسان ليعبدها لم يطلق اسم الله عليها، فسبحان الله! (هل تعلم له سميا)؟! وسيبقى هذا التحدِّي إلى أنْ يرث الله الأرض ومَن عليها.

هذا واسم يحيى مقصور تكتب ألفه بصورة الياء من غير نقطتين، وأما الفعل يحيا فتكتب ألفه ألفاً طويلة. والمشهور عند أهل اللغة أن اسم يحيى منقول من الفعل المضارع يحيا فهو مشتق من الحياة، وعليه فهو ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل. وقيل: إنه أعجمي لا اشتقاق له فامتناعه من الصرف للعلمية والعجمة. وفي النسب إلى يحيى نقول: يحيِيٌّ بحذف ألفه، ويحيوي بقلبها واواً ويحياوي بزيادة ألف قبل الواو.

وجاء في [بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي ٦/ ٩٤]: وأطلق على (يحيى) عليه السلام هذا الاسم لأنه عليه السلام جاء في حال شيخوخة والديه، وغالباً لا يطول عُمُرُ مَن كان كذلك، فوهبه الله سبحانه وتعالى هذا الاسم اطمئناناً لقلبهما وشرحاً لصدرهما أنه يحيا كبيراً، وأنه يولد حيَّ القلب بالمحبة، حيَّ الجسم بالطاعة، حيَّ اللسان بالذِّكْر، حي السرِّ بالمعرفة.

وقال (ابن عباس) رضي الله عنهما: تسمِّي يحيى لأنَّ الله أحيا به عُقْر أُمِّه، وأحيا رحمها.

وقيل: لأن الله سبحانه وتعالى أحيا به الناس بالهدى.

وقيل: لأن الله سبحانه وتعالى أحياه طاعة حتى لم يهم بمعصية قَطُّ.

وقيل: لأن الله سبحانه وتعالى عَلِم أنه يستشهد، والشهداء أحياء عند ربهم يُرزَقون.

قلتُ – والعلم عند الله – : إنَّ هذه الوجوه والمعاني كُلَّها صحيحة ومحتملة.

وفي [روح المعاني ٣/ ٢٣٤]: وكان (يحيى) يُدْعى في قومه (يُوحَنَّا المَعْمَدانِي) لأنه كان يُعمِّد ويغسِل الناس بالماء، ليغسلوا أنفسهم مِن الذنوب.

وقال [عبد الكريم الخطيب في التفسير القرآني للقرآن ١٦/ ٧٢٥]:

وفي تسمية يحيى إشارة إلى أنه سيبقى له ذِكرٌ مخلد في هذه الحياة، وأنَّ حياته ستمتد بعد موته بما يجري على ألسنة الناس مِنْ ذِكْره في مقام الحمد والثناء.

هذا وفي القرآن الكريم ذُكِر اسم يحيى (خمس مرات) في:

[آل عمران ٣٩ والأنعام ٨٥، والأنبياء ٩٠، وفي مريم مرتين ٧، ١٢].

هذا وأما صفات (يحيى) عليه السلام فقد أخبر الله عن بعضها قبل أن يولد (يحيى) وذلك في سورة (آل عمران ٣٩] في قوله تعالى:

{مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ}.

قوله: (مصدقاً) منصوب على الحال ومعناه: مؤمناً بكلمة من الله، والمراد بهذه الكلمة عند أكثر المفسرين (عيسى ابن مريم) عليه السلام، لأنه مخلوق بلا واسطة أب، بل خُلق بكلمة (كن) من الله سبحانه وتعالى

فكان. وقيل: سُمِّي (عيسى) بكلمة الله لأن الناس يهتدون به في دينهم كما يهتدون بكلام الله سبحانه وتعالى.

وقال (ابن عباس) رضي الله عنهما: إنَّ (يحيى) كان أكبر سناً من (عيسى) بستة أشهر - وقيل بثلاث سنين - [تفسير القرطبي ٤/ ٧٦].

وكان (يحيى) أول مَن آمن بعيسى وصدَّق بأنه كلمة الله وروح منه.

وفي [تفسير ابن كثير ١/ ٣٦١، وروح المعاني ٣/ ٢٣٦، والتفسير الكبير ٨/ ٣٢] عن (ابن عباس ومجاهد والسدي):

قالت (امرأة زكريا لمريم) : إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك!؟ فذلك تصديق من (يحيى بعيسى).

قال [الشيخ عبدالرحمن السعدي في تفسيره ١٢٢]: فكانت البشارة بـ (يحيى) تتضمن البشارة (بعيسى ابن مريم) عليهما السلام.

هذا وقيل: معنى (مصدقاً بكلمة من الله) أي: بكتاب منه سبحانه وتعالى والمراد به (الإنجيل) [روح المعاني ٣/ ٣٦١].

قوله (وسيداً) أي: وحالة كون (يحيي) سيداً حليماً كريماً خلوقاً فقيهاً عالماً شريفاً، يَسُود نفسه بالطاعات، ويَفُوق قومه والناس في الشرف والصلاح وعمل الخير، وفي العلم والحلم والورع والكمال.

قوله (وحصوراً): في [مقاييس اللغة ١/ ٣٠٠]:

(حصر) الحاء والصاد والراء أصل واحد وهو الجمع والحبس والمنع يقال: حَصره المرض وأحصره العدو أي: حَبسه، والحصور هو الذي لا يأتي النساء، وأرجح ما يقال في (يحيى) عليه السلام أنه كان مبالغاً في حَصْر نَفْسه

وحَبْسها عن الشهوات مع القدرة، وأنه كان مانعاً نفسه عن النساء لا يأتيهن ولا يشتهيهن للزهد والعفة لا للعجز عنهن.

قال (الحافظ ابن كثير) في [التفسير ١/ ٣٦١]:

حَصَر (يحيى) عليه السلام نَفْسَه ومنعها مِن الهمم الدنِّية والهموم الدنيوية.

وفي حديث (أبي أمامة) قال رسول الله ﷺ: (ولم يجعل الله تعالى حصوراً إلا يحيى بن زكريا).

قلت: فتَرْك (يحيى) الزواج هي خصوصية خصَّه الله بها، وهي في حقِّه فضيلة لأنَّ الله قد مدحه بها.

قوله: (ونبياً) أي: ومرسلاً من الله سبحانه وتعالى يوحي إليه إذا بلغ سنَّ النبوة.

(من الصالحين) أي: وحالة كون (يحيى) عليه السلام من أصلاب القوم الصالحين لكونه مِن نسل الأنبياء عليهم صلوات ربي وسلامه أجمعين، فهو ناشئ منهم ومعدود في عدادهم، فهو معصوم ذو صلاح يُؤدِّي لله ما افترض عليه، ويؤدي إلى الناس حقوقهم.

وهذه بشارة ثانية (لزكريا) بنبوة ولده (يحيى) بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى، وهي كقوله تعالى (لأم موسى) عليهما السلام: {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [القصص ٧].

وهكذا استجيبت دعوة (زكريا) عليه السلام، ولم يَحُلْ دونها مألوف البشر الذي يحسبونه قانوناً ثم يظنون أن مشيئة الله سبحانه وتعالى مقيدة بهذا القانون!

نعم لقد أخبرت الملائكة (زكريا) أن (يحيى) عليهما السلام سيكون سيداً ونبياً من الصالحين.

وهكذا جاء الإبلاغ وفيه إعجاز، إعجاز بعلم الخالق سبحانه قبل أن يَخْلُق، وقبل أنْ تحمل (زوجة زكريا). وصدق الله العظيم القائل في محكم التنزيل: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ} [لقمان ٣٤].

هذا وقد كانت تلك الاستجابة الربَّانية مفاجئةً (لزكريا) نفسه، حيَّرته وهزَّت وجدانه، على الرغم من أنه هو الذي سأل الله الولد!

ولهذا أخذ عليه السلام يتعجب من هذه البشارة، ويتساءل عن كيفية تحقُّقها ووقوعها، فأراد أنْ يتأكَّد ويصحح ما سمعه، فرفع يده إلى السماء مرةً أخرى وقال ما نصَّت عليه آية [آل عمران ٤٠]:

{قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ}.

هكذا نادى (زكريا) ربه بالذات مع وصول خطابه تبارك وتعالى إليه بواسطة الملك وذلك للمبالغة في التضرُّع والجِد والتبتُّل إليه عزَّ وجلَّ [روح المعاني ١٦/ ٩٦]. وربما صار زكريا آنذاك كالمدهوش من شدة الفرح.

قال [المراغي في تفسيره]: إنَّ (زكريا) لَمَّا رأى ما رأى مِن نعم الله تعالى على (مريم) أُخِذَ عن نفْسه، وغاب عن حِسِّه، وانصرف عن العالَم وما فيه، واستغرق قلبُهُ في ملاحظة فضل الله ورحمته، فنطق بهذا الدعاء ثلاث مرات: {رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران ٣٨].

{رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} [الأنبياء ٨٩].

{فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً} [مريم ٥، ٦].

فلما عاد عليه السلام إلى حسِّه، وقد أُذن بسماع ندائه واستجابة دعائه، سأل ربه عن كيفية تلك الاستجابة وهي على غير السُّنَّة الكونية!! فقال ما نصَّت عليه آية [آل عمران ٤٠]: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

قال (الإمام ابن الجوزي): أي: كيف يكون؟ وقال (الحسن) وغيره: كأنه قال: من أي وجه يكون لي الولد؟ أيكون بإزالة العُقر عن امرأتي وردِّ شبابي؟ أم يأتي ونحن على حالنا؟ أم سيعود لي شبابي وأتزوج بامرأة أخرى تكون ولوداً؟ [زاد المسير ١٩٢].

فسؤال (زكريا) كان على سبيل الاستعلام، لا على وجه الشك ولا الإنكار، ووقع منه الاستفهام استعظاماً لقدرة الله تعالى لا لمحض الاستبعاد.

قال [الشيخ الشعراوي في مريم والمسيح ٦٤]: وفي هذه الآية ذَكَر (زكريا) نَفْسَه بالعيب أولاً، وهو بلوغ الكبر، وذلك قبل ذِكْر امرأته بالعُقْم. وفي هذا أدبٌ من آداب النبوة، إذ لو ذَكر عُقْمها أولاً لكان في ذلك حرجٌ لها وكأنه يقول: أنا صالح للإخصاب، وإنما العيب في امرأتي. وهذا من أخلاق المرسلين العظيمة عليهم الصلاة والسلام.

قلتُ: ولكن في سورة [مريم ٨] جاء التعبير والترتيب هكذا: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً﴾، فقَدَّم هنا عقم امرأته أولاً ولكنه زاد عليه السلام في كبر نفسه إذ قال: (عتيَّاً) وهذه زيادة في عيب الكبر هذا من جهة، ومن جهة أخرى فكلمة (عتيا) تُناسب فواصل آي سورة [مريم].

وقال [الإمام الكرماني في أسرار التكرار في القرآن ص٤٧]:

قدَّم في سورة [مريم] ذِكر عُقْر المرأة على ذكْر الكبر لأنَّ في هذه السورة قد تقدَّم ذكر الكبر في قوله تعالى: {إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي}، وتأخَّر بعد ذلك ذِكْر المرأة في قوله: {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً}، فلما أعاد ذِكْرها في الاستفهام: {أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ} قدم المرأة للمجاورة، وأخَّر الكِبر مراعاةَ لمقاطع الآيات.

قلتُ: وفي اللغة: [المصباح، المفردات، مقاييس اللغة، لسان العرب]:

(عاقر): من عَقَرت المرأة عقراً، وعقُرت عُقْراً من بابي: (ضرب وَظَرُف) أي: لم يولد لها فهي عاقر. وجمعها: عواقر وعاقرات.

ويقال أيضاً: رجُل عاقر أي: لم يولد له وجمعه: عُقَّر، مثل: راكع وركَّع.

فالعاقر مَن لا يولد له رَجُلاً كان أو امرأة، مشتق من العقْر وهو القطع، سُمِّي بذلك لقطع نَسْله. ويقال: عقرْتُ البعير أو الفرس أي: كسَعْت قوائمه بالسيف. وعقرت النخل بمعنى: قطعته مِن أصْله. وعُقْر الدار أي: أصلها. وقيل: ما (غُزِي قوم في عقر دارهم إلا ذلُّوا).

وقال (الفراء): وإنما قال في الآية: (وامرأتي عاقر) ولم يقُلْ: [عاقرة]، لأن الأصل في هذا الوصف للمؤنث، وأمَّا المذكر فيه فهو كالمستعار؛ لذا أجري مجرى (طالق وحائض) وصفاً للأنثى بدون علامة تأنيث.

وقوله: (عِتياً) يقال: عَتا فلان يعتو عُتوا أي: استكبر فهو عاتٍ، قال تعالى على لسان (زكريا): {وقد بلغت من الكبر عتيا} أي: أنني بلغت

غاية الكبر في السن حتى نحل عظمي ويبس وضعف، ووصل إلى حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها، فالعتيُّ هو النهاية في الكبر واليُبْس والجفاف وقحول العظم، وكلُّ شيء انتهى فقد عتا وعسا، وفي رواية كان (زكريا) يوم بُشِّر بالولد ابن (مائة وعشرين سنة)، وكانت امرأته (بنت فاقوذ) بنت (ثمان وتسعين سنة) كما قال (ابن عباس) رضي الله عنهما [زاد المسير ١٩٣].

هذا وما أنْ صدَر عن (زكريا) هـذا التساؤل: {رب أنـى يكـون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر} حتى جاءه جواب الـرَّب العظـيم بواسطة الملك الكريم في سورة [آل عمران ٤٠]: **{قَالَ رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ الله يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}**،

وفي سورة [مريم: ٩] جاءه الجواب هكذا: **{قَالَ كَذَلِكَ قَـالَ رَبُّـكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً}**.

والجوابان متكاملان، والأول مجمل يناسب الإجمال في [آل عمران] في الدعاء وفي السؤال، والآخر مفصَّل يناسب التفصيل في دعاء (زكريا) وفي تساؤله الوارد في سورة [مريم].

وقد أجمع المفسرون على أن القائل هو (جبريل) عليه السلام والمجاب هو (زكريا) عليه السلام، والمعنى العام: (كذلك) أي: الأمر (يا زكريا) كما أخبرتك أنَّ الله تعالى يخلق ولداً منك ومن زوجتك وأنتما على حالكما مِن الكِبر، والله عزَّ وجلَّ يفعل ما يشاء مِن الأفعال العجيبة الخارقة للعادة، فهو سبحانه خالق الأسباب ومسبّبها لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمْر،

وقدرته سبحانه قدرةٌ مطلقة لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود. وخلْقه سبحانه وتعالى (يحيى) من بين والد عجوز وامرأة عاقر هو شيء هيِّن سهل يسير بسيط عليه جَلَّ جلاله، ففوِّض يا نبي الله الأمر إليه ولا تسأل عن الكيفية، وتذكَّرْ (يا زكريا) أنَّ الله تعالى قد خلقك بقدرته مِن قَبْلُ مِن عَدم في تضاعيف خَلْق آدم. وأوجدك شيئاً ولم تَكُ شيئاً، بل خلق الكون كُلَّه بما وبمن فيه، فهو سبحانه قادر على أنْ يوجد لك الولد مع كبر سِنِّك وعُقْم امرأتك! وهكذا جاء الجواب واضحاً وحازماً، فتيقَّن (زكريا) عليه السلام من طلاقة قدرة الله وعرف يقيناً أنَّ كل شيء يخلقه الله تعالى بمجرد المشيئة الإلهية: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس ٨٢]. عند ذلك هدأت نفسُ زكريا عليه السلام وامتلأ قلبُه بالشكر لله وبحمده وتمجيده، ولكنه لشدة لهفته على تحقيق البشرى ولدهشة المفاجأة في نفسه، راح عليه السلام يطلب إلى ربِّه عزَّ وجلَّ أنْ يجعل له علامة على وقت وجود المولود في الرحم بالفعل، فقال كما جاء في سورتي [آل عمران، ومريم]: {رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً}.

أي: يا رب يا ذا الفضل والكرم إني أسألك أن تجعل لي علامة على وقت حدوث حمل زوجتي بولدنا (يحيى)، لتتمَّ طمأنينة قلبي بوقوع ما بُشِّرت به، فأبادر بالشكر لك يا ربي يا واهب النعم ولأتعجل الفرح والسرور، بل وأضاعف شكري وحمدي لك يا ربي.

نعم.. (فزكريا) عليه السلام لم يكن عنده شك في تحقُّق وعْد ربه له بهبة الولد، بل كان عنده حرص على أنْ يُسْرِع إلى الشكر فهو لا يريد أنْ

توجد عنده النعمة وهو غير شاكر. بل يريد أن يشكر الله كثيراً من أول الإخصاب، ولا يُؤخِّر الشكر إلى أن يظهر الحمل ظهوراً معتاداً.

هذا وقد عَلِم الله صِدْق عبده (زكريا) فيما سأل، فاستجاب له سبحانه، ووجَّهه إلى طريق الاطمئنان الحقيقي، فأخرجه من مألوفِه في ذات نفسه حيث قال تعالى: {**آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً**} كما جاء في سورة [مريم ١٠].

وقال تعالى في سورة [آل عمران ٤١]: {**قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ**}.

نعم نعم.. فقد جعل الله تعالى آية وجود الحَمْل أنْ يُحْبَس (لسان زكريا) عن كلام الناس إذا توجَّه إليهم مدة [ثلاثة أيام متوالية بلياليها]، وهو عليه السلام سويُّ الخلقة، سليم الجوارح صحيح المزاج غير معتلٍّ، وليس به خَرَسٌ ولا بَكَم، ولكنه لا يستطيع أن يكلِّم الناس إلا رمزاً بالإشارة والإيماء والحركة بالشفتين أو العينين أو الحاجبين أو اليدين.

وهو عليه السلام في نفس الوقت يستطيع أن يذكُر الله كثيراً بلسان فصيح، ويُسبِّحه ويصلِّي له سبحانه ويقرأ [التوراة]، في كل وقت وخاصةً بالعشي والإبكار كما أمره الله تعالى بذلك، وذلك في مدة الحُبْسة عن كلام أهل الدنيا.

(فلسان زكريا) هو لسانه، ولكنه يحتبس عن كلام الخَلْق، وينطلق لمناجاة الخالق، وهذا أبلغ في الإعجاز، وهذا هو قانون الطلاقة الكاملة في القدرة الإلهية!

وبهذا جعل (زكريا) عليه السلام كل وقته ذِكْراً طوال المدة المحددة له.

هذا وفي الصمت والامتناع عن تكليم الناس فوائد كثيرة منها: راحة النفس، وسكينة القلب، وانطلاق الفكر، وصفاء العقل.

ومع الصمت تكون الفكرة والعبرة، وقد أنعم الله على (زكريا) بالذِّكر، فاجتمع له طيلة الأيام الثلاثة الذِكر مع الفكر، فسكنت نفسه المهتاجة بالخبر العجيب، وهدأ قلبه المضطرب للحمل الغريب الخارق للعادة!

لهذا كان مَنْعهُ عن الكلام مِن تمام نعمة الله عليه ورعايته له، وكان نعمة تستوجب الشكر، ولهذا جاء التوجيه الإلهي: {**وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ**}.

وإنما خصَّ التسبيح بالذِكْر، لأنَّ العادة الجارية أنَّ كُلَّ من رأى أمراً عجيباً ورأى فيه صنعة بديعة يقول: سبحان الله! سبحان الخالق جلَّ جلاله!

(وزكريا) لَمَّا رأى حصول الولد من شيخ فانٍ وعجوز عاقر عجب مِن ذلك، فسبَّح الله تعالى وأمَر قومه أنْ يسبِّحوا ليعيشوا في مثل الجو الذي يعيش هو فيه، وليشكروا الله معه على ما أنعم عليه وعليهم مِن بَعْده.

قال تعالى في سورة [مريم١١]: {**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً**}.

أي: فخرج (زكريا) عليه السلام صبيحة الليلة التي وقع الحمل فيها في رَحِم امرأته وعَلِق، وقد رأى عليه السلام آية ربِّه وعلامة ذلك في عدم قدرته على الكلام معها، فدخل [المحراب] مكان عبادته فصلَّى لربه وشكره

وذَكَره، وتأكَّد من قدرته على ذِكْر الله، ومِن عَجْزه عن تكليم الناس، فخرج مِن مصلاه على قومه وكانوا ينتظرونه. [روح المعاني ١٦/ ٤].

ولعله - والعلم عند الله - قد أخبر قومه بما بُشِّر به قَبْل جَعْل العلامة!! فلما خرج عليهم من [المحراب] لم يَقْدِر أنْ يكلمهم، فأنكروه صامتاً فقالوا: ما لك يا زكريا؟! [فأوحى إليهم] برأسه ويديه أن سبِّحوا الله ونزِّهوه مِن الشرك ومن الولد ومن كل نقص وقولوا: سبحان الله! وصلوا له بكرةً وعشياً.

و[البُكرة] والإبكار والتبكير: مِن أول النهار إلى طلوع الشمس، أي: من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

وجمع البكرة: بُكَر، مثل: غرفة وغرف، وأبكار جمع الجمع.

وقوله ﷺ: (من بكَّر وابتكر) أي: من أسرع قيل الأذان وسمع أوَّل خطبة الجمعة.

هذا و[العشي] قيل: هو ما بين زوال الشمس إلى غروبها، ومنه يقال: للظهر والعصر: صلاتا العشي، وقيل: العشي: هو آخر النهار، وقيل: هو كالعِشاء بكسر العين من صلاة المغرب إلى العَتَمة، وعليه: العشاءان صلاتا المغرب والعَتمة أي العشاء الآخرة.

هذا والعَشاء - بفتح العين - هو الطعام الذي يُتعشَّى به وقت العِشاء.

وقيل: العَشِي جمعٌ واحده: عَشِيَّة. وأصل العشي: الظُّلْمة، ولذلك كان العَشَى هو: ضَعْف البصر، يقال: عَشِي يَعْشَى عَشًى من [باب تعب] معناه: ضَعُف بصره فهو: أعشى، والمرأة: عشواء.

هذا ومن لطائف التعبير القرآني أنَّ مدة عجز (زكريا) عن كلام الناس حُدِّدت في سورة [مريم] (بثلاث ليال) وفي [آل عمران] (بثلاثة أيام) مع أنَّ القصة واحدة، ولعلَّ ذلك – والعلم عند الله – ليدُلَّ على أنَّ المنع عن الكلام استمر (بزكريا) ثلاثة أيام بلياليهن [تفسير النسفي ٢/ ٣٢٨].

ولو اكتفى (بثلاث ليال) في الآيتين لجاز أنْ يفهم أنَّ المدة كانت ثلاث ليال بيومين فقط إذ الليل سابق على النهار!

ولو اقتصرت المدة على الليالي فقط أو على الأيام فقط في السورتين لاحتمل أن يكون المنع في الليالي دون الأيام أو في الأيام دون الليالي!!

لهذا وقع التنصيص على الوقتين ليرتفع هذا الاحتمال.

[ملاك التأويل ١/ ٩٩].

وقد يسأل أحدهم: ولماذا ذُكرت الليالي في سورة [مريم]، وذكرت الأيام في [آل عمران]؟ ولم يكن العكس؟

فأقول: لعلَّ السِّرَّ اللطيف في ذلك – والعلم عند الله – أنَّ سورة [مريم] (مكية) والمكي سابق على المدني، والليل سابق على النهار، فأُعْطِي السابق للسابق.

وسورة [آل عمران] (مدنية)، والمدني متأخر عن المكي، والنهار متأخر عن الليل، فأُعطي المتأخر للمتأخر سلوكاً مسلك التناسب.

[روح المعاني ١٦/ ١٠٢، حدائق الروح والريحان ١٧/ ٩٦].

ثم إن آية [آل عمران] نصَّت على (الأيام) ليناسب قوله منها: [إلا رمزاً]. فالرمز وهو: الإشارة والحركة باليدين أو الشفتين أو العينين أو

الرأس، فلا يُدْرَكُ الرمز في ظلام الليل بل يحتاج إلى ضوء النهار. واليوم إذا جاء مقابلاً لليل أريد به النهار فقط.

فسبحان الله العظيم، مُنزِّل هذا القرآن الحكيم، بلسان عربي مبين معجز!!

وكما أنَّ الله بحق ليس كمثله شيء، فإنَّ كلام الله بصدق ليس كمثله كلام!!

***

الفصل السابع :

يا يحيى خذ الكتاب بقوة

بعد أن سأل سيدنا زكريا عليه السلام ربه تبارك وتعالى أن يجعل له آية على حمل زوجته بولدهما ليبادر بالشكر لله. وقال الله تعالى بواسطة الملك كما جاء في سورة [مريم ١٠، ١١]: {آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً}.

وبعد هذا السؤال وهذا الجواب يترك السياق القرآني (زكريا) عليه السلام في صمته وتسبيحه وإيحائه لقومه بأن يشاركوه في التسبيح والشكر لله تعالى على نعمته عليه بالولد.

ويطوي السياق صفحة (زكريا) على هذا المشهد الخاشع الرهيب ليفتح الصفحة الجديدة على ولده (يحيى) عليه السلام فيناديه ربه تبارك وتعالى من الملأ الأعلى كما نصَّت عليه آية سورة [مريم ١٢]:

{يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ}.

نعم نعم هكذا يأتي النداء العُلْوِيّ.. وفيه دلالة قوية على مكانة (يحيى) العظيمة وعلى استجابة الله تعالى لدعاء (زكريا) فيه في أن يجعل له من لدنه ذرية طيبة، ويجعل منه ولياً يُحسِن الخلافة بعده في العقيدة وفي العشيرة. ففي هذه الآية الكريمة يخاطب الله تعالى (يحيى بن زكريا) عندما بلغ عليه السلام السن التي يؤمر فيها: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ}.

والمراد بالكتاب على الأرجح هو [التوراة] التي أنزلها الله على (سيدنا موسى) عليه السلام وهي كتاب الله (لبني إسرائيل).. أمره عزَّ وجلَّ على لسان المَلَك أن يأخذ التوراة بقوة أي: يَدْرُسُها بإحكام وبجد واجتهاد، وصدق وطاعة، وحرص على العمل بها والتمسك بها وتعليمها لقومه.

وبعد هذا النداء الربَّاني والذي حمل تكليفاً وتشريفاً (ليحيى بن زكريا) يكشف السياق القرآني عما زوَّد الله به (عبده يحيى) من صفات كُلُّها مناهج للخير ووسائل للطاعة، وذلك لينهض عليه السلام بالتبعة الكبرى والأمانة العظمى في قوة وعزم، قال تعالى:

{وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً} [مريم ١٢ - ١٤].

فهذه [سبع مؤهلات] زوَّد الله بها (يحيى) وأعانه بها على احتمال ما كلفه به من نُبوَّة ودعوة، فكان عليه السلام فذاً في زاده كما كان فذاً في اسمه وفي ميلاده.

وأُولى هذه المؤهلات: [الحُكم] : الحكم الذي لا يُؤْتَى في الغالب إلا للكهول والشيوخ، قد أوتيه (يحيى) وهو صبِيٌّ صغير (ابن سبع سنين) كما قال (ابن عباس) رضي الله عنهما.

والمراد بالحُكْم: الحكمة ورجاحة العقل، والفهم (للتوراة) والفقه في الشريعة الموسوية، والميل إلى الجِد والبعد عن الهزل، فجاءت (طفولة يحيى) غريبة عن دنيا الأطفال، إذ كان معظم الأطفال الذين في سِنِّه يمارسون اللهو، أما (يحيى) فكان جاداً طوال الوقت.

وعن (معاذ بن جبل) رضي الله عنه: أن (يحيى) عليه السلام مَرَّ في صباه بصبيان يلعبون، فدعوه إلى اللعب فقال: ما للعب خُلِقْنا. وفي رواية قال لهم: اذهبوا بنا نُصلِّي [نهاية الأرب ١٤/ ٢٩١، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣--].

وكان (يحيى) منذ صغره يعظ الناس، ويقف لهم في أعيادهم ومجامعهم ويدعوهم إلى الله تعالى، ثم ساح ودخل (الشام) يدعو الناس [البصائر٦/ ٩٥].

وكلما كبر (يحيى) في السن زاد النُّور في وجهه، وامتلأ قلبه بالحكمة وحُبِّ الله، وبالمعرفة والسلام.

المؤهل الثاني: الذي آتاه الله يحيى وزوَّده به هو (**الحنان**)، قال تعالى: {**وحناناً من لدنا**} أي: تحنُّناً ورحمة عظمى وشفقة وعطفاً ومحبة من الله تعالى على (يحيى)، أو (من يحيى) على أهل زمانه.

هذا ومثلما أوتى (الخَضِر) عِلْماً من لدن الله تعالى، أوتى (يحيى) حناناً مِن لدن الله تبارك وتعالى. والحنان هو العِلم الشمولي الذي يشيع في نَسْجِه حُبٌّ عميق للكائنات ورحمة بها [قصص الأنبياء: بهجت ٣٢٥].

(فحنان يحيى) كان هبه لدُنِّية لا يتكلَّفة ولا يتعلمه. إنما هو مطبوع ومطبوع به، والحنان صفة ضرورية للنبيِّ المُكلَّف برعاية القلوب والنفوس وتأليفها واجتذابها إلى الخير في رفق .

[في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠٤].

وقد كان نبيُّ الله (يحيى بن زكريا) عليه السلام يُبيِّن للناس أسرار الدِّين، ويُعرِّفهم طريق الصواب، ويُحذِّرهم من طريق الخطأ، وكان يدعوهم إلى التوبة من الذنوب، وكان يُعمِّدهم أي: يغسلهم في (نهر الأردن)، ليغسلوا أنفسهم بعدها بالتوبة، وكان (بنو إسرائيل) يسمونه [يوحنا المعمدان].

وكان عليه السلام يدعو الله لهم، ولم يكن إنسان يكره (يحيى) أو يتمنى له الضرر، وعمّ حنانه الدنيا وملأها بالرحمة.

هذا والتنوين في قوله تعالى: {وحناناً} وفيها بعده من مؤهلات للتعظيم والتفخيم والتكثير. هذا والعرب تقول: حنانك يا رب وحنانيْك يا رب تريد: رحمتك. وفي [المفردات ١٤٠]: وحنانيك أي: إشفاقاً بعد إشفاق، فتثنيته كتثنية لبيَّك وسعْديك.

قال تعالى: {وزكوة} أي: وآتى الله تعالى (عبده يحيى) زكاة إضافة إلى الحكم والحنان [وزكاة] **هي المؤهل الثالث** (ليحيى) عليه السلام ومعناها: طهارة من الدنس ومن الصفات الذميمة، وبُعْدٌ عن اجتراح الذنوب والآثام، وعِفَّة في النفس والقلب والطبع يواجه بها أدران القلوب، ودنس النفوس فيطهِّرها ويزكِّيها ويُنمِّيها ويُهذِّبها ويُصفِّيها، ويسمو بها إلى أعلى المقامات وأسمى الدرجات.

{**وكان تقيا**} وهذا هو **المؤهل الرابع** الذي زوَّد الله به (نبيه يحيى) عليه السلام.

وتقياً أي: مطيعاً لله تعالى، موصولاً به سبحانه متحرجاً معه، مراقباً له يخشاه ويستشعر رقابته عليه في سره وعلانيته.

يمتثل ما أمره به الله، ويجتنب ما نهى عنه (ويحيى) عليه السلام لم يعمل خطيئة قطُّ ولم يهم بها. [أخرجه أحمد والترمذي والحاكم].

وعن (أبي هريرة) رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كُلُّ ابن آدم يَلْقَى الله بِذَنْبٍ قد أذنبه يُعذِّبه عليه إنْ شاء أو يرحمه إلَّا يحيى بن زكريا)[انظر زخيرة الحفاظ لابن القيسراني ٤/ ١٨٤٥، والعلل لابن أبي حاتم ٣/ ١٢١].

ومن جملة تقواه عليه السلام كان يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذَّنْب. وكان كثير البكاء وكان لدمعه مجارٍ على خديه عليه السلام، فهو النبيُّ الناسك التقيُّ.

والتقوى هي جِماع الخير كُلِّه، وهي وصية الله (للأمة المحمدية) ولمن قبلنا، قال تعالى: {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ} [النساء ١٣١].

قال تعالى: {وبَراً بوالديه} هذه هي **الصفة الخامسة** التي أنعم الله بها على (يحيى) فقد كان عليه السلام كثير البِرِّ بوالديه، عظيم الإحسان إليهما، شديد العطف عليهما، بعيداً كل البعد عن عقوقهما قولاً وفعلاً.

هذا وبِرُّ الوالدين مِن أعظم الأفعال الصالحة التي أمر الله تعالى بها في كتابه العزيز، وقد قَرن سبحانه بين عبادته وبر الوالدين والإحسان إليهما، قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} [الإسراء ٢٣].

أمّا **الصفتان الأخيرتان** من الصفات الحميدة التي زوَّد الله بها (يحيى) فهُما في قوله تعالى: {وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيًّا}.

فلم يكن يحيى (جباراً) متكبراً متطاولاً على الخلق، ولا متعالياً عن قبول الحق، والكِبْر كما قال نبينا ﷺ: (هو بَطَرُ الحَقِّ وغَمْط الناس) [صحيح مسلم ١/ ٩٣].

أي: إنكار الحق، واحتقار الناس. (ويحيى) عليه السلام عُرِف بقبول الحق، ولِين الجانب، وخفْض الجناح، وبالتواضع لله وللناس.

وأخيراً لم يكن (يحيى) (عصياً) لربه جلَّ جلاله ولا مخالفاً له سبحانه فيما أمر به ونهى عنه، كما لم يكن عليه السلام عاقاً لوالديه.

بل كان (يحيى بن زكريا) ولداً صالحاً، وصبياً حكيماً، وحنوناً زكياً، ونبياً تقياً، وناسكاً صادقاً، محباً للحق، رحيماً بالخلق. فكان عليه السلام كما شاء له الله أن يكون. فكان جزاؤه مِن الله تعالى على ذلك تحيةً وسلاماً، ورحمة وأماناً عليه في حياته وبعد مماته.

قال تعالى: {وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً} [مريم ١٥].

في اللغة: [المصباح ١٨٦، المقاييس ١/ ٥٦٥، والمفردات ٢٤٦، اللسان ١٢/ ٢٩٠]: (سلام) من: س.ل.م. السين واللام والميم مُعْظَم بابه من الصحة والعافية.

(فالسلامة): أن يَسْلم الإنسان من العاهة والأذى، ويتعرَّى من الآفات الظاهرة والباطنة.

و(السَلام): بفتح السين اسم من سَلَّم عليه وحيَّاه.

و(دار السلام): هي الجَنَّة، لأن في الجنة السلامة الحقيقية، إذ فيها بقاءٌ بلا فَناء، وغِنيً بلا فقر، وعِزٌّ بلا ذُل، وصِحَّة بلا سُقْم.

و(السَّلام): اسم من أسماء الله الحسنى، قال تعالى في سورة [الحشر ٢٣]: {هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ}.

وهو سبحانه السلام لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفَناء.

هذا ولفظ (السَّلام) جاء في القرآن الكريم (اثنتين وأربعين مرة):

أولها في [النساء ٩٤]: {وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً}

وآخرها في [القدر ٥]: {سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}.

هذا وقوله تعالى عن (يحيى بن زكريا): {وسلام عليه} أي: تحية مباركة طيبة، وسلامة ورحمة وأمان وبركة وإحسان مِن الله تعالى على (يحيى) في هذه (الأيام الثلاثة): (يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حياً).

فهذه الأيام هي أوحش المواطن، وأهول الأحوال التي تمرُّ على الإنسان، وفيها يكون الإنسان، كما قال [الإمام القرطبي ١١/ ٨٨]: في غاية الضعف والحاجة، وقِلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحَوْل والطَّوْل.

و(سلام عليه) أصله: وسلَّمْنا عليه، لكن نُقِل إلى الجملة الاسمية للدلالة على ثبوت السلام واستقراره، فإن وحشة هذه الأيام الثلاثة لا تكاد تزول إلا بثبات السلام فيها ودوامه،

هذا وأول هذه الأيام: هو يوم ولادة الإنسان وخروجه من رَحِم أُمِّه، فيرى عالَمَاً آخر غير الذي كان فيه جنينا لذا يستهلُّ صارخاً.

(فسلام عليه يوم ولد).. قال الشاعر الحكيم:

وَلَدَتْك أُمُّكَ بَاكِياً مُسْتَصْرِخاً والنَّاسُ حَوْلَكَ يَضْحَكُون سُروراً
فَاحْرِصْ لِنَفْسِكَ أَنّ تَكُونَ إذَا بَكَوْا في يَوْمِ مَوْتِكَ ضَاحِكاً مَسْرُوراً

واليوم الثاني هو: يوم موته وخروجه من الدنيا، وانتقاله إلى [عالَم البرزخ] ودخوله القبر وهو أول منازل الآخرة ويكون إمَّا روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار، وفيه يرى أقواماً لم يكن عاينهم (فسلام عليه يوم يموت).

واليوم الثالث هو: يوم بعثه من بعد الموت، وخروجه من القبر مع (نفخة الصُّور) ليوم النشور.. وهو أول يوم يرى فيه أهوال يوم القيامة، ويجد نفسه في محشر لم يره من قبل.. (فسلام عليه يوم يبعث حياً).

نعم نعم أيها الأحبة فهذه الأيام الثلاثة هي أشق ما يكون على ابن آدم، وفيها يكون أحوج ما يكون إلى رضا ربه تبارك وتعالى ورأفته ورحمته.

وإذا سَلِم العبد فيها بسلام من الله تعالى، سَلِم فيما بينها وفيما بعدها. وقد خَصَّ الله العظيم (نبيه يحيى) في هذه المواطن الثلاثة بالسلامة والكرامة فكان أفضل فيها مِن غيره.

هذا وروى [الإمام أحمد في الزهد] عن الحسن: أنَّ (يحيى وعيسى) عليهما السلام الْتقيا يوماً فقال (عيسى ليحيى): استغفرْ لي (يا يحيى) – وفي رواية – ادْعُ لي! فقال (يحيى): استغفرْ لي أنت (يا عيسى)، فأنت خيرٌ مِنِّي، قال (عيسى): بل أنت خير مني!! فأنا سلَّمْتُ على نفسي إذ قلت: {وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً} [مريم ٣٣]، وأنت (يا يحيى) سلَّم الله عليك، إذ قال تعالى: {وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً} [مريم ١٥]. [جامع البيان للطبري ١٦/ ٤٥، وتفسير القرطبي ١١/ ٨٩].

هذا وفي [روح المعاني ١٦/ ١٠٧]: وفي قوله تعالى: {ويوم يموت] دليل على أنه يقال للمقتول: مَيِّت.. بناءً على أنَّ (يحيى) عليه السلام قد قُتل ولم يَمُتْ حَتْفَ أنْفِه.

وفي [البحر المحيط ٦/ ١٧٧]: وفي قوله تعالى: { وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً} تنبيه على كون (يحيى) من الشهداء لقوله تعالى عنهم: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ الله أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ} [البقرة ١٥٤].

ولقوله تعالى أيضاً: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران ١٦٩].

(ويحيى بن زكريا) لم يمت مِيتةً طبيعية، بل قُتِل ظُلْماً، وكان ذلك في حياة أبيه وقبل أن يُرْفعَ (المسيح عيسى ابن مريم) عليهم السلام، أَهْدَرتْ دَمه الغالي الشريف كلمةُ حَقٍّ قالها (يحي) في بلاط مَلِك ظالم هو [هيرودس] حاكم (فلسطين) المستبد، والذي أراد أن يغتصب زوجة أخيه، ثم عَشِق ابنتها وأراد أن يتزوجها، فعارضه (يحيى) نبي الله عليه السلام، وأعلن أنَّ هذا زواج محرَّم لا تقبله شريعة، وتأباه روح الكتاب، وجَهَر (يحيى) باستنكاره هذا الزواج، وشاع رأيه في البلاد، فَغَضِب الملك عليه وأمر بسَجْنه.

وتآمرت البنتُ مع أُمِّها ضده، فخرجت ذات ليلة (لعَمِّها الملك) في زينتها، ورقَصْت أمامه عارية، وقد خلعت (أرديتها السبعة) رداءً رداءً مع كل رقصة!! فاقْتُنِص الملكُ بحبائل فِتنتها، واخْتُلِب بعذوبة منطقها. فسألها أنْ تتمنَّى عليه ما تريد، فقالت الشريرة: أريد (رأس يحيى بن زكريا)!! فاكتأب الملك وتردَّد قليلاً، ثم قال لجُنْده وهو مخمور: اقتلوا (يحيى بن زكريا).. فقتلوه عليه السلام وهو في السجن، وأتوا (برأسه الشريفة) للملك الطاغية، فقدَّمه الملك في طبق ذهبي مَهْراً لِلبَغِيِّ بنت أخيه،

فقدَّمته هي إلى أمها فغَضِب الله تعالى على قاتلي (نبيه يحيى) وأنزل عليهم وعلى (بني إسرائيل) لعنته.

وفي [قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير ٤٥٩]: عن (ابن عباس) رضي الله عنهما: فلما أمسَوْا خَسف الله بالملك وأهل بيته وحَشَمه، فلما أصبحوا قالت (بنو إسرائيل): قد غضب (إله زكريا لزكريا). فتعالوا حتَّى نغضب لملكنا فنقتل (زكريا)، فخرجوا في طلبه، وجاءه النذير فهرب منهم عليه السلام و(إبليس) أمامهم في صورة رجل يَدُلُّهم عليه، وعَرضتْ (لزكريا) شجرة ضخمة وانصدعت له فدخل فيها، وأخذ إبليس بطرف (رداء زكريا) والْتأمت الشجرة عليه، وبقي طرف ردائه خارجاً منها، وجاء (بنو إسرائيل) فقال لهم (إبليس): أما رأيتموه دخل هذه الشجرة بسِحْره وهذا طرف ردائه؟!

فقالوا: نَحْرِق هذه الشجرة! فقال إبليس: بل شُقُّوها بالمنشار شَقًّا.. فشَقُّوا (زكريا) عليه السلام مع الشجرة بالمنشار!!

قال (ابن كثير) هذا سياق غريب جداً وحديث عجيب، ورَفْعُه مُنْكَر!

هذا وعن (سعيد بن المسيِّب) قال: قَدِم (بُخْتَنَصَّر) - مَلِك بابل - (دمشق) فإذا هو (بدم يحيى بن زكريا) يغلي، فسأل عنه فأخبروه، فقتل على دَمِه (سبعين ألفاً من بني إسرائيل) فسكن الدم. قال (ابن كثير): وهذا إسناد صحيح.

هذا ويقال: إنَّ رسول الله ﷺ خرج على أصحابه رضوان الله عليهم يوماً وَهُمْ يتذاكرون فضْل الأنبياء. قال قائل: (موسى كليم الله)، وقال

قائل: (عيسى روح الله وكلمته)، وقال قائل: (إبراهيم خليل الله).
ومضى الصحابة يتحدثون عن الأنبياء، فتدخَّل رسول الله ﷺ حين رآهم لا يذْكُرون (يحيى) عليه السلام فقال: (أين الشهيد ابن الشهيد، يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذَّنْب، أين يحيى بن زكريا)؟!

[أنبياء الله لأحمد بهجت ص ٣٢٥].

قلتُ: فسلام الله على (يحيى) يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حياً، وبهذا السلام الرَّباني يختتم السياق القرآنيُّ (سيرة يحيى بن زكريا) ليفتح صفحة جديدة في (سيرة السيدة مريم العذراء) التي اصطفاها الله وطهَّرها واصطفاها على نساء العالمين ووَلدتْ (المسيح عيسى) مِن غير بَعْل فكان ميلاده عليه السلام أعجب وأغرب من ميلاد (يحيى) الذي وُلد من أبٍ شيخ فانٍ وامرأةٍ عاقر، وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

***

الفصل الثامن :

يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك

وهكذا عشنا معاً بتوفيق الله تعالى مع قصة (ولادة مريم ابنة عمران)، وقد مات والدها الإمام قبل أن تولد، وكانت (أُمُّها حنة) ترجو أنْ يكون ما في بطنها ولداً ذكراً، فنذرتْه لله محرَّراً خادماً في (بيت المقدس)، وتضرَّعتْ إلى الله أن يقبل نذرها، فلمَّا وضعتْها أنثى تأسَّفت واعتذرتْ وسمَّتها (مريم)، وقد أكرمَها الله تعالى إذ تقبَّل ابنتها منها بقبول حَسَن وأنبتها نباتاً حَسناً، وكفَّلها (زكريا) عليهما السلام.

ورزق الله (مريم) في (محرابها) رزقاً واسعاً مِن عنده، وأظهر لها بعض الكرامات في نَفْسِها وفي كافلها (يحيى) عليه السلام، إذ استجاب سبحانه دعاءه فوهب له غلاماً اسمه (يحيى) على كِبَر سِنِّه وعُقْر امرأته!!

وكُلُّ ذلك كان إيناساً (لمريم) بالحَدَث العجيب الذي سيحْدُث لها عمَّا قريب.

وبعد قصة (زكريا ويحيى) عليهما السلام يعود السياق القرآنيُّ إلى (مريم ابنة عمران) فيتحدَّث عن اصطفاء الله تعالى لها وعلى سائر النساء، وإلى أنَّ الله وهَبها (ابنها المسيح عيسى) عليه السلام مِن غير أَب. ويؤكِّد السياق القرآني أنَّ هذه المسألة ليس فيها شيء يَخْدِش (عِرْض مريم العذراء)، ولا عفافها ولا كرامتها، وإنَّما الأمر كُلُّه هو محْض اصطفاء واختبار من الله جلَّ جلاله. وبهذا يشرع السياق القرآني في تَتِمَّة فضْل الله تعالى على (آل عمران) واصطفائهم على العالمين. وتكون في قصتهم هذه كما في قَصَص كل الأنبياء عِبَر وعظاتٌ بالغات لكل ذي عقْل رشيد، وفيها هُدًى ورحمة لكل المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ

لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [يوسف ١١١].

ويبدأ السياق في تتمة فضائل (آل عمران) بقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [آل عمران ٤٢، ٤٣].

المعنى العام للآية الأولى: واذكر يا محمد لأصحابك وأُمَّتك وللناس كافة ما قالته (الملائكة لمريم) مِن بشارات وتكاليف تعبُّدية، إذ نادتها باسمها [يا مريم]، وأخبرتْها بأنه تبارك وتعالى اصطفاها وطهّرها واصطفاها على نساء العالَمين.

هذا وعند جمهور المفسرين المراد بالملائكة هنا هو (جبريل) عليه السلام، وإنْ كان هذا عُدولاً عن الظاهر إلَّا أنه يجب كما قال (الإمام الرازي ٨/ ٣٨): يجب المصير إليه والأخذ به لأنَّ [سورة مريم] دلَّت على أنَّ المتكلِّم مع (مريم) هو (جبريل) عليه السلام.

هذا والاصطفاء معناه: الاختيار، والاجتباء، وقد كُرِّر الاصطفاء في الآية مرتين، في المرة الأولى: لم يقل إنه اصطفاها على أحد، وفي المرة الثانية: قال: إنه اصطفاها على نساء العالمين.

فدلَّ بذلك على أنَّ الاصطفاء الأول كان اصطفاءً ذاتياً وفي (مريم) نَفْسِها مما اتفق لها عليها السلام من الأمور في أول عُمُرِها، فقد تقبَّلها الله تعالى من أُمِّها مُحَرَّرة (لبيته المُقدَّس) وهي أنثى، وأنبتها نباتاً حسناً، ووفَّق لكفالتها (زكريا)، عليه السلام وجعل من بيته المعظم مقراً لها، وأكرمها برِزْق من عنده سبحانه.

واصطفاها بالإيمان والطاعة وبالصلاح والتفرُّغ لعبادته وإتِّباع مرضاته، وأسمعها كلام الملائكة شِفاهاً.

أما الاصطفاء الثاني: فيُصرف إلى ما حصل (لمريم) في آخِر عُمُرها وهو اختيارها عليها السلام على نساء العالمين في كل زمان وكل مكان من لدن (حواء) عيها السلام إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة، وذلك الاصطفاء إنما هو للمهمة التي لم تقم بها امرأة غيرها في العالم كُلِّه، حيث وهبها سبحانه (عيسى المسيح) عليه السلام المخلوق بقَدَر الله تعالى وكَلِمَةٍ مِنْه من غير أب، ليكون وأُمُّه آية للعالمين، وليشيع اصطفاؤها في كل الناس.

هذا وقد أهَّل الله (السيدة مريم) لهذين الاصطفاءين، وذلك بأنْ طهرَّها من الحيض، فهي لم تكن تحيض، وطهرَّها من الأفعال الذميمة والعادات القبيحة، وطهَّرها عن (مقالة اليهود) وتُهْمتهم الباطلة وكذبهم عليها، إذ أنطق ابْنها وهو في المهد وشَهِد على براءتها.

وقال [الحافظ ابن كثير في قصص الأنبياء ٥٥٣، التفسير ١/ ٣٦٢]:

(وطهَّرك) أي: من الأخلاق الرذيلة والأكدار، وأعطاك الصفات الحميدة.

وقال [صاحب التسهيل ١/ ١٥٢]:

(وطهَّرك) أي: من كل عيب في خَلْق وخُلُق ودِين.

وقال [صاحب الظلال ١/ ٣٩٥]:

والإشارة إلى الطُهْر هنا إشارة ذاتُ مغزى، وذلك لِمَا لابس (مولد عيسى) عليه السلام من شبهات لم يتورَّع (اليهود)، أن يُلصِقوها (بمريم الطاهرة).

وهنا تظهر عظمة (الدين الإسلامي)، فها هو ذا (سيدنا محمد) ﷺ رسول الإسلام يُحدِّث عن رَبِّه تبارك وتعالى (بحقيقة مريم) العظيمة وتفضيلها على نساء العالمين فيرفعها إلى أعلى الآفاق، فأيَّة عظمة هذه لهذا الدين! وأي صِدْق هذا لصاحبه الأمين عليه الصلاة وأزكى التسليم؟!

وهنا يسأل البعض: هل (مريم) هذه كانت نبية؟

فأقول: رأى بعض أهل العِلم أن (مريم بنت عمران أم عيسى المسيح) كانت نبية من الأنبياء، لأنَّ الله تعالى قد أوحى إليها وكذلك الحال في (أم إسحاق وفي أم موسى) لأنَّ الله قد خاطبهنَّ.

ومِن هؤلاء: (ابن حزم الظاهري الأندلسي) في كتابه [الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل]، وممن قال بنبوة (مريم) أيضاً (الإمام القرطبي الأندلسي في تفسيره [الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٨٣].

والصحيح أنَّ (مريم) ليست نبية لأنها أنثى وليستْ رَجُلاً، وقد قال الله تعالى مخاطباً (حبيبه محمداً) ﷺ وهو خاتم النبيين والمرسلين:

{**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ**} [النحل ٤٣].

فالنبوة عِبءٌ كبير، وحِمْلٌ ثقيل، وهي خاصة بالرجال ولم تكن للنساء أبداً.

وما كانت نبياً قَطُّ أُنْثى ولا عَبْداً قبيحاً في الفِعَال

وأمَّا كلام الله (لمريم) أو لغيرها بواسطة الملائكة، فلا يُعَدُّ دليلاً على ثبوت نُبوَّتها، إذ أنَّ كلام الملائكة لها ولغيرها لم يكن برسالة أو نبوة أو بحُكم شَرْعي، وإنما كان بأمر الله تعالى وبشارة منه سبحانه، وذلك قد يكون كرامة (لمريم) أو إرهاصاً (لعيسى) عليهما السلام.

وهذا ولم يَرِد في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية (وصف مريم بالنبوة) أبداً وإنما وصفت بالاصطفاء وبالطُّهر وبأنها صِدِّيقة قال تعالى: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ} [المائدة ٧٥].

ومرتبة الصديقية أدْنَى مِن مرتبة النبوة، وأعلى مِن مرتبة الشهادة، قال تعالى: {فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً} [النساء ٦٩].

وإذا وصَف الله تعالى (مريم بالصديقة)، فقد وصَف سبحانه (إدريس) ووصف (إبراهيم) عليهما السلام بالصديقية إضافة إلى وصفهما بالنبوة، قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً} [مريم ٤١].

وقال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً} [مريم: ٥٦].

فلو كانت (مريم) نبية لوصفها سبحانه بأنها صديقة نبية، وإنما قال: {وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ}.

هذا والصِّدِّيق: هو مَن آمن بالله وبرسله، ولم يتأتَّ منه الكذب، وذلك لملازمته الصدق، قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ} [الحديد ١٩].

هذا (والسيدة مريم) منزلتها عند الله لا تُنكر، فلقد اصطفاها سبحانه وتعالى وطهَّرها واصطفاها على نساء العالمين، وهي المرأة

الوحيدة التي ذُكِر اسمها صراحة في القرآن الكريم، وفي القرآن سورة كاملة تسمى [سورة مريم] وفي هذا تكريم لها وتشريف. (فمريم) عليها السلام خير نساء عالمي زمانها بالاصطفاء الذاتي، وهى خير نساء العالمين بالاصطفاء المخصوص حيث اخْتُصَّت وَحْدَها بالآية العجيبة والمعجزة الباهرة تلكم هي (ولادة السيد المسيح) مِن غير أَب.

هذا ورسول الله ﷺ قد رفع شأن (السيدة مريم) في عدة أحاديث، منها:

ما رواه (أنس بن مالك) رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: (حَسْبُكَ من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد).

[أخرجه الحاكم في المستدرك وقال حديث صحيح على شرط الشيخين، ورواه الترمذي ٥/ ٦٦٠].

ومنها ما رواه (معاوية بن قُرَّة) عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (كَمُل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفَضْل عائشة على سائر النساء كفضْل الثَّريد على سائر الطعام).

[فتح الباري ٦/ ٥١٤، مسلم ٢٤٣١، الترمذي ١٨٣٤].

وقد أخرج النسائي بإسناد صحيح والحاكم من حديث (ابن عباس) رضي الله عنهما مرفوعاً: {أفضل نساء أهل الجنة: خديجة وفاطمة ومريم وآسية} رضي الله عنهن.

هذا وبعد أنْ ذكر الله تعالى ما مَنَّ بـه عـلى (مـريم بنـت عمـران) مِـن الاصطفاء والتطهير والاصطفاء على نساء العالمين، وجَّهها سبحانه بواسطة الملائكة إلى مواصلة السير في طريق الصلاح والعبـادة والخدمـة والطاعـة، لِتُغْبَط عليها السلام بنعم الله، وتُضَاعِف الشكر لله، وتقوم بحقوقه.

قال تعالى في سورة [آل عمران ٤٣]:

{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}.

أي: (يا مـريم) استمرِّي في عبـادة ربِّـك تبـارك وتعـالى، وأديمـي بإخلاص إقامة الـصلاة وأطـيلي وقوفـك بـين يـدي الله، وأكثـري مـن سجودك لـه سـبحانه منفـردةً في محرابـك، وشـاركي بركوعـك جماعـة الراكعين في [المسجد الأقصى] حتى تزدادي قُرْباً من الله تعالى.

فالـصلاة عـماد الـدين ، وعـصام اليقـين، ورأس القربـات، وغُـرة الطاعات، وهي صلة بين العبد وربه، وهـي معـراج المـؤمن إلى الله عـزَّ وجلَّ، والصلاة ترفـع الـدرجات وتحـطُّ الخطيئـات وتكفِّـر الـسيئات، والصلاة خشوع وخضوع، وقيام وقعود، وركوع وسجود.

وفي الحديث النبوي:

{أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء}

[صحيح مسلم بشرح النووي ٤/ ٥٠].

وصدق الله العظيم القائل: **{وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}** [العلق ١٩].

وقد كان (نبينا محمد) ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطَّر قدماه، فقالـت له (عائشة) رضي الله عنها: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: (أفلا أكون عبداً شكوراً)؟

[فتح الباري ٨/ ٤٤٧].

هذا وبذلك التوجيه الربَّاني : (يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين).. جَمَعتْ مريم بين أفعال القُلوب وأفعال الجوارح، حتى استوى عندها صلاح الباطن بصحة الظاهر، وحتى استقام لديها الاعتقاد بالقول والعمل، وقامت عليها السلام بين يدي الله تعالى حتى قَرِحت قدماها –

كما قال (مجاهد) رحمه الله – [زاد المسير].

هذا وقد كُرِّر النداء في الآية: (يا مريم) وذلك للتنبيه، والإشارة إلى أهمية ما يَرِد في ثناياه.

وفي التعرُّض لعنوان الربوبية (اقنتي لربك) إشعارٌ بعلة وجوب الامتثال لأوامر الله سبحانه وتعالى [روح المعاني ٣/ ١٥٦].

هذا وفي اللغة [المقاييس ٢/ ٣٧٣، المصباح ٥١٧، المفردات ٤١٣، اللسان ٢/ ٣-].

(اقنتي) فعل أمر مبني على حذف النون لاتصاله بياء المخاطبة، وهي فاعل، ومادته (ق ن ت) القاف والنون والتاء: أصل صحيح يدل على طاعة وخير في دين، يقال: قنَت يَقْنتُ قُنوتاً معناه: الدعاء، ثم سمي كل استقامة في طريق الدين قُنُوتاً، وقيل لطول القيام في الصلاة قنوت. ومنه قوله ﷺ : (أفضل الصلاة طول القُنوت) [صحيح مسلم ٧٥٦].

وسُمِّي السكوت في الصلاة والإقبال عليها قنوتاً، ومنه قوله تعالى: {وَقُومُوا لله قَانِتِينَ} [البقرة ٢٣٨].

ورُوي عن (زيد بن أرقم) ﷺ قال: كنا نتكلم في الصلاة، يكلِّم أحـدُنا صاحبه في حاجته حتى نزلتْ: {وَقُومُوا لله قَانِتِينَ} فأُمِرْنا بالسكوت.

هذا ودعاء القُنوت أي: دعاء القيام ومنه (قنوت الوِتْر).

و(القانت) هو الذاكر لله تعالى، قال تعالى:

{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً} [الزمر ٩].

وقيل: (القانت) هو العابد وهو القائم بجميع أمر الله، قـال تعـالى: {وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ} [الأحزاب ٣٥].

وقيل: [القُنوت] هو لزوم الطاعة مع الخضوع.

هذا وقد شهد الله تعالى في كتابه العزيز بـأنَّ (خليلـه إبـراهيم) عليه السلام كان قانتاً، قال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّـةً قَانِتـاً لله حَنِيفـاً وَلَمْ يَـكُ مِـنَ الْمُشْرِكِينَ}. [النحل: ١٢٠].

كما أخبر سبحانه وتعـالى بأن (مريم البتُـول) كانت من القانتـين، قال تعالى:

{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيـهِ مِـنْ رُوحِنَـا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}. [التحريم ١٢].

هذا ومادة (قَنت) وردتْ في القرآن الكريم (ثلاث عشرة مرة):

أولها: في [البقرة ١١٦]: {بَلْ لَهُ مَـا فِي الـسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُـلٌّ لَـهُ قَانِتُونَ}.

وآخرها: آخر آية في سورة [التحريم ١٢] {.. وكانت من القانتين}.

وقوله: (واسجدي) من (س ج د).

قال [ابن فارس في مقاييس اللغة ١/ ٥٨٦]:

السين والجيم والدال: أصل واحد يدل على تطامن وذُل. يقال: سجد يسجد سجوداً: إذا تطامن، وكُلُّ شيء ذَلَّ فقد سجد، وفي [المصباح المنير ٢٦٦] سجد البعير أي: خفض رأسه عند ركوبه.

وسجد الرجل: وضع جبهته بالأرض.

والسجود لله تعالى في الشرع: عبارة عن هيئة مخصوصة، وقد يُعبَّر بالسجود عن الصلاة، ومنه قوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} [ق ٤٠] أي عقب الصلاة.

وقال (الراغب) في [المفردات في غريب القرآن ٢٢٩]:

والسجود بمعنى التذلل لله وعبادته هو: عامٌ في الإنسان والحيوانات والجمادات، وذلك (ضربان):

الضرب الأول: سجود باختيار وليس ذلك إلا للإنس والجن، وبه استحقَّا الثواب والعقاب، قال تعالى: {فَاسْجُدُوا لله وَاعْبُدُوا} [النجم ٦٢]، وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات ٥٦].

والضرب الثاني: سجود تسخير، وهو للإنسان والجن والحيوانات والجمادات، وعليه قوله تعالى: {وَلله يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الرعد ١٥].

هذا (وأعضاء سجود الإنسان سبعة) هي: الجبهة مع الأنف، والكفَّان، والركبتان، وأطراف أصابع القدمين.

والوصف من سجد: ساجد، وجمعه ساجدون وسُجَّد وسُجُود.

قوله: [واركعي] من (ر ك ع) في اللغة: الراء والكاف والعين: أصل واحد يدل على انحناء في الإنسان وغيره، يقال: ركع الرجل يركَع رُكوعاً: إذا انحنى، وكُلُّ مُنْحَنٍ فهو راكع، وفي الحديث: (ذَكَر المشايخ الرُّكَّع)، يريد الذين انحَنَوْا من الكِبَر والضعف. وركع أيضاً: قام إلى الصلاة، وكل قَوْمة يتلوها ركوع وسجدتان فهي ركعة، وركع المصلي إذا انحنى بعد قومة القراءة حتى تنال راحتاه ركبتيه ويطمئن ظهره ويستوي. ثم تصرف في الكلام فقيل للمصلي: راكع، وقيل للساجد شكراً: راكع، ومنه قوله تعالى: {وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ} [ص ٢٤].

هذا وركع أيضاً بمعنى افتقر وَذَلَّ بعد غِنًى على سبيل الاستعارة، قال الشاعر الجاهلي:

لا تُهِينَ الفقيرَ علَّكَ أنْ　　تَرْكعَ يوماً والدَّهْرُ قَدْ رَفَعه

هذا وفي القرآن الكريم [اقترن الركوع بالسجود] في (ستة مواضع)، وفي خمسة منها تقدَّم الركوع وذلك لتقدُّمه على السجود في الزمان والطبع والعادة، وهذه المواضع هي:

في [البقرة ١٢٥]:

{أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}.

وفي [التوبة ١١٢]:

{الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ}.

وفي [الحج ٢٦]:

{وطَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}.

وفي الحج ٧٧ : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا}

وفي [الفتح ٢٩]:

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً}.

أما في الموضع السادس والوحيد فقد تقدَّم فيه ذِكْر السجود على الركوع وذلك في سورة [آل عمران ٤٣]:

{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}.

هذا وقد تعدَّدت تأويلات المفسرين واللغويين لهذا التقديم:

فقال [صاحب روح البيان ٢/ ٣٣]: وذلك إمَّا لكوْن الترتيب في شريعتهم كذلك، وإمَّا لكون السجود أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع، وإما ليقترن الركوع بالركوع للإشعار بأنَّ مَن لا ركوع في صلاتهم ليسوا مصلين. [وانظر التسهيل ١/ ١٥٢].

وقال [الإمام الرازي في تفسيره ٨/ ٣٩]: فالله يأمر (مريم) بالمواظبة على السجود في أكثر الأوقات، وأما الصلاة فإنها تأتي بها في أوقاتها المعيَّنة لها، فاستعملي (يا مريم) السجود في وقته اللائق به، واستعملي الركوع في وقته اللائق به، وليس المراد أن تجمع بينهما وتُقدِّم السجود على الركوع والله أعلم.

وقال [الزجاج في زاد المسير ١٩٤]: الواو لا تقتضي الترتيب، وإنما تُؤْذِن بالجمع فالركوع مُقدَّم كقوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران ٥٥].

وقال [الإمام ابن القيم الجوزية في كتابه بدائع الفوائد ١/ ٨٠]:

والذي يظهر في الآية – والله أعلم – أنها اشتملتْ على مطلق العبادة وتفصيلها، فذَكر الأعمَّ وهو القُنوت ويشمل أنواع الطاعة، ثم ذكر ما هو أخصُّ منه وهو السجود الذي يُشْرع وحده كسجود الشكر والتلاوة، ويُشرع في الصلاة، ثم ذكر بعد السجود ما هو أخصُّ منه وهو الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة.

وقال [الإمام أبو القاسم السهيلي في كتابه نتائج الفكر ٢٧٢]:

ومما قُدِّم لفضله وشرفه قوله تعالى:

{وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}.

فالمخاطب هنا (السيدة مريم) وهي امرأة، [والآية تضمَّنت صلاتين]، صلاتها في بيتها منفردة وهي أفضل لها، وصلاتها مع المصلين في المسجد جماعة وهذه دون صلاتها في محرابها وأقل في المرات، لذا قدَّم (واسجدي) على (واركعي مع الراكعين)، وهذا نظم بديع وفِقْهٌ دقيق.

هذا والسِرُّ في قوله: {واركعي مع الراكعين} دون مع الراكعات - والله أدرى وأعلم- لأنَّ لفظ الراكعين يشمل الرجال والنساء على سبيل التغليب، ولمناسبة رؤوس الآي أيضاً، ولأنَّ الاقتداء بالرجال أفضل، ولو قال الحق: واركعي مع الراكعات، لم يدخل الرجال في هذا الجمع.

فسبحان الله العظيم جلَّتْ حِكمته ودقَّتْ بلاغة كلامه!!

هذا ولقد استجابت (مريم) لتوجيه ربها لها نحو الشكر الدائم. واجتهدتْ عليها السلام ما استطاعت في قُنوتها وطاعتها وفي سجودها في (محرابها) منفردة وفي ركوعها في (المسجد) جماعة مع الراكعين.

وهكذا تأهَّلت عليها السلام بالتطهير والقنوت والعبادة لتلقِّي الفضل العظيم من الرب الكريم، إذ جاءتها البشرى الكبرى بواسطة الملَك حيث قال تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران ٤٥-٤٦].

المعنى العام: واذكر (يا محمد) لأُمتَّك قصة إذ قالت الملائكة،

وقرأ (ابن مسعود وابن عمرو): "إذ قال الملائكة"، وذهب جمهور المفسرين إلى أنَّ المراد بالملائكة هنا هو (جبريل) عليه السلام.

وفي [تفسير أبي السعود ١/ ٣٥٥]: ولما كان (جبريل) عليه السلام هو رئيس الملائكة عُبِّر عنه باسم الجماعة تعظيماً له. وقيل الرئيس لا بُدَّ له من أتْباع، فأُسند النداء إلى الكل مع كونه صادراً عنه خاصة.

هذا والبشارة غالباً تكون بخبر عظيم مفرِح، يُظهِر السرور في بشرة وجه المُبشَّر. هذا وقد جاءت البشارة (لمريم) كاملة تفصح عن الأمر كله، فصَّلت خصائص ابنها المرتقب وذَكرتْ مميزاته ومآله حالاً ومستقبلاً،

وهذه الخصائص هي:

أولاً: وجوده وولادته ﷺ ستكون بكلمة خاصة مِن الله تعالى وهي كلمة: (كُنْ) فيتعلَّق خَلْقه ﷺ بالقدرة الإلهية مباشرة، وكانت البشارة في هذه الآية بالكلمة لأن الله تعالى يُزاول سلطانه في المُلْك بالكلمة لا بالمعالجة، قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس ٨٢].

هذا وقد أطلق على (عيسى) لفظ الكلمة بطريقة إطلاق السبب على المسبب، لأن سبب حدوثه وظهوره هو الكلمة الصادرة منه سبحانه وتعالى وهي (كن) فسمِّي (عيسى بالكلمة) كما يقال: سيف الله وأسد الله، وحدوث كل مخلوق وإنْ كان بسبب هذه الكلمة، لكنَّ السبب المتعارف للحدوث لَّما كان مفقوداً في حَقِّ (عيسى) ،ﷺ إذ وُجد مِن غير أبٍ، كان إسناد حدوثه إلى الكلمة أظهر وأتَمَّ وأكمل، وبهذا الاعتبار جُعِل (عيسى) ﷺ كأنَّه نَفْس الكلمة.

هذا وكلمة (كن) هي تقريب لنا فحَسْب، لأنه لا يوجد عندنا أقصر في الأفهام مِن (كن)، والحقيقة أنَّ الأمر ينتهي قَبْل كاف (كن).

وقال الرازي ٨/ ٣٦٣: قوله (كلمته) إشارة إلى أنَّ (عيسى حجة الله) على عباده، أبدعه من غير أب، وأنطقه في غير أوانه.

الخاصة الثانية: أنَّ الله تعالى سيسمِّي (ابن مريم) بنفسه، قال تعالى: {بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ}، ولم يَقُل واسمها، لأن (كلمة) هنا معناها وَلَد. وهكذا بَشَّر المولى جلَّ جلاله (السيدة مريم)

باسم وَلَدِها كما بشَّرها بالمسمَّى، وجاء الاسم علماً كاملاً بأقسامه الثلاثة (الاسم و اللقب والكنية)، والإنسان يتميَّز بمجموع الثلاثة.

فلفظ (المسيح لقب) ولفظ (عيسى اسم) و(ابن مريم كنية)، وقُدِّم اللقب على الاسم هنا لشهرته عليه السلام بهذا اللقب.

(فالمسيح أشهر من عيسى) لأن المسيح إذا وقع على سَمِيٍّ آخر يشتبه به، فإنّ (عيسى) يقع على عدد كثير فقُدِّم اللقب لشهرته.

وهكذا الحال في ألقاب معظم الخلفاء والعلماء والأدباء والشعراء فهي أشهر مِن أسمائهم (كالفاروق وسيبويه والجاحظ والمتنبي) وغيرهم.

أيها الإخوة القراء وقد سبق وأنْ أوضحتُ لكم معاني كلمة المسيح[1]، وأشهرها أنه المبارك الصِّدِّيق الممسوح من الذنوب، وأنه يمسح بيده ذا العاهة فيبرأ، وكان كثير السياحة والسير في الأرض.

ولفظ (عيسى) مِن معانيه المُخلِّص، وفي هذا إشارة إلى أنه عليه السلام سببٌ في تخليص كثير من أُمَّته من الآثام والضَّلال بدعوتهم إلى التوحيد.

وقوله تعالى: (ابن مريم) إشارة إلى أن المسيح عليه السلام سيولد مِن غير أَب؛ لأنه لو وُلد من أب لصُرِّح باسمه بدلاً من التصريح باسم أمه، ولكن (المسيح عيسى) لم ولن يُنسب إلَّا لأُمِّه، وفي هذا ردٌّ على (ضُلاَّل النصارى) الذين زعموا أنه ابن الله.

(١) صفحة ١٩

(والسيدة مريم) بفطنتها التي وهبها الله لها قد أدركت مِن قول الملَك: { اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ } أنَّ ولدها هذا سيولد منها من غير أب، لأنه لا يمكن أن ينتسب إلى الأم مع وجود الأب. ولهذا تعجَّبت فيما بعد، كيف يكون لها غلام ولم يمسَسْها بشر ولم تكن بغياً.

قوله تعالى: {وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} هذه هي الميزة الثالثة (للسيد المسيح).. وجيهاً بالنصب على الحال، أي: الحال أي حالة كونه وجيهاً فيهما، والوجيه كما جاء في [المصباح ٦٤٩] هو ذو الوجاهة والشرف والقدر الرفيع والمكانة العظيمة، وقيل الوجيه المحبَّب المقبول الكريم؛ وذلك لأنَّ أشرف أعضاء الإنسان وجهه، فجعل الوجه استعارة عن الكرم والكمال.

(ووجاهة عيسى) عليه السلام في الدنيا هي بالنُّبوة والتقدُّم على الناس، وقبول دعائه في إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ووجاهته في الآخرة بقبول شفاعته في أُمَّته المُستحقِّين، وبعُلوِّ درجته عند الله تعالى وكثرة ثوابه.

هذا وقد وردتْ (كلمة وجيه) في القرآن الكريم (مرتين) فقط:

الأولى في [الأحزاب ٦٩] وصفاً (لموسى كليم الله) عليه السلام، قال تعالى: {فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً}.

والمرة الثانية في [آل عمران ٤٥] وصفاً (للمسيح عيسى كلمة الله)، قال تعالى: {وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}.

وقوله: "ومن المقربين" هي رابع الخصائص للسيد المسيح... وفيه إشارة إلى رفْع عيسى إلى السماء، وتصاحبه الملائكة المقرَّبون، ويُلحقه الله بدرجتهم ومنزلتهم، كما جاء في [التفسير الكبير ٨/ ٤٥].

وقيل من المقرَّبين أي: من الناس من القبول والإجابة.

وفي [مجمع البيان ١/ ٧٤٦] "من المقربين" أي إلى ثواب الله وكرامته كما قال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [الواقعة ١٠-١٢].

وفي خاتمة تلك البشرى أضافت الملائكة إلى هذه الخصائص في (المولود المرتقب) صفتين عظيمتين أخريين في قوله تعالى:

{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران ٤٦].

فالله تعالى يشرِّف (المسيح عيسى ابن مريم) بتكليم الناس في صغره وفي كبره.. وهذه أولى الصفتين .

و(المهد): هو ما يمهد للصبيِّ من مضجعه وقت الرَّضاع والمراد به هنا: زمن المهد والطفولة حين يكون (عيسى) في حِجْر أمه عليهما السلام، حين أتت به قومها تحمله فأنطقه الله جلَّ جلاله ببراءة أُمِّه مما اتهمها (اليهود) المفترون في قذفهم إياها، وقولهم عليها بهتاناً وإثماً مبيناً. ومن فوائد كلامه عليه السلام في المهد بيان عبوديته لله والبشارة بنبوته وَبَرَكَته وبِرّه بأمه.

قال (ابن عباس) رضي الله عنهما: تكلَّم (المسيح عيسى) ساعةً في مهده ثم لم يتكلم حتَّى بلغ مبلغ النطق [زاد المسير ص ١٩٥].

قوله: (وكهلاً): في اللغة [المقاييس ٢/ ٤٢٧، المصباح ٥٤٣، الوسيط ٢/ ٨٠٣]:

الكاف والهاء واللام: أصل يدل على قوة في الشيء، أو اجتماع جِبلَّة.. من ذلك: الكاهل في الجسم وهو مقدَّم أعلى الظهر مما يلي العُنُق سمّى بذلك

لُقوَّته، والكاهل من الإنسان خاصة، ويستعار لغيره وهو ما بين الكتفين وفيه سِتُ فقرات .. ويقال: اكتهل النبات إذا تم طوله وظهر نَوْرُه.

ويقال: فلان كاهِلُ بني فلان بمعنى: مُعْتَمَدُهم في الملِمّات.

وكاهَلَ الرَّجُل: أي تزوَّج، ويقولون للرَّجُل: كَهْلٌ إذا اجتمعتْ قُوَّته، وكمُل شبابه، واستحكم عقله، وأوَّله (ثلاث وثلاثون) وقيل: (أربعون إلى نحو الخمسين).

هذا (وكلام عيسى) في الكهولة فيه تبشيرٌ لأُمِّه بأنه سيبلغ مبلغ الرجال، كما فيه بيانٌ لفصاحة كلامه وبلاغته في المهد وفي الكهولة على السواء.. وفيه أيضاً.. إشارة إلا أنه سيُرفع إلى السماء ثم ينزل إلى الأرض في آخر الزمان، فيكلِّم الناس بالوحي والنبوة، وقد بلغ سنَّ الكهولة، ويهديهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، قال تعالى:

{إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران ٥٥].

وقال تعالى: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} [النساء ١٥٩].

وفي تفسير البغوي ٢/ ١٧: (وقيل عيسى رفع إلى السماء شاباً، والمراد من قوله تعالى "وكهلا" أي بعد نزوله إلى الأرض).

وعن (أبي هريرة) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(والذي نفسي بيده ليوشِكنَّ أنْ ينزِل فيكم ابن مريم حَكَماً عدْلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها)**.

رواه الشيخان [فتح الباري ٤/ ٤٨٣، وشرح النووي ٢/ ١٩١، رواه الترمذي في سننه ٤/ ٤٣٩].

ففي الآية ردٌّ كذلك على (نصارى نجران) وغيرهم ممَّن يزعم أنَّ (عيسى إله)؛ إذ الإله الحقُّ لا يَمُرُّ بهذه التقلُّبات، والمُتنقِّل مِن حال إلى حال هو حادِثٌ ومتغيِّر، والحدوثُ والتغيُّر يتنافيان مع صفة الألوهية. [روح المعاني ٣/ ١٦٣].

وقوله تعالى: {وَمِنَ الصَّالِحِينَ} وهذه هي **الصفة الثانية** والمعنى: (يا مريم) وحالة كون (ابنك المسيح) مِن العباد الصالحين وهو معدود منهم، وهُمُ الذين أنعمَ الله عليهم مِن النبيِّن والصِّديقين من أمثال: (إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون) وغيرهم من الأنبياء الذين تعرفين سيرتهم الصالحة.

هذا وقد خُتِمت (أوصاف عيسى) عليه السلام في هذه البشرى بكونه من الصالحين وذلك - والعلم عند الله - لأنَّ الصلاح مِن أعظم المراتب وأشرف المقامات، إذ المرء لا يُسمَّى صالحاً حتى يكون على النهج الأصلح، والطريق الأكمل في جميع أقواله وأفعاله، وفي جميع المقامات الدينية والدنيوية، في أفعال القلوب وأفعال الجوارح.

فيكون دوماً على طريق الاستقامة، وطهارة النفس، والتجرُّد من الفساد والعيوب، فيكون له علمٌ صحيح وعملٌ صالح.

وهكذا كانت البشارة من الله تعالى لمريم (بولادة المسيح عيسى) بواسطة الملائكة، ومن الراجح جداً أنْ يكون المبشِّر هنا هو (جبريل) عليه السلام ومعه عدد من الملائكة الكرام، هو يقول لها وهُمْ يردِّدون قوله:

{إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران ٤٥ – ٤٦].

وهذه البشرى من الله تعالى (لمريم) والواردة في سورة [آل عمران] قد تكرَّرت في موضع آخر من القرآن وهو [سورة مريم ١٦-١٩] في قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً}.

نعم نعم فها هو (الروح الأمين جبريل) عليه السلام أمام (مريم العذراء) في خلوتها المنعزلة يتمثَّل لها بشراً سوياً، فينقل لها بُشْرى ربِّها عزَّ وجلَّ قائلاً: {إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً}.

أي: (يا مريم) لا تخافي مِنِّي ولا تفزعي، فما أنا إلا ملَكٌ من ملائكة الرحمن، أرسلني إليك لأكون سبباً في هِبته العظمى لك بوليد من غير أب، فيكبر معك وترينه عمّا قريب غلاماً يافعاً زكياً طاهراً مباركاً نقياً!!

وهكذا أيها الإخوة أتتْها البشرى مرتين:

الأولى في [سورة آل عمران] جائتها وهي في (محرابها) صوتاً مسموعاً ولم تَرَ شخصاً: {إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ}، (فالمبشِّر جبريل) ومعه عدد من الملائكة.

والمرة الثانية في [سورة مريم] جاءتها في شخص تراه وصوت تسمعه: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً}، فالمبشِّر هنا هو (جبريل) وَحْدَه، وهو رُوح الله الأمين الذي ينزل بالوحي إلى الأنبياء والمرسلين، فتحيا القلوب، وتستنير بما يحمل الوحي مِن الوحي والنُّور، كما تحيا الأرض وتخضَرُّ بما ينزل من السماء من ماء وبَرَد.

(وجبريل ملَك ، ومريم بشر) والطبيعتان مختلفتان ولابُدَّ أنْ تتقاربا حتى يتحاورا. والله سبحانه أقدر ملائكته على التشكُّل بأشكال حَسَنة، لهذا تمثَّل (جبريل لمريم) عليهما السلام في صورة بشر سويٍّ الخلقة، حسن الصورة، جميل الطلعة، يُبشِّرها بهبة الله.

وقوله تعالى: { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ } أي: واذكر (يا محمد) في القرآن الذي أوحيه إليك (قصة مريم) وعرِّفها لأُمتك وللناس أجمعين، حتى يعرفوا كمال قدرتنا، إذ (انتبذت مريم) عن قومها، وتنحَّت وانعزلت وانفردت وحدها، واتَّخذت مكاناً (شرقي المسجد الأقصى) تخلو فيه بنفسها عن أعين الناس، واتخذت في هذا المكان حجاباً من دون أهلها حتَّى (كافلها زكريا وأمها حنة)؛ وذلك – والله أعلم – زيادة في الخلوة ومبالغة منها في البعد حتى عن أصوات رُوَّاد المسجد، واستعداداً في تحقُّق البشارة التي بلَّغتها بها الملائكة عندما كانت في (محرابها) بأنَّ الله يُبشِّرها بكلمة منه، وهي لا تعرف كيف سيكون تحقُّقها، لهذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، حيث نور المشرق، وجعلتْ في ذلك المكان بينها وبين أهلها حتى المقرَّبين سِتْراً، حتى لا يشغلها شيء عن العبادة، وحتى لا

تحجبها رؤية الخَلْق عن أنوار الحقِّ، فأرسل الله إليها (روحه) ليبشِّرَها بِهبَته جلَّ جلاله لها (بعيسى) عليهما السلام.

نَعم لقد سمعت (السيدة مريم العذراء) وهي في (محرابها داخل المسجد الأقصى) سَمِعتْ مِن الملائكة أنَّ الله يُبشِّرها بكلمة منه (اسمه المسيح عيسى ابن مريم)، ثُمَّ رأتْ عليها السلام في هذا المكان المنعزل شخصاً في صورة بَشَر سويٍّ الخِلقة، وقد قطع عليها خلوتها، ودخل سِترها بغير إذْنِها، وهي الفتاة القِدِّيسة الوَرِعة العفيفة، الحبيبة الضعيفة، لهذا الْتجأت عليها السلام إلى الله العظيم تستعيذ به وتستنجِد، مستثيرةً مشاعر التقوى والخوف مِن الله في نَفْس هذا الماثِل أمَامها إذ قالت:

{إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً} [مريم ١٨] أي: إنْ كنت أيها الرجُل تخاف الله، وكان يُرجَى منك أنْ تخشاه، وأنْ ينهاك قلبُك وعقلك عن أنْ تمسَّني بسوء، وأنَّ تقواك تحفلُ بالاستعاذة بالله، ووجدانك ينتفض عند ذِكْر الرحمن، فترجع عن نَزْغ الشيطان، فإني أُذكِّركَ بالله، وأستعيذ منكَ به، وهو رَبِّي الرحمن، وإني أتحصَّن وأمتنع بعصمته سبحانه منك، فإنْ كنتَ رحيماً فسوف ترحم ضعفي ووَحْدتي، وإنْ كُنتَ تقياً فانصرف عنِّي ولا تُؤْذني، واتَّقِ محارم الله، وتجنَّب معاصيه.

هذا واختارت (مريم) في استعاذتها عنوان الرحمانية، وذلك للمبالغة في العياذ به تبارك وتعالى، ولاستجلاب آثار الرحمة الخاصة والتي هي العصمة مما دَهَمها، وكأنها بقولها: {أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ} تعني إنْ لم يكن هذا البَشَر تقياً فرحمة رَبِّها تَقِيها منه!!

ولكنَّها وقفتْ خَجِلة حائرة، ثم أدركتْها شجاعة الأُنثى، فتساءلتْ في صراحة كما تساءلتْ في المرة الأولى عن كيفية تحقُّق هذه البشارة العجيبة:

ففي المرة الأولى والواردة في [سورة آل عمران] عندما سمعت صوتاً ولم تر شخصاً: {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} .

وفي المرة الثانية والواردة في [سورة مريم] عندما رأتْ شخصاً وسمعت صوتاً: {قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً} .

نعم نعم أيها الإخوة هكذا قالت مريم في المرتين، وهي تعلم بالعادة أن الولادة لا تكون إلا عن حملٍ مِن رَجُل، وأنَّ اللقاء بين المرأة والرجل إمَّا أنْ يكون عن زواج شرعي وهو الحلال، أو عن طريق غير شرعي وذاك حرام، وهي عليها السلام لم يمسَسْها بشر بزواج وهي (المنذورة المحرَّرة لبيت الله)، والمحرَّر عندهم موقوفٌ على خدمة (المسجد الأقصى) لا يتزوج، وحاشاها أن تكون فاجرة بغياً، وهي الورعة العفيفة الطاهرة الشريفة؛ لذا قالت عليها السلام في المرة الأولى:

{قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} .

وقالت في المرة الثانية: {أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً} .وقد قالت هذا القول تعجُّباً واستفهاماً، ولم تَقُلْه شَكاً وإنكاراً، فهي ما استبعدتْ من قدرة الله تعالى شيئاً، ولكنْ أرادت كيف يكون هذا الولد؟ هل من قِبلِ زوجٍ في المستقبل؟ أَمْ يخلقه الله ابتداءً وهي عزباء على حالتها؟!

هذا والمسُّ في القرآن الكريم كُنِّي به عن الجِماع كما في قوله تعالى: {لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ} [البقرة ٢٣٦].

وما أنْ سمع الشخص الماثل أمام (مريم) كلامها واستعاذتها، وعرف خَوْفها وفَزعها منه حتى كشف لها عن حقيقته ومهمته بقوله: {إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً}.

هكذا أخبرها (جبريل) عليه السلام بأسلوب الحصْر والقصْر أنه ليس بآدميٍّ، وإنما هو رسول مَنِ استعاذتْ به، ولم يَقُلْ أنا رسول الله إليك بل قال: {رسول ربك} وذلك – والعلم عند الله – لأنَّ الرَّبَّ هو المتولِّي التربية، والذي يتولَّى تربية شيء فسوف يصُونه عن أي إفساد، ولا ينظر إلا في مصلحته وصلاحه.

وكأنما (جبريل) عليه السلام يقول (لمريم) عليها السلام: لا تخافي ولا تتوقَّعي ما توهَّمتِ أيتها الطاهرة، فأنا رسول ربك وقد بعثني إليك، لأكون سبباً في هِبته لك غلاماً زكياً طاهراً مِن الذنوب، مبرأً مِن العيوب، نامياً على الخير.

هذا وفي قول جبريل: {لأهب لك} إشارة إلى أنَّ الأمر هبة من عند الله تعالى، وليس هو مسألة أسباب، فكأنه يريد أن يقول: لا تسألي عمَّا قدَّر الله عليك وما وهب لك.

وما أنْ سمعتْ (مريم) قوله هذا، حتى اطمأنَّ قلبها، وهدأتْ نَفْسها، وعلمتْ أنَّ البشارة الأولى التي سمعتها مِن قبل في (محرابها) أنها صادقة، وتيقَّنتْ أنَّ الذي أمامها هنا في (خلوتها) إنما هو مَلَكٌ كريم

مُرْسَل مِن الرَّبِّ العظيم، وأنَّ البشارة العظمى بهبة الله لها بمولود قد عرفتْ اسمه وصفته ومآله حالاً ومستقبلاً في دنياه وآخرته، قد آن أوان تحقُّقها، وعلمتْ الآن أنها ستعيش مع (وليدها عيسى) حتى تراه غلاماً زكياً طاهراً مباركاً، وأيقنت (السيدة مريم العذراء) وهي الطاهرة المصطفاة أنها ستكون أُمًّا لكلمة الله.

وفي اللغة [المسُّ]: يشمل ما كان عن طريق نكاح أو سفاح، (ومريم ابنة عمران) بشهادة رَبِّها جلَّ جلاله قد أحصنتْ فَرْجَها إحصاناً كلياً عن الحلال وعن الحرام جميعاً، لهذا قالت ما قالت مكتفيةً في [آية مريم] فذكرتْ الطريقين، وأفردتْ ذِكْرَ البغاء بعد دخوله في الكلام الأول، وذلك أعظم ما في بابه كما قال [الإمام الرازي في تفسيره ٢١/ ١٧٠] وهذا التفصيل مناسبٌ لتفصيل القصة الواردة في [سورة مريم] من إتيانها قومها بالولد، وافترائهم عليها، ونطق وليدها في المهد ببراءتها كما قال [الإمام الكرماني في أسرار التكرار في القرآن ٤٧].

هذا ويلاحظ أيها الإخوة أن (مريم) في [آية آل عمران] قالت: {أنى يكون لي ولد} وفي [آية مريم] قالت: {أنى يكون لي غلام} وذلك لمناسبة كل كلمة لصيغة البشارة الواردة في كل سورة منهما.

ففي [آل عمران ٤٥]: **{إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ}**. فذكروا (المسيح) على أنه ابنها، إذن فهو ولدُها لهذا قالت هناك: **{أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ}**.

أمّا في [سورة مريم] فقال لها الروح الأمين: {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً}. فذكر أن وليدها سيكبر معها ويكون غلاماً لهذا قالت هنا: {أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ}.

فسبحان الله العظيم مُنزِّل هذا القرآن الحكيم على قَلْب نبيِّه الكريم بلسانٍ عربيٍّ معجزٍ مبين!!

لقد تساءلت (السيدة مريم العذراء) مرتين عن كيفية حملها (بعيسى) عليها السلام وهي لم يمسَسْها بَشَر ولم تك بغِيا؟

وقد أجابها (جبريل) رسول ربها إليها عن هذا السؤال التعجبي بقوله في المرة الأولى والواردة في [آل عمران ٤٧]: {قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}.

وبقوله في المرة الثانية والواردة في سورة [مريم ٢١]: { قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً}.

المعنى العام للجواب الأول: قال (جبريل عليه السلام لمريم) عليها السلام {كذلك} أي الأمر هو كما قلتُ لكِ مِن خَلْق وَلَدِ منكِ بلا أب، وهو كما قلتِ أنتِ منْ أنكِ لسْتِ بذَاتِ زوج ولستِ بَغِيَّة،

فالله سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء كيف شاء بسبب وبلا سبب، وهو سبحانه إذا قضى وأراد خَلْق شيء أيَّ شيء مِن الكائنات والأشياء، فإنه لا يخلقه بالمعالجة وإنما بقوله له: {كن فيكون}، فهو سبحانه يريد الشيء في عِلْمِه، وما في عِلْم الله مرادٌ يضاهي الموجود، فلذلك يجوز خطابه فيأمره الله [بكلمة كن] أيها الشيء واخرُج من العدم، فيكون الشيء بسرعة، وحسبه

أنْ أراد الله أنْ يوجد ويكون.. فلا يمتنع عليه سبحانه فِعْلُ ما يريد خَلْقه، ولا يحتاج سبحانه في إنشائه إلى الآلات والمواد وبقية الأسباب.

(وولدك عيسى يا مريم) هو سيُخلق بكلمة [كن] كما قضى الله وأراد فهو كما قالت لك الملائكة: {إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ}.

هذا وجاء في [الجواب لمريم] عليها السلام قوله: {كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} [آل عمران ٤٧]. بينما في (قصة يحيى ابن زكريا) عليهما السلام جاء قوله: {كَذَلِكَ اللهُ يفعل مَا يَشَاءُ} [آل عمران ٤٠].

والسِّرُّ في ذلك – والعلم عند الله – أنَّ [أسباب الإنجاب] من وجود الأب والأم في (ميلاد يحيى) كانت موجودة، ولكنها لم تكن تفعل، والله سبحانه جعلها حينئذ تفعل، ففعلتْ وأخصبَتْ وأنجبتْ (يحيى)، فكان ذِكْرُ الفِعْل هنا أنسب لهذا قال: {كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}.

أمَّا في (ميلاد عيسى) (فالأسباب) لم تكن موجودة؛ إذ وُجِدت الأم ولم يوجد الأب، والله سبحانه أراد إيجاد (عيسى من مريم) وهي لم يمسَسْها بَشَر، لذلك فسيخلقه خَلْقاً مباشراً بكلمةٍ منه وهي (كن) من غير حاجة إلى الأب، فكان ذِكْرُ الخلق أنسب هنا لهذا قال: {كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}.

وهكذا جاء الاختلاف في الرَّدَّين بالتدليل بكلمة واحدة، على أنَّ المستفهم عنه شيء واحد.

فزكريا الأب: {قَالَ رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ} [آل عمران ٤٧] ؟.

فجاء الرد هكذا: { كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [آل عمران ٤٠].

ومريم الأم: {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} ؟

فجاءها الرد هكذا : {قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}[آل عمران ٤٧].

فسبحان الله تجلَّت حكمتهُ في كل شيء، وتناهت بلاغة كلامه في كل كلمة!!

هذا والكاف الأولى في قوله "كذلك" هي للتشبيه بمعنى: مثل، و(ذا) بعدها هو اسم إشارة للمفرد المذكر يعود على الأمر المستفهم عنه، و(اللام) بعده هي للمبالغة في الدلالة على البُعد والتعظيم.

و(الكاف) الأخيرة في (كذلك) هي حرف خطاب، وليست ضميراً، لذا فهي تتحرَّك حسب المخاطب، ذَكَراً أو أُنثى، مفرداً أو غير مفرد..

فتُفتَح مع المخاطب المفرد المذكر كما في قوله تعالى عند (مخاطبة زكريا):

{ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ }، وتُكْسر مع المخاطبة المفردة المؤنثة كما في قوله تعالى (مع مريم): {كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ}، {كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ}.

وتتصل بها علامة التثنية وعلامة الجمع المؤنث والمذكر، كما في قوله تعالى في مخاطبة (يوسف عليه السلام لصاحبي السجن):

{ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي} [يوسف ٣٧]، وكما في قوله تعالى على لسان (امرأة العزيز في مخاطبة النسوة): {قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ} [يوسف ٣٢]، وكما في قوله تعالى في سورة [الشورى ١٠]: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي }.

هذا وأما المعنى العام في (جواب جبريل عن تساؤل مريم الثاني):
قال (جبريل): الأمر (يا مريم) كما قلتُ وتقولين، فالله تبارك وتعالى سيَهب لك غلاماً زكياً منكِ، وأنتِ على حالك لم يمسَسْك بشَر لا بنكاح ولا بسفاح، وربُّك الفعّال لما يريد.

قال: {هو على هَيِّن} أي: خَلْقُ ولدٍ من أُم بغير أب هو هيِّن يسير؛ لأنَّ هذا إيجاد شيء مِن شيء، والله قادر على أكبر مِن ذلك وأصعب، أي: على إيجاد شيء من لا شيء، وهذا القول بمنطق الإنسان على قدر طاقته البشرية المحدودة.

أمَّا قدرة الله جلَّ جلاله فهي مُطْلَقة، وإرادته سبحانه مُحقَّقة، لا يحدُّها حدود ولا تُقيِّدها قيود.

وقوله: {ولنجعله آية للناس} أي: (يا مريم) والله سبحانه يريد أن يجعل (خلق عيسى) آية للناس، أي: علامة عجيبة وبرهاناً عظيماً لكل الناس على وجوده وكمال قدرته سبحانه، فهو الذي نوَّع في خَلْقهم، إذ خَلق (أباهم آدم) من غير ذَكَر ولا أنثى، وخَلق (أمهم حوَّاء) مِن ذَكر بلا أنثى، وخلق (بقية الناس) مِن ذكر وأنثى إلاَّ (ابنك عيسى) فسيوجده من أنثى بلا ذَكر!

وبهذا تَتِمُّ القسمة الرُّباعية الدالة على كمال قدرته. وعظيم سلطانه، فلا إله غيره، ولا رَبَّ سواه [تفسير ابن كثير ٢/ ١١٥].

قوله: {ورحمة منا} أي: وليجعل الله تعالى (ولدك عيسى) رحمة منه تبارك وتعالى له ولكِ ولمن تبعه وآمن برسالته عليك وعليه السلام.

وسوف يخصُّه الله بوحيه وفضله، ويجعله مِن أُولي العزم، وتنالين أنتِ بأمومته الفخر والثناء عند الخَلْق، والأجر والثواب عند الخالق، وتحصل لمن يؤمن به سعادة الدنيا والآخرة [تفسير الشيخ السعدي ص٥٢٨ بتصرف].

قوله: {وكان أمراً مقضياً} أي: (يا مريم) وإن (خَلْق عيسى) منك بلا أب كان أمراً مقدوراً مِن الله تعالى، وقضاءً مسطوراً في (اللوح المحفوظ) ولا رادَّ لقدر الله وقضائه، ولا بُدَّ مِن نفوذ قَدَرِه، ووقوع قضائه بلا تساؤل ولا مناقشة.

وما أنْ سمعتِ (السيدة مريم العذراء البتول} كلام (جبريل سيد الملائكة) حتى سكنتْ لأمر الله، ورضيتْ بقضائه، وأيقنتْ أنَّ هذا الأمر إنما هو إرادة الله العزيز الحميد، الفعَّال لما يريد.

قال تعالى في[سورة مريم ٢٢] : {فَحَمَلَتْهُ} أي: فلما سكنت (مريم العذراء) وهدأتْ نَفْسها، وسلَّمتْ أمْرها لربها، واستسْلمتْ لقضائه، حَملتْ في رَحِمَها (المسيح عيسى ابن مريم).

هذا ولم يَرِدْ في (آل عمران) ولا في [سورة مريم] كيفية وقوع هذا الحَمْل، ولكن جاء الحديث موجزاً عن ذلك في [سورة الأنبياء] وفي [سورة التحريم]، وفي ذلك إشارة إلى الوحدة القرآنية، فكل آية لها سياقها الذي ينتظم مع سابقها ولاحقها، وكلُّ آية لها صلتها بموضوع السورة التي وردتْ فيها، ولها اتصالها للسياق العام للقرآن الكريم .

[المرأة في القصص القرآني ٢/ ٦٨٥].

ففي [سورة الأنبياء ٩١] قال تعالى: {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ}.

وفي [سورة التحريم ١٢] قال تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}.

فهاتان الآيتان الكريمتان تشهدان بأنَّ [مريم ابنة عمران] امرأة طاهرة عفيفة شريفة، قد أحصنتْ فَرْجها إحصاناً كلياً عن النكاح الحلال وعن السفاح الحرام، كما تشير الآيتان إلى أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد اصطفاها وطهَّرها، واختارها على نساء العالمين فأرسل إليها (روحه الأمين جبريل) عليه السلام فنفخ فيها الروح، لتحمِل بوَلد مِن غير أب، فتتحقَّق المعجزة العجيبة الفريدة ولتكون (مريم وابنها) بمجموعهما آية واحدة للعالمين، تلكم هي (ولادتها عيسى) عليه السلام من غير فَحْل، فيكونان معاً برهاناً ساطعاً على تمام معجزات خلق البشر الأربعة إذ قد تَمَّ (خَلْق آدم) عليه السلام من دون ذكر ولا أنثى، وتَمَّ (خلق حواء) عليها السلام من ذكر دون أنثى، ثم (خَلق الناس جميعاً) من ذكر وأنثى، وجاء (خلق عيسى) عليه السلام من أنثى بلا ذَكر، فكان بنفخة مِن رُوح الله، وبكلمة منه وهي (كن).

قال تعالى عن آدم في [سورة الحجر ٢٩]: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي}.

وقال تعالى عن عيسى في [آل عمران ٥٩]: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}.

فالنافخ في (آدم وعيسى) هو الله جَلَّ جلاله وقال بعض المفسرين: النافخ في عيسى هو (جبريل) [تفسير الرازي ٢١/ ١٧١] ثم اختلفوا في كيفية هذا النفخ:

فقيل: (نفخ جبريل) في (جَيْب مريم) حتى وصَلَت النفخة إلى الرحِم، وقيل: نفخ في ذيل ثوبها فوصلتْ إلى الفَرَج، وقيل: أخذ بكُمِّها فنفخ في جَنْب ذراعها فدخلت النفخة صدرها فحملت، والله أدرى وأعلم.

هذا وقد جاء التعبير القرآني في [سورة الأنبياء]: {**فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا**}، وجاء في [سورة التحريم/ ١٢]: { **فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا** }.

وقد تعدَّدت أقوال العلماء في بيان الحكمة في هذا الاختلاف في ضمير الغائب (الكشاف للزمخشري ٣/ ١٣٣، درة التنزيل للخطيب الإسكافي ٣٠٢، أسرار التكرار في القرآن للكرماني ١٤٣، ملاك التأويل للغرناطي ٢/ ٨٤٥].

وخلاصة القول: أن الضمير في الآية الأُولى {فنفخنا فيها} (عائد إلى مريم)، وذلك لأن (آية سورة الأنبياء) وردت في سياق الحديث عن جملة من الرُّسل (أوَّلهم إبراهيم وآخرهم زكريا) عليهم السلام، موصوفين بخصائص عليَّة وآيات نبوية، فناسب هنا ذِكْر (مريم وابنها) عليهما السلام، بما مُنِحا من الله، وأنهما جُعلا آيةً للناس، لهذا عَبَّر في هذه الآية بأنَّ النفخ كان فيها فأعيد الضمير إلى ذاتها الطاهرة بجملتها، إذْ جعلها النفخ حاملاً (بابنها المسيح) إلى أن ولدته وفي هذا تشريف وتكريم (لمريم وابنها معاً).

وأما [آية التحريم] فالمقصود منها – والعلم عند الله – هو: (تخصيص مريم) في ذاتها بإكمال عِفَّتها، وبتصديقها بكلمات ربها، وبإثباتها في عداد القانتين، وبتشبيه حالها (بامرأة فرعون) المذكورة في السورة قبلها وضرب المثل بهما للمؤمنين، ولم يَرِد في هذه السورة ذِكْرٌ (لابنها المسيح)؛ فلهذا اقتصر فيها على ذِكْر إحصانها عليها السلام دون الإشارة إلى حَمْلها { وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا } [التحريم ١٢].

وهكذا كان كُلُّ تعبير مناسباً لسياق السورة التي وَرَد فيها، فسبحان الله العظيم!!

هذا وفي اللغة [المصباح ٤٦٥ والمعجم الوسيط ٢/ ٦٧٨ واللسان ف ر ج].

[الفَرْج والفُرجة] هو الشَّقُّ والفتْق بين الشيئين كفُرجة الحائط، والجمع فروج، يقال فَرَج بينهما يفرِج من (باب ضرب) فَرْجاً أي شقًّا.

وفي التنزيل العزيز [المرسلات ٩]: {وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ} أي: انشقَّت .

وفي سورة [ق ٦]: {كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} أي: وليس في السماء شقوق ولا فتوق.

[والفَرْج] بفتح الفاء وسكون الراء هو ما بين الرِّجْلين في الذَّكر والأنثى وكُنِّي به عن السَّوْءَة أي: العَوْرة، وغُلِب عليها حتى صار كالصريح فيها قال تعالى: {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} [الأنبياء ٩١]،

وقال تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ} [النور ٣٠، ٣١].

هذا وأما [الرُّوح] ففي اللغة [المقاييس ١/ ٤٩٤، المفردات ٢١، المصباح ٢٤٢، الوسيط ١/ ٣٨٠] روح: الراء والواو والحاء: أصل كبير مُطَّرِد يدل على سَعة وفُسحة واطِّراد، وأصل ذلك كُلِّه الريح وهو الهواء إذا تحرك، وجمعه رِياح، وقُلبت الواو ياء في الريح لكسرة الراء قبلها.

[والرَّوْح] بفتح فسكون هو نسيم الريح، وهو الراحة والفَرح والسرور، يقال أراح الإنسان روحاً إذا تنفَّس، وقال تعالى: {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ} [الواقعة ٨٩].

و[الرُّوح] بضم الراء هو ما به حياة النَّفْس، وقيل: الروح هو النَّفَس فإذا انقطع عن الحيوان فارقته الحياة، وجُعِل الروح اسما للنفْس وذلك لكون النفْس بعض الروح. والروح مذكر، ومَن أجاز فيه التأنيث فعلى معنى النَّفْس وجمعه: أرواح.

وفي القرآن الكريم ورد (لفظ الرُّوح) بضم الراء (إحدى وعشرين مرة).

أولها في [البقرة ٨٧]: {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}.

وآخرها في [القدر ٤]: {تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}.

هذا وفي كتاب الله العزيز ورد [الروح] على (عِدة معان) (بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٣/ ١٠٥، قُرَّة العيون النواظر في الوجوه

والنظائر لابن الجوزي ص ١٣٢، معجم الكليات لأبي البقاء العكبري ص ٤٧٠]،

ومن هذه المعاني ما يلي:

أولاً.. الروح هو اللطيفة التي بها مَدد الحياة في الإنسان والحيوان، ومن ذلك قوله تعالى: {**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**} [الإسراء ٨٥].

ثانياً.. الروح بمعنى (جبريل) عليه السلام، ومن ذلك قوله تعالى: {**فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا**} [مريم ١٧].

ويوصف (جبريل) بالأمين كما في سورة [الشعراء ١٩٣]: {**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ**}، وجبريل هو (روح القدس) كما في سورة (النحل ١٠٢): {**نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ**}.

ثالثاً.. الروح هو ملَك عظيم يكون إزاء جميع الخلق يوم القيامة قال تعالى: {**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً**} [النبأ ٣٨].

رابعاً.. الروح بمعنى الوحي عامة، ومنه قوله تعالى: {**يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**} [النحل ٢].

خامساً .. الروح بمعنى القرآن خاصة {**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا**} [الشورى ٥٢].

سادساً.. الروح بمعنى (عيسى) عليه السلام، ومنه قوله تعالى: {**وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ**} [النساء ١٧١].

سابعاً.. الروح بمعنى الرحمة نحو قوله تعالى: {وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ} [المجادلة ٢٢].

هذا ولم يصرح القرآن الكريم (بِسِنِّ مريم العذراء) حين حملت (بعيسى) عليهما السلام ولا بِمُدَّة حَمْلها.

والراجح أنها كانت في مرحلة من السن يمكن فيها الحمل، والغالب في ذلك بعد العاشرة بثلاث سنوات.

والراجح أنَّ مدَّة حملها كانت طبيعية كما تحمل سائر النساء والغالب في ذلك أن تكون تسعة أشهر.

ولو كان سنُّها أو مدة حملها على خلاف ما جرتْ به العادة، لكان أمراً عجيباً خارقاً، ولأورده القرآن، كما أورد أموراً أخرى عجيبة وقعت (لمريم) عليها السلام ولكن لم يأت ذلك لأنه لا يتعلَّق به كبير فائدة.

فلما اطمأنت (مريم العذراء) لقول (جبريل) عليه السلام، واستسلمت لقضاء الله تبارك وتعالى، نفخ فيها (جبريل)، فحملت بقدرة الله، قال تعالى في [سورة مريم ٢٢، ٢٣].

{فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً}.

أي: وما أن شعرت (السيدة البتول) بالحمل في بطنها، حتَّى استحيت من أهلها وعشيرتها، وخافت أنْ يتهمها أحدٌ من الناس بسوء لهذا {فانتبذت به} أي: ابتعدت (والجنين الموهوب) لها في بطنها، إذ الباء في {به} للملابسة والمصاحبة كما قال [صاحب روح المعاني ١٦/ ١١٦]

وذلك نحو قوله تعالى: {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ} [المؤمنون ٢٠] أي: ودهنها معها، (ومريم) ابتعدت واعتزلت عن كل الناس، وتنحَّت مكاناً قصياً أي بعيداً،

يقال: مكان قصيٌّ وقاصٍ بمعنى واحد، مثل عاصٍ وعصيّ، وقد ابتعدت عليها السلام عن قومها وعن (مدينة القدس) التي نشأت فيها، والراجح أنَّ هذا المكان القاصي هو (شرقي بَيْت لَحْم) حيث (ولد المسيح) عليه السلام، فقد ورد في (حديث الإسراء) عن (أنس بن مالك) رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (فقال لي جبريل أنزل فصَلِّ فصليت، فقال: أتدري أين صليت يا محمد؟ صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى ابن مريم).

[سنن النسائي ١/ ٢٢٢، ورواه البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٣٥٦].

قال تعالى: {فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة}.

[أجاء] فعل متعدٍ منقول من جاء، يقال هو جاء أي: أتى من نفسه بمحض إرادته، فإذا دخلت عليه الهمزة يقال: أجاءه أي: جاء به وساقه واضطره،

قال زهير بن أبي سُلْمى:

وجَارٍ سارَ مُعْتَمِداً إليكُمْ أَجاءَتْهُ المَخَافَةُ والرَّجَاءُ

و(المخاض) بفتح الميم وبكسرها هو: وَجَعُ الولادة المباشرة،

قال في [المصباح ٥٦٥] مخضَتِ المرأة وكلُّ حامل، هو من [باب تعب] معناه: دنا ولادُها وأخذها الطَّلْق وتحرَّك الجنين في بطنها للخروج، فهي (ماخِض) بغير تاء التأنيث لأنه وصف خاصٌّ بالأنثى

مثل (حامل وطالق)، (وابن مخاض) هو ولد الناقة في السَّنة الثانية، فإذا دخل في الثالثة فهو (ابن لَبُون).

و(جِذْع النخلة) بكسر الجيم أي: ساقُها لا سَعَف عليه ولا غُصن له، والجمع جذوع وأجذاع. ورُوي أن تلك النخلة كانت وحيدة في ذلك المكان يابسة ليس لها رأس ولا ثمر ولا خضرة كما جاء في [الكشاف ٣/] وكان الوقت شتاءً والبرد شديداً.

فالمخاض (ألجأ مريم) إلى تلك (النخلة) لتتشبَّث بجذعها، لتسهل عليها الولادة، مَثَلُها في ذلك مَثَلُ أي حامل إذا اشتدَّ عليها الطَّلق تتعلَّق بشيء مما تجده عندها.

وروي أنه لما اعتمدت على الجذع بصدرها اخضرَّت النخلة، وأطلعت الجريد والخوص والتمر رُطَباً في وقت واحد [حدائق الروح والريحان ١٧/ ١٠٧].

وكأنَّ الله تعالى أرشدها إلى هذه النخلة لِيُرِيهَا من آياته ما يسكن روعتها،

وفي [تفسير الرازي ٢١/ ١٧٣] ثم إنه سبحانه وتعالى أظهر الرطب من هذه النخلة من غير اللقاح ليدل ذلك على جواز ظهور الولد من غير ذَكَر.

وها هي (السيدة مريم العذراء) تقف وحدها بجوار النخلة الوحيدة، فيدور في خَلَدِها ما جرى وما يجري لها، فترى الأمر كُلَّه حقيقةً واقعة: حملٌ محسوس، ومخاضٌ مُوجِع، وولادة حاضرة، ولا أنيس معها ولا معين لها، وعمَّا قليل سيرى الناس وليدها، وستواجهها المشاكل، ولا

تدري ماذا سيقولون عنها، وهـل يُـصدِّقون أنهـا ولدتْـه مـن غـير أب، فيحظون برضاء الله تعالى، أو أنهم يظنون بها الظنون فيأثمون؟

كل ذلك وغير ذلك مما الله به عليم قد دار في (خلد مريم) فشدَّد على نفسها الموقف على الرغم من تصديقها ورضائها ببشارة الملائكة لها، لهذا قالت عليها السلام من قلب حزين مكلوم، وبصوت باكٍ مكتـوم وهـي تضع وليدها: {يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً} .

وهكذا تمنَّتِ العذراء لو أنهـا ماتـت قبـل هـذا الموقـف العـصيب، وكانت نسياً منسياً أي: شيئاً تافهاً ولا يُعتَدُّ به، ولا يؤُبَه له، يتركه الناس ويطرحونه ولا يلتفتون إليه، فيُنسَى ولا يُذكَر، ويُقالُ في نسيانه، كأنه من سَقَط المتاع، وإذا ذُكِر فلا يُطْلب، ولا يُدْرى ما هو.

هذا وقد نهى رسـولنا الكـريم ﷺ عـن تمنِّـي المـوت عنـد حـدوث مكروه ونزول ضرر، ففي [الصحيحين] عن (أنس) ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يتمنى أحدكم الموت لضُرٍّ نزل بـه، فـإن كـان لابـد متمنيـاً للموت فليقُل: اللهم أحييني ما دامت الحياة خيراً لي وتـوفَّني إذا كانـت الوفاة خيراً لي)

[فتح الباري ١١/ ١٥٤، النووي على مسلم ١٧/ ٧].

فتمنِّي الموت تمرُّداً على القدر، وكُرْها للضرر، وضـجراً مـن مـشاق الدنيا منهيٌّ عنه، أمَّا إذا خشي المتمنِّي الفتنة في دينه، ورجـا أنْ يـصير إلى خير مما سيتركه، فهذا موضوع آخر، ولا كراهة فيه، فعادة الصالحين كـما جاء في [تفسير الرازي ٢١/ ١٧٣] إذا وقعوا في بلاء واشتد عليهم الأمر أنْ يقولوا مثل ذلك.

فعن (أبي بكر) رضي الله عنه قال: وَدِدْتُ أني ثمرة على شجرة يَنْقُرها طائر.

وعن (عمر الفاروق) رضي الله عنه أنه أخذ تِبْنَةً من الأرض وقال: ليتني هذه التبنة، يا ليتني لم أكُ شيئاً.

و (عَلِيٌّ) رضي الله عنه قال (يوم الجمل) يا ليتني مِتُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة.

و(بلال) رضي الله عنه قال: ليت بلالاً لم تلده أمه.

ومن هذا الباب تمنَّت (السيدة مريم) الموت إذ خافت الفتنة.

قال [الحافظ ابن كثير في التفسير ٣/ ١١٦]:

(وقول مريم) هذا فيه دليل على جواز تمنِّي الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستُبتلى وتُمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يُصدِّقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدةً ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنُّون صورة سيئة فقالت: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ أي: قبل هذا الحال، ﴿وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً﴾ أي: لم أُخلق ولم أكُ شيئاً.

وفي [حاشية الجَمل على الجلالين ٣/ ٥٧]: (تمنَّت مريم الموت) من جهة الدِّين، إذ خافت أن يُظنَّ بها السوء في دينها، أو استحياءً من الناس، فأنساها الإستحياء بشارة الملائكة (بعيسى)، أو لعلَّها قالت ذلك لِئلَّا تقع المصيبة أي: الإثم بمن يتكلم فيها، وإلاَّ فهي راضية بما بُشِّرت.

وفي [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٩٢]: وعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت، ولهذا قالت مريم: ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾، وقرىء (مُت).

وفي اللغة: مِتُّ بكسر الميم من مات يمات فهو من (باب خاف)، ومُت من مات يموت فهو من (باب قال).

وفي كتاب الله العزيز: {وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ} [آل عمران ١٥٨]، وفيه: {أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ} [المؤمنون ٣٥].

ومصدر مات: موتاً فالميم والواو والتاء أصل صحيح يدل على ذهاب القوة من الشيء، ومنه الموت الذي هو خلاف الحياة، قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [العنكبوت ٥٧].

والوصف من مات: ميِّت وميْت.

(فالميْت) بالتخفيف: هو مَن قد مات وفارق الحياة، وجمعه: أموات، قال تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ} [الأنعام ١٢٢]، وقال تعالى: {وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتٌ} [البقرة ١٥٤].

والميِّت بالتثقيل: هو مَن سيموت بعد قليل أو كثير مِن الزمن، وجمعه: مَوْتَى وميِّتون قال تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر ٣٠]، وقال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى} [يس ١٢].

أما (المَيْتة) بفتح الميم: فهو الحيوان الذي مات حَتْف أنفه، أو قُتِل على هيئة غير مشروعة، وأَكْلُه حرام، قال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ} [المائدة ٣].

وفي غمرة تلك الآلام الحسية والنفسية التي ألـمَّتْ (بالسيدة مريم) في وَحْدتها ووَحْشَتها وترقُّبِها أدركتها رحمة الله تعالى، وشملها لُطْفه

الجميل، إذ هيَّأ سبحانه مَن يناديها، فيهوِّن عليها أمْرَها، ويـصبِّرها ويُقِـرُّ عينها، بل ويتكفَّلُ بأنْ يدافع عنها ويُبرِّيء ساحتها.

قال تعالى: {فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي} [مريم ٢٤].

***

الفصل التاسع :

فناداها مِن تحتها ألَّا تحزني

(السيدة مريم العذراء) قد ألجأها المخاض إلى جذع النخلة الوحيدة في ذلك المكان القصِيِّ الذي تنحَّتْ فيه عن الناس وعن (مدينة القدس)، ومرَّت عليها لحظات عصيبة وهي تعاني آلام الولادة والوحدة والوحشة، وقد استحيت أن يراها الناس ومعها طفلها، وهم يعلمون أنها عذراء، كما خافت عليها السلام أن يظن أحدٌ بها السوء فيأثم عند الله، لهذا تمنَّت أن لو ماتت قبل هذا الحال وكانت نسياً منسياً!.

لكن الله الكريم المطَّلع على أمْرها وسرِّها، والعليم بعفَّتها وضعفها، قدَّر سبحانه أنْ يلطُف بها، ويُريها مِن عجائب آياته وقدرته ما يثبِّت به فؤادها، قال تعالى في سورة [مريم ٢٤-٢٦]: {**فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً**}.

ما شاء الله لا قوة إلا بالله! هكذا إخوتي في الله تحُلُّ رحمة الله، فتجعل الحزينة سعيدة، وتحوِّل العُسر إلى يُسر، والضِّيق إلى سعة، إذ ناداها من تحتها ألاَّ تحزني،

والقراءة المشهورة "مِن تحتِها" بكسر التاء الثانية على أنَّ (مِن) حرف جر، وقُرِيء (مَن تحتَها) بفتح الميم وفتح التاء الثانية على أنَّ (مَن) اسم موصول بمعنى الذي و(تحتها) ظرف منصوب وهو صلة لمن.

وللمفسرين قولان في (الذي ناداها)، فبعضهم قال: إن (المنادي لمريم) هو (جبريل) عليه السلام محتجِّين أنَّ (عيسى) عليه السلام لم يتكلَّم حتى أتت به

أُمُّـه قومهـا، وقـالوا : إنَّ (جبريـل) كـان واقفـاً في بقعـة مـن الأرض مُنخفضة، (ومريم) كانت على رَبْوة عالية بجوار جذع النخلـة [محاسـن التأويل للقاسمي ١١/ ١١٨].

وقال [الحسن]: ولعلَّ (جبريل) كان موقفه هنـاك إجـلالاً (لمـريم) وتحاشـياً عـن حـضوره بـين يـديها وهـي في تلـك الحـال [روح المعـاني ١٦/ ١٢٠].

ويُحْكَى عن (عكرمة): أن (جبريل) ناداها مِنْ تحت النخلـة [تفـسير الرازي ٢١/ ١٧٥].

و(جمهور المفسرين) على أن الذي (نـادى مـريم) إنـما هـو (وليـدها عيسى) حين الولادة، أنطقه الله تعالى تـسليةً لهـا وتثبيتـاً لقلبهـا وإزالـة للوحشة عنها، وإشارة منه سبحانه إلى أنه كما نطـق أمامهـا فإنـه سـوف ينطق أمام قومها ببراءتها.

واحتجَّ هؤلاء بأنَّ الضمير يعود إلى أقرب مذكور لفظاً ورتبة، وهنـا الضمير المستتِر في ناداها يعود إلى (عيسى)، كما هو كذلك قبل ذلـك في: (ولنجعله آية، فحملته، فانتبذت بـه) وكـما يعـود ذلـك بعـد ذلـك في: (فأتتْ به قومها، فأشارت إليه، قال إني عبدالله).

وأنكر بعضهم أنْ يكون (جبريـل) هـو الـذي ناداهـا ومِـن هـؤلاء [الإمام الرازي ٢١/ ٢٠٥] إذ قال: ولا يليق بالمَلك أن يناديها من تحتها، وهي في حالة الولادة والانكشاف.

وقال [صاحب التفسير القرآني للقرآن ١٦/ ٧٣١]: والذي نأخذ به هو أنَّ المنادِي لها لا يكون مَلَكاً إذ لو كان مَلَكاً لناداها مُن عُلُوٍّ وهو الجهة المنزَّل منها، إذن فالمنادي لها هو مَن كان تحتَها بالفعل وهو وليدها، ويؤيد ذلك قراءة "فناداها مَن تحتَها" بفتْح الميم، وهذه تشير إلى أنه كان تحتَها أحدٌ وهو (عيسى) عليه السلام.

ولكن (الفرَّاء) كان يقول ما خاطبها إلا المَلَك على القراءتين "مِن تحتِها" و"مَن تحتَها"،

والراجح عندي – والعلم عند الله – أنَّ الذي ناداها إنما هو (وليدها عيسى) أنطقه الله حين الولادة، فخاطب أمه وهو تحتها تسليةً لها وتثبيتاً لقلبها، وقد أجرى سبحانه هذه الآية أمام (مريم) وحدها ثم أجراها بعد ذلك أمَام قومها، كما أجرى سبحانه معجزة قلب (العصا إلى حيَّة) أمام (موسى) عليه السلام وَحْدَه، قبل أنْ يُجْرِيها أَمام (فِرعون وملئه) وذلك تثبيتاً (لموسى كليم الله) وإعداداً له لمواجهة عدو الله.

وقال (الحسن بن علي) رضي الله عنهما: إنَّ (عيسى) عليه السلام لو لم يكن كلَّم أُمَّه حين الولادة، لما عَلِمت أنه ينطق، ولما كانت تُشير إليه بالكلام عندما أتت به قومها تحمله، بل ولما وجدت الجرأة على أنْ تلتقي قومها بالطفل، ثم تلقاهم بهذا التحدِّي وهو أن تدعوهم بالإشارة إلى الاستماع إليه.

وقوله: {ألاَّ تحزني} فأصله (أن لا).(أنْ) على أرجح الإعرابين هي مُفَسِّرة بمعنى (أي) (ولا) ناهية، (وتحزني) فعل مضارع مجزوم بها وعلامة الجزم حذف النون، لأنه من الأفعال الخمسة، وياء المخاطبة

فاعل في محل رفع، (فالمنادِي لمريم) نهاها عن أن تحزن لِمَا قد وقع، ونهاها عن أنْ تخاف ما تتوهم أنْ يقع، فالله سبحانه لطيف بها وبولدها، وها هو سبحانه قد سَخَّر لها قِوَامَ الحياة من ماءٍ وطعام {قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً} أي: جدولاً وهو النَّهر الصغير، كما فسَّر ذلك النبي ﷺ فيما رواه [الطبراني في الصغير ١/ ٢٤٤]: وكان النهر يسري ويجري ويتدَّفق فيه ماؤه عذبا زُلالاً، أجرى الله سبحانه ذلك النهر بالقُرب من (مريم) كرامةً لها وإرهاصاً (لعيسى) وتعظيماً لشأنهما عليهما السلام.

قال تعالى على (لسان عيسى): {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً}، [مريم ٢٥]، وهنا أمر المنادِي(مريم) أن تهُزَّ جذع النخلة أي تُحرِّكه وتُميله إلى جهتها تُساقط عليها رُطبا جَنِياً أي تَمْراً مستوياً ناضجاً طيباً صالحاً للاجتناء والأكل.

(تُساقِط) بمعنى: أسقطت إسقاطاً متواتراً، والضمير المؤنث يعود للنخلة.

وفي (تساقط) تسع قراءات كما قال (صاحب الكشاف) والفعل هو مضارع مجزوم في جواب الطلب وهو الأمر (هزي) والتقدير (إنْ تهزي جذع النخلة تساقط عليك) [زاد المسير ٨٨٢]

وهذه نعمة أخرى ونفحة كبرى (لمريم) عليها السلام أنْ يأتيها رزقها من الرُّطب الجَنِّى وهي في مكانها، وذلك بقدرة الله تعالى ولُطفه ورحمته، مع أن النخلة كانت يابسة، والوقت شتاءً بارداً، فاخضرَّت النخلة وأثمرت.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى هزُّ جِذْع النخلة لِتُسْقِطَ مِنْ رُطبِها شيءٌ صعب جداً على الرِّجال، فكيف (بمريم) وهي امرأة ضعيفة ومُتعبة ومتألمة، وفي حالة مخاض وولادة حاضرة، ولكنه تقدير اللطيف الرحيم، والذي يريد من الإنسان أنْ يأخذ بالأسباب مع الاعتماد على المُسبِّب سبحانه، فهو رَبُّ الأسباب، فأمر الله تعالى بالهزِّ إشارة إلى أنَّ الرزق وإنْ كان قَدَراً محتوماً، لكنَّ السعي في طلبه مطلوب، وهذا لا يُنافي التوكُّل على الله وقد أَحْسَن مَن قال:

توكَّلْ عــلى الرَّحمــن في الأمْرِ كُلِّه ... ولا ترغَبنْ بُالعَجْزِ يوماً عَنِ الطَّلَب
أَلَــمْ تَــرَ أنَّ الله قـــالَ لِمَرْيَـــمَ ... وهُزِّي إليْكِ الجِـذْعَ يَسْـقُطُ الرُّطب
ولَوْ شَاء أحْنَى الجِـذْعَ مِنْ غَيْر هَزِّهِ ... إليْـهـا، ولـكِـنْ كُلُّ رِزْقٍ لَهُ سَبَـب

قال تعالى على (لسان عيسى): {**فكلي واشربي**} أي: يا أُمَّاه هذا رِزق الله قد جُعِلَ تحتك، نهراً سَرِيًّا، والنخلةُ تُسَاقط عليكِ رُطباً جَنِياً، فكُلي مِن هذا الرُّطب، واشربي من ذلك الماء،

هذا ويلاحظ أيها الإخوة أنه في الرزق ذُكِر (الماء) أوَّلا ثُمَّ ذُكر (الطعام)، بينما في الأمر بالانتفاع بهما قُدِّم (الأكل على الشَراب)،

والسِّرُّ في ذلك – والعلم عند الله – أنَّ حاجة الإنسان إلى الماء أشدُّ من حاجته إلى الطعام، إذ هو يستطيع أن يصبر على الجوع مدة أطول من صبره على العطش. أمَّا في الانتفاع فالعادة أن يأكُل الإنسان ثم يشرب، كيف وهذا الإنسان هو امرأة والدة لتوِّها؟ واحتياج النُّفساء إلى أكل

الرُّطَب أشدُّ من احتياجها لشُرب الماء، وذلك لكثرة ما سال منها من الدماء، كما جاء في [تفسير الرازي ٢١/ ١٧٦].

وفي [روح المعاني ١٦/ ١٢٤] عن (الباقر) ﷺ: لم تَسْتَشْفِ النُّفَساء بمثل الرُّطَب، إنَّ الله أطعمه (مريم) في نفاسها.

وقال (الربيع): ولو علم الله شيئاً أفضل للنُّفساء لأطعمه (مريم).

وجاء في [تفسير القرطبي ١١/ ٩٦]: وقالوا ما للنُّفساء خيرٌ من الرُّطب، ولا للمريض خيرٌ من العسل، وقيل المرأة إذا عَسُر وِلادُها لم يكن لها خيرٌ من الرطب.

وهكذا أعطى الله الكريم (لمريم) قِوام (الحياة المادية) وغِذاء البدن، من طعام وشراب بالإضافة إلى الهواء الموجود في كل الوجود ولكلِّ كائن حي. وبقيت (لمريم) (الناحية المعنوية) وهي أمانُ النفس وقرار العين، فقد كانت عليها السلام حزينة وخائفة وتمنَّت الموت من صعوبة الحال، لهذا قال الله تعالى لها على (لسان وليدها): ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾ [مريم ٢٦]:

"قَرِّي" بفتح القاف، وقُرىء بكسرها "وقِرِّي" وهي (لغة نجد).

والفعل من القِرِّ وهو البَرْد يقتضي السُّكون، أو هو مِن القرار وهو الثَّبات،

وإذا صادفت العين منظراً جميلاً سكنَتْ وثبتَتْ، وظلَّت ناظرة إليه.

هذا و﴿عيناً﴾ نُصِب على التمييز كقولك: طِبْتَ نَفْساً.
[القرطبي ١١/ ٩٦].

والمعنى: يا أُمَّاه طِيبي نَفْساً، واطْمئني قلباً، وارفضي عنك ما أحزنك وأهمَّك، واهدئي وارتاحي ونامي، وانْعِمِي النَّظر فيما مـنَّ الله بـه عليـك من الاصطفاء والتطهير الزكي، وهِبة الولد الرضي النَّبِـيّ، ومـن الـرزق الوافر، والمكانة الرفيعة، والسعادة الكاملة، والسرور التام.

ولا تخافي يا أماه مما تتوقعينه من الناس، فالله سبحانه وتعالى قدير على أنْ يُنزِّه ساحتك، ويُبْعِد عنك تخرُّصات المُبْطلين، ويُرْشِدهم إلى الوقوف على سريرة أَمْرِك، حتى يُثْبِتُوا لكِ القداسة والطُّهْر و{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج ٣٨]، ولهذا أقول لك: {فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً} [مريم ٢٦].

نَعم نَعم! هكذا وجَّهها الله تعالى على لـسان وليـدها (يـا مـريم) إذا رأيت أحداً من الناس كائناً من كان، وسألك عن شـأنك وشـأن وَلـدِك فقولي له بالإشارة: إنَّني نذرتُ للرحمن الرحيم الـصيام، وأوجبْـتُ عـلى نفسي الإمساك عن الكلام، فلن أكلِّـم اليـوم آدميـاً، وإنـما أكلـم الملَـك وأناجي ربي.

قال (الفرَّاء): والعرَب تُسمِّي كُلَّ ما وصل الإنسانَ أي: أَفْهَمَه المراد تُسمِّيه كلاماً بأي طريق وصل، مـا لم يؤكَّـد بالمـصدر مثـل: {وَكَلَّـمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً} [النساء ١٦٤] فهذا كلام حقيقة، والدلالة بالإشارة مـن أقوى الدلالات وأَعمِّها.

هذا وقد مُنِعـت (الـسيدة مـريم) عـن الكـلام مـع النـاس ليكـون (وليدها عيسى) هو المتكلِّم عنها، فيكون أقوى لِحُجَّتها في إزالـة التهمـة

عنها، ويكون أقوى في الطعن في أقاويل الناس، ولأنَّ كلامه لا يقبل الدفع والرد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن بعض الناس سيتكلمون معها بسفاهة وجهل، والسُّكوت عن السفيه واجب وفيه صيانة للعِرْض، والإعراضُ عن السُّفهاء من شِيَم الكِرام العقلاء، وما كُفَّ سفيهٌ بمثل الإعراض، ولا أُطلق عِنَانُه بمثل العراض، ورحم الله (الإمام الشافعي) الذي يقول [في ديوانه ص ٤٩]:

إذا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلا تُجِبْهُ ... فخَيْرٌ مِن إجَابتِهِ السُّكُوتُ
سَكَتُّ عَنِ السَّفيهِ فظنَّ أنيِّ ... عَيِيتُ عَنِ الجَواب ومَا عَيِيتُ

والله سبحانه وتعالى يريد أن يُنزِّه (السيدة مريم) عن مجادلة السفهاء، فأوجب عليها الصمت، فكان صومها يوم ذاك صوماً عن الكلام، كما كان (صوم زكريا) عليه السلام من قَبْلُ عن الكلام، والمعجزات للاثنين كانت قريبة من بعضها البعض.

قال (السُّدِّي) : كانت سُنَّةُ الصيام عندهم الإمساك عن الأكل وعن الكلام، وقال [القرطبي في التفسير ١١/ ٩٨]: وسُنَّتُنا نحن المسلين في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح لقوله عليه الصلاة والسلام: **(إذا كان أحدكم صائماً فلا يَرْفُثْ ولا يَجْهَل، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليَقُلْ إنيِّ صائم).**

ولقوله ﷺ : **(من لم يَدعْ قَوْل الزُّور والعمل به فليس لله حاجةٌ في أنْ يدع طعامه وشرابه).**

فالصيام عن الكلام عامة كان جائزاً في شرع مَن قبلنا، وهو منسوخ في شرعنا وقد نهى عنه رسول الله ﷺ لما فيه من التضييق وتعذيب النفس. [كتاب الأحكام للجصاص].

هذا و(إمَّا) في قوله تعالى: {فإما ترِينَّ}و أصلها (إنْ) الشرطية الجازمة أُدغمت في (ما) الزائدة المؤكِّدة للشرط والموطِّئة لدخول نون التوكيد كما يوطِّيء لدخولها لام القسم.

و{ترين} فعل مضارع وهو فعل الشرط، خوطبت به المرأة ودخلتْ عليه نون التوكيد الثقيلة، لكنها لم تتصل بالفعل مباشرة إذ يوجد فاصل مقدَّر بينهما، وهو ياء المخاطبة التي حذفت لالتقاء الساكنين، وعلامة جزم الفعل ترين هي حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة.

و{من البشر} في محل نصب حال من المفعول به (أحداً) المتأخِّر عن الحال.

(والفاء) في {فقولي} واقعة رابطة في جواب الشرط وجوباً، لكونه جملة طلبية، إذ (قولي) فعل أمر اتَّصلتْ به ياء المخاطبة وهو وأفعال الأمر التي قبله في الآية: (هزي، كلي، اشربي، قري) كُلُّها مبنيِّة على حذْف النون، لأن الأمر يُبْنى على ما يجزم به مضارعه، وياء المخاطبة في الأفعال ضمير متصل في محل رفع فاعل.

وجملة {إني نذرت} في محل نصب مقول (قولي).

وكلمة {إنسياً} معناها: واحد من الإنس وهم خلاف الجِن، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات ٥٦]. وجَمْع الإنس أناسِي، قال (الكسائي): الأناسي والناس لغتان بمعنى واحد.

و(الإنسان) من الناس اسمُ جِنْس يقع على الذِّكَر والأنثى والواحد والجمع.

قال (البصريون): الإنسان مُشتَقٌّ من الأُنس بكل ما يألفه، فالهمزة فيه أصل فوزنه فُعلان.

وقال (الكوفيون): الإنسان مشتق من النسيان، لأنه عُهد إليه فنسي، فأصله إنسان فالهمزة عندهم زائدة ووزن إنسان إفعان على النقص.

وفي القرآن الكريم ورد لفظ (الإنسان) (خمساً وستين مرة)، ولفظ (الإنس) (ثماني عشرة مرة)، و(أناس) (خمس مرات)، وأما (أناسي) فجاءت (مرة واحدة) وذلك في [الفرقان ٤٩]: **{لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً}**، وكذلك لفظ (إنسي) جاء (مرة واحدة) وذلك في هذه الآية التي في سورة [مريم ٢٦]: **{فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً}**.

وما أن سمعت (السيدة مريم) نداء وليدها عليهما السلام: {فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا} [مريم ٢٦].

وشاهدتْ عليها السلام من آيات ربِّها وكراماته عِدَّة أشياء، حتى هدأت نفسها، واطمأنَّ فؤادها، وتبدَّل خوفها أمناً، وحزنها سروراً، وضعفها قوة، وزادت ثقتها في تأييد الله لها، وأنه سبحانه سيُبيِّن عذرها، لهذا استجمعتْ قُوَّتها، وفَرغتْ مِن تَبِعات نِفَاسها، وهيَّأتْ نَفْسها ووليدها للرحيل إلى أهلها وقومها.

قال تعالى في [سورة مريم ٢٧ -٢٨] : {فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً} .

نَعم نعم! لقد رحلت (السيدة العذراء) عليها السلام من (المكان القصي) الذي انتبذت فيه، وقصدت (أهلها وقومها) وهي تحمل (ابنها المسيح) عليه السلام على صدرها، يحدوها الأمل ويقودها الإيمان مسلِّمة إلى الله أمرها مستسلمة لقضائه، ولم تتوارَ عن عيون القوم، ولم تهرب بولدها إلى مكان بعيد، بل ذهبت إليهم بنفسها ومعها وليدها، لم تخش أحداً إلا الله، لأن الله تعالى طمأنها أنه معها بنصره وبتأييده ومعونته وبدفاعه عنها، ولأنها هي تعلم براءة نفسها وطهارتها، ولأن الحجة والبرهان معها، وهذا هو الطفل الذي ينطق في المهد، فيكشف عن الخارقة التي جاءت به إليها، فيشهد شهادة صادقة على صِدْقها وبراءتها وبسلامة موقفها.

هذا (والفاء) في: (فأتت) تفيد التعقيب والسرعة، (والباء) في (به) للمصاحبة أي: جاءتهم مع ولدها، وجملة (تحمله) في محل نصب حال من (ضمير مريم) في (أتت) أو من ضمير (ولدها) في: (به).

وروي عن (ابن عباس) رضي الله عنهما: أنَّها انتبذت قومها عند (شروق الشمس) وأتت إليهم عند (الظهر) ومعها صَبِيٌّ تحمله [القرطبي ١١/ ٩٩].

وعنه رضي الله عنه في رواية (أبي صالح): أتتهم بعد (أربعين يوماً) حين طهُرت من النفاس [روح المعاني ١٦/ ١٢٦].

هذا وفي قوله (تحمله) نَفْي لما يتوهمه السامع من أن (مريم) أتت بولدها وهو ماشٍ على قدميه، فيكون سعيه في صغرِه آية كنُطْقه في مَهْده فقطع ذلك التوهم بقوله: (تحمله) وأثبت أنه أتي به محمولاً،

قال [الإمام ابن الجوزي في زاد المسير ٨٨٣] : وهذا مِثْل قول العرب: (نظرت إلى فلان بعيني) فنفوا بذلك العطف والرحمة وأثبتوا أنه نظرُ عَيْن.

وروي أن (زكريا) عليه السلام افتقد (مريم) فلم يجدها في (محرابها) فاغتمَّ غماً شديداً، فلما رجعت إلى أهلها، وهُمْ أهل بيتٍ صالحون (وزكريا) جالس معهم، حزنوا وبكوا،

قال [الإمام القرطبي ١١/ ٩٩] ولما أتت (مريم بولدها) تسَامع بذلك (بنو إسرائيل)، فاجتمع رجالهم ونساؤهم، وكانت (مريم) تعرف سلفاً أن في قومها أناساً يقابلون الآيات بالإنكار والجحود، ويتلقون الإنعامات بعين الحسود، لذلك فلما رأوها وهُمْ يعلمون أنها غير متزوجة، قالوا مندهشين مُنْكِرين دون تفكُّر أو تمهُّل: (**يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً**)، وقُرِيء "فِرْيا"، والمعنى والله لقد فعلت (يا مريم) شيئاً من الإثم عظيماً عجيباً فظيعاً منكراً شنيعاً مُخْتلقاً بديعاً نادراً لم يحدث مثله من قبلُ، وهو من الفِرْية أي الكذب المتعمد، والولد من الزِّنا كالشيء المفترَى.

قال تعالى: {**وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ**} [الممتحنة ١٢].

هذا (والفَرْي) العظيم من الأمر يستعمل في الشر كما سبق، وفي الخير كقول النبي ﷺ في (عمر الفاروق) رضي الله عنه [البخاري ٧/ ٣٦ ومسلم ٤/ ١٨٦٢]: {ما رأيت عبقرياً يفري فريَ عمر} ومعناه لم أر سيداً عظيماً يعمل عمله العظيم ويقطع قطْعه العجيب.

وبعد أن اتَّهم القوم (مريم) وافْترَوْا عليها، قالوا لها ساخرين بها ومتهكِّمين مبالغين في التقريع والتأنيب، مُذكِّرينها بشرف أُسرتها وكَرم أصْلها: {يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً} [مريم:٢٨] وقولهم هذا من (التعريض) الذي يقوم مقام التصريح، وكلماتهم هذه (ترمي مريم البتول) بالبِغاء، كَبُرَت كلمةً تخرج من أفواههم، وهم بدون تحقيق ولا تثبُّت يُعيِّرونها، إذ معنى كلامهم: (يا مريم) كيف تفعلين هذه الفعلة القبيحة وأنتِ العابدة القانتة سليلة الطهر والعفاف وربيبة التُّقَى والصلاح؟ (فأبوكِ عِمران) كان مستقيماً ولم يكن امرأ سوء أي رجل فاحشة، وما كانت (أُمُّك حنة) بَغِيَّة أي: امرأةً زانية، ومن كان حال أبويه هذه الحالة يكون صدور الذَّنْب منه أفحش [تفسير الرازي ٢١/ ١٧٧].

وفي [روح المعاني ١٦/ ١٢٨]: وفي هذا تنبيهٌ إلى أنَّ ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفْحش، وفيه دليل على أن الفروع غالباً تكون زاكيةً إذا زكَتْ أصولها، ويُنْكَرُ على الفروع إذا جاءت ضِدَّ ذلك.

قال [ابن كثير في التفسير ٣/ ١١٨]: والمعنى: فأنت (يا مريم) من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة فكيف صدَر هذا منك؟ ومن أين لك هذا الولد من غير زوج؟!

هذا وفي المراد بـ (هارون) في قولهم: (يا أخت هارون) للمفسرين عدة تأويلات: [زاد المسير ٨٨٤] وأرجحها قولان - والعلم عند الله -

الأول : أن المراد به (هارون أخو موسى) عليهما السلام وهو النبي الذي تولى الهيكل هو وذُرِّيَتُه مِن بعده، وكانت (مريم) من ذريته وقد وهبتْها أمُّها للهيكل، فهي تُنتسَب (لهارون) من أجْل عبادتها وانقطاعها لخدمة (بيت المقدس)، وإنما قيل (أخت هارون) كما يقال: (أخا همدان) أي: واحداً منهم وكما يقال للتميمي (يا أخا تميم).

والقول الثاني: أن (هارون) كان رَجُلاً صالحاً في (بني إسرائيل) فشبَّهوا (مريم) به في كثرة العبادة وشدَّة الصلاح.

وفي اللغة يجوز إطلاق الأخ على النظير والشبيه والمُعِين، من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا**﴾ [الزخرف ٤٨].

ومنه قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ**﴾[الإسراء ٢٧].

ويؤيد هذا القول ما ورد في [صحيح مسلم] وفي غيره عن (المغيرة بن شعبة) ﵁ قال: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى (نجران) سألوني فقالوا: إنكم تقرؤون في (القرآن) (يا أخت هارون وموسى قبل عيسى) بكذا وكذا أي: دهراً طويلاً فلم أَدْرِ ما أجيبهم، فلما رجعتُ إلى رسول الله ﷺ ذكرت له ذلك فقال: (**ألا أخبرْتَهم أنهم كانوا يُسَمُّون بالأنبياء والصالحين قبلهم**).

قال تعالى: ﴿فأشارت إليه) أي: فلما كَثُر اعتراض القوم على (مريم)، وكثر الاستنكار منهم لها، وسَمُج منهم السؤال، وضاق عليها الحال،

وامتنع عنها المقال، اشتدَّ توكُّلها على الله ذي الجلال، فأشارت إلى (وليدها عيسى) إشارة دالَّة على أنها تحيل إليه الكلام والجواب، رامزةً إلى القوم أنها صائمة عن الكلام مع الناس هذا اليوم، كما جاءها النداء مِن قبلُ، وكأنها تقول لهم: كلِّموا هذا الوليد يكلِّمكم، واسألوه يُجِبْكم، وفي هذا دليل على أنها عليها السلام عرفت أنه سيتكلم، فقد سبق أنه كلَّمها عند (جِذع النخلة)، بل أخبرها الملك من قبْلِ أنْ تحمِل به أنه سيكلِّم الناس في (المهد).

فلما أشارت إليه تعجَّب القوم منها، وقالوا منكرين عليها كلام مَن ليس مِن شأنه الكلام، وكأنهم يقولون: فعلتِ وتسخرين منّا إذ قالوا: (**كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً**)، أي: كيف نحدِّث صغيراً في (المهد)؟ ولم نعهد فيما سَلف صبياً رضيعاً يكلِّمه عاقل، إذ لا قدرة له على فهم الخطاب وردِّ الجواب؟! فَهُم لم يستبعدوا أنْ يتكلم الرضيع فقط، ولكنهم أنكروا الحديث معه، وكأنهم يقولون: هل نحن مجانين حتى نكلم طفلاً رضيعاً؟ هذا وكان في قولهم: (من كان في المهد صبياً) هي إما زائدة، والمعنى كيف نكلم صبياً في المهد؟ أو هي بمعنى: من يكون ويوجد في المهد صبياً.

(والمهد) : هو المكان الذي يُمَهَّد لنوم الطفل، وجَمْعُه: مُهُود، والمراد هنا حِجْر أمه.

(والصبيُّ) هو الصغير دون الغلام، أو هو من لم يُفْطَم بعد، وجمعه للقلة: (صِبْيَة) بكسر الصاد، وللكثرة (صِبيان)، ومؤنَّثه (صَبِيَّة) بفتح الصاد وجمعها (صبايا).

(والصِّبا) بالكسر الصِّغَر والحداثة، و(الصَّباء) بالفتح والمد لغة فيه، يقال كان ذلك في صباه وفي صبائه.

ويقال صبا فلان يصبو صَبْواً وصَبْوة أي: مال إلى اللهو وفعل فعل الصبيان، ويقال صبا إليه بمعنى حنَّ وتشوَّق، وفي التنزيل العزيز: {إِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ} [يوسف ٣٣].

ويقال أصْبَتِ الفتاة فلاناً أي: استمالته، وأصباها هو، وتَصابَا: تكلَّف الصبا.

أمَّا (الصَّبا) بفتح الصاد فهي الريح من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار فيكون نسيماً بارداً.

وفي القرآن الكريم ورَد لفظ (صبيٌّ) (مرتين) فقط وهُمَا في [سورة مريم ١٢ – ٢٩)

الأولي : في (يحيى بن زكريا) عليهما السلام: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً}، والأخرى في (عيسى ابن مريم) عليهما السلام: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً}.

هذا ولما أسكتَتْ (مريم) بأمْر الله لسانها الناطق، أَنطَق الله لها اللسان الساكت، لسان (وليدها عيسى) وقد كان يَرْضع منها، فترك الرَّضاع وأقبل على القوم بوجهه، ونطق بما لقَّنه الله تعالى، كما نصَّت آيات [سورة مريم ٣٠ – ٣٣].

{قَالَ إِنِّي عَبْدُ الله آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً}.

نَعم نعم!! هكذا نطق (المسيح عيسى ابن مريم) وهو في (المهد)، وذلك بقدرة الله الواحد الأحد، وتكلَّم عليه السلام، ولكنه لم يجادل القوم في التهمة التي رموا بها أمه الطاهرة، إنما وصف نفسه بثمان صفات، فكان كلامه آية على براءتها، وهذه الصفات هي:

الصفة الأولى قوله: {إِنِّي عَبْدُ اللهِ} .. فهذا أول شيء قاله (عيسى) عليه السلام، وهو اعتراف بعبوديته لله تعالى الذي له صفات الكمال، وفي هذا ردٌّ على (النصارى) الذين زعموا أنه إله، أو أنه ابن الله، أو أنه شريك لله، تعالى الله عمّا يقولون عُلُوّاً كبيراً.

هذا وفي [التفسير الكبير ٢١/ ١٧٩]: وقد قدَّم عليه السلام ذِكْر العبودية، لِيُبْطِل قول من ادَّعى فيه الرُّبوبية، وكأنه عليه السلام جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بالعبودية لله تعالى، لأن التكلُّم عن إزالة التهمة عن الله يفيد إزالة التهمة عن الأم، لأنَّ الله سبحانه لا يَخُصُّ البَغيَّ بولدٍ في هذه الدَّرَجة العالية.

وفي [روح المعاني ١٦/ ١٢٩]: والاعتراف بالعبودية لله تعالى هو أَوَّلُ مَقامات السَّالكين.. وفي جميع ما قاله (عيسى) تنبيهٌ على براءة أمه لدلالته على الاصطفاء.

الصفة الثانية قوله: {آتَانِيَ الْكِتَابَ}. (آتى) فعل ماضٍ معناه: أعطى، والنون للوقاية، وياء المتكلِّم مفعول أول، والكتاب مفعول ثان، والفاعل ضمير مستتر جوازاً يعود على الله سبحانه وتعالى.

والمعنى: حَكَم الله لي في الأزل بإعطائي الكتاب أي: سيؤتيني الكتاب، وهو (الإنجيل) على الأرجح.. وفي [آل عمران ٤٨] جاء قوله

تعالى على لسان ملائكته يُبشِّرون (السيدة مريم بعيسى) عليهما السلام وما سيهبه الله له: {وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ}.

ومعنى ذلك: أن هذا الوليد أَهْلٌ لأنْ يتحمَّل أمانة السماء والأرض.

الصفة الثالثة قوله: {وَجَعَلَنِي نَبِيّاً}..

قال (الحسن): إنَّ عيسى عليه السلام كان في (المهد) نبياً وكلامه معجزة [النسفي ٢/ ٣٣٤].

وقيل: بل المعنى أنَّ ذلك سَبق في قضاء الله، أي: وسيجعلني نبياً إذا بلغْتُ، فجعل الآتي لا محالة كأنه وُجِد، وحَلَّ الماضي محل المستقبل. وفي هذا براءة لأمه عليها السلام لأنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يعطي النُّبوة مَن هو كما زَعم المُفترون، ولا يمكن أنْ يكون أحد نبياً وفيه أيُّ مطعن.

الصفة الرابعة قوله: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ}. (كان) هنا تامة، و(التاء) فاعلها.

وروى (أبو هريرة) رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية، قال: {جعلني نفَّاعاً للناس حيثما توجَّهت}، وقال (مجاهد): مُعلِّماً للخير، وقيل: جعلني ثابتاً في الدِّين، صاحب عزْم ويقين في أيِّ مكان وزمان.

فالبَرَكة جعلها الله فيه في تعليم الخير، والدعوة إلى الله، وفي النَّهيْ عن الشَّر، فكلُّ مَن جالسه أو اجتمع به نالته البَركة.

الصفة الخامسة قوله: {وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا}..

قال [الشيخ عبدالرحمن السعدي في تفسيره ٥٣٠]: أي: أوصاني ربي بالقيام بحقوقه التي مِن أعظمها الصلاة، وبحقوق عباده التي مِن أجلِّها الزكاة مدة حياتي، وفيه دليل على أنَّ (عيسى) عليه السلام له حياة محدودة ذات أمد!!

هذا وفي الصلاة تطهير النفوس مِن الرذائل، وفي الزكاة تطهير للأموال، والمراد أنَّ الله سبحانه شَرَع له هذه العبادات والشرائع.

وفي [حدائق الروح والريحان ١٧/ ١٣٦]: والظاهر أنَّ إيصاءه بزكاة المال لا يستلزم غِنَاه ﷺ، بل هي بالنسبة إلى أغنياء أُمَّته، فعموم الخطابات الإلهية منسوبة إلى الأنبياء تهييجاً للأمة على الائتمار والانتهاء.

الصفة السادسة قوله: {**وبرا بوالدتي**} أي: وجعلني الله باراً بأمِّي رفيقاً بها، مطيعاً لها، مُحسِناً إليها غاية الإحسان، ولا يمكن أنْ أكون عاقّاً بها.

وفي [زاد المسير ٨٨٥]: قال (ابن عباس) رضي الله عنهما: لـمَّا قال (عيسى): (وبراً بوالدتي)، ولم يَقُل: (بوالدِي) عَلِم القوم أنه وُلد مِن غير والد.

وفي قوله ﷺ إشارة إلى نَفْي الرِّيبة عنها، وفيه شهادة على شرف هذه الوالدة وفَضْلها وطُهرها، إذ لو لم تكن كذلك لما أُمِر الرسول المعصوم بتعظيمها.

الصفة السابعة قوله: {**ولم يجعلني جباراً شقياً**} أي: ولم يجعلني ربي متكبِّراً على الحقِّ والخَلْق، ولا عاصياً لأمر الرَّب، فهو سبحانه لم يَقْضِ عليَّ بذلك في عِلْمه الأزليّ. فأنا لستُ بفظٍّ ولا غليظ، ولا يصدر مني قول ولا فِعل ينافي أمر الله وطاعته، وإني متواضع رحيم، عطوف كريم قلبي ليِّن وأنا صغيرٌ في نَفْسي.

وقال بعض العلماء: لا تجِدُ العاقَّ إلا جبَّاراً شقيّاً، ولا تجد سيِّء المَلكة إلا مختالاً فخوراً.

وبهذه الصفات السبع التي حلَّى بها الله تعالى (عبده ورسوله عيسى ابن مريم) استحقَّ عليه السلام السعادة والسلام في الدنيا والآخرة، وهذه هي:

الصفة الثامنة والأخيرة في قوله: ﴿**وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً**﴾ والمعنى: الأمان والطمأنينة مِن الله عليَّ والسلامة في النِّعم، والحفظ مِن الآفات، ومِن هَمْز الشيطان وضره (يوم ولدت) في هذه الدنيا.

(ويوم أموت): الموتُ يقابل الميلاد، فسلامٌ علىَّ مِن القتل ومِن الصَّلب ومِن شدائد الموت ومِن ضَغْطة القبر.

(ويوم أبعث حياً) مِن قبري يعني في الآخرة، فأمانٌ عليَّ مِن الله تعالى مِن أهوال القيامة ومِن عذاب النار.

هذا وإنما خصَّ هذه (المواطن الثلاثة) لكَوْنها أَخْوف مِن غيرها، وهي نَفْس المواطن التي وُجِّه فيها سلامُ الله تعالى إلى (يحيى بن زكريا) عليهما السلام مِن قَبْلُ.

هذا وروي عن (عيسى) عليه السلام أنه قال (ليحيى) عليه السلام: أنتَ خيرٌ منِّي سلَّم الله عليك، وسلَّمتُ أنا على نفسي.

وأجاب (الحسن) رحمه الله فقال: إنَّ (تسليم عيسى) على نفسه بتسليم الله عليه (وعيسى) يتعلَّم مِن رَبِّه تبارك وتعالى [تفسير الرازي ٢١/ ١٧٤].

هذا وفي [الكشاف ٣/ ١٦]: تعريف السلام في (كلام عيسى) أي: بأل (والسلامُ): تعريضٌ باللَّعنة على (أعداء مريم وابنها) من (اليهود). فبقوله (والسلام عليّ) كأنه قال: وكُلُّ السلام عليَّ وعلى أتباعي، فلم يَبْق للأعداء إلا ضدُّ السلام وهو اللعن.

هذا وفي (مرور عيسى ابن مريم) بهذه الأطوار (ولادة، موت، بعث)، و تقلُّبه في هذه الأدوار دليل على حدوثه وبشَريَّته، إذ الإله لا يتغيرَّ ولا يتحوَّل، والإله لا يفتقر لشيء، ولا يحتاج إلى شيء، ولا يموت.

هذا وفي [تفسير القرطبي ١١/ ١٠٥]: وبعد أنْ (تكلَّم عيسى) بهذا الكلام أَمام القوم انقطع كلامه في (المهد) حتى بلغ مبلغ الغلمان.

وقال تعالى تعقيباً على ما قاله (عيسى) ووصف به نفسه والله أصدق القائلين:

{ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ للهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ . وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [مريم ٣٤-٣٧].

(فاليهود) كذَّبوه واتهموا أُمَّه بما هي بريئة منه رغم ثبوت براءتها، (والنصارى) غالَوْا فيه حتى أوصلوه إلى مرتبة الألوهية،

والحقيقة إنَّ (عيسى ابن مريم) بشرٌ رسول ولم يبق بعد شهادة الله تعالى مجال للأوهام والأكاذيب. وصلى الله على (سيدنا محمد) وعلى (سيدنا عيسى) وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، والحمد لله رب العالمين.

***

الفصل العاشر :

معجزات عيسى ابن مريم

المعجزاتُ مفردها معجزة، ومشتقة من مادة ع ج ز، وفي اللغة (المقاييس ٢/ ٢٢١، المصباح ٣٩٣، اللسان ٥/ ٣٦٩، بصائر ذوي التمييز ١/ ٦٥): العين والجيم والزاي: أصلان صحيحان يدل أحدهما على الضعف، والثاني على مؤخر الشيء.

فمن الأول يقال: عَجَز عن الشيء يَعْجِز عجزاً من (باب ضرب) أي ضَعُف عنه فهو عاجز، (فالعَجْز) بفتح العين وسكون الجيم هو: الضعف وزوال القدرة على الإتيان بالشيء من عمل أو رأي أو تدبير.

ويقال عجَّزتُ فلاناً تعجيزاً أي جعلتُه عاجزاً، ويقال: أعجزني فلانٌ إذا عجزت عن طلبه وإدراكه. فالإعجاز هو الفوت والسبق، ولن يُعْجِز الله تعالى شيء في الأرض ولا في السماء، وفي التنزيل العزيز في [سورة سبأ ٣٨]: { وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} معناه: ظانين أنهم يُعجزون الله.

ومن هذا المعنى (العَجُوز) وهي المرأة الشيخة الهرمة، وجمعها: عجائز.

و(العجوز) أيضاً : الرجل الشيخ الهرم، وجمعه: عُجْز .

ومن الأصل الثاني: (العَجُز) بضم الجيم وهو مِن كلِّ شيء مؤَخَّره، وهو الشطر الأخير من بيت الشعر، والعَجُز أيضاً من الرجُل والمرأة هو ما بين الوركين والجمع: أعجاز وأعجاز النخل: أصولها.

(والعَجَز) بفتحتين هو داءٌ يأخذ الدَّابة في عَجُزها، (والعجيزة) هي عَجُز المرأة خاصة وذلك إذا كانت ضخمة، ولا يقال ذلك للرجل إلا على التشبيه.

(والعُجْزَة) هو آخر ولدٍ للرجل، للمذكر والمؤنث والجمع، والعرب تقول لامرأة الرجل وإن كانت شابَّة: هي (عجوزه)، وتقول لزوجها وإن كان شاباً: هو (شيخها).

هذا والذي يظهر من العَجْز على الخلق (ثلاث درجات) هي: المَخْرَقة، والكَرامَة، والمُعْجِزة.

(فالمخرقة). هي عملٌ غريب خارق للعادة العامة، مبنيٌّ على الحيلة والتمويه والآلات ولكن لا حقيقة لها ولا معنى، وهي متداولة بين الناس في جميع الأزمان، وقد لا يعجز عنها الأذكياء والحُذّاق، ومن ذلك (عصيُّ سحرة فرعون)، ومنها الأفعال البهلوانية.

(والكرامة).. هي ما يُجريه الله من خوارق على يد صالح وليٍّ، وربما يكون كتمانها واجباً عليه، فإنْ أراد إشاعتها زالت وبطلتْ، وإذا صَدرتْ مِن غير صالح فهي استدراج مِن الله له مِن حيث لا يَعْلَم.

(وأما المعجزة) .. فهي خارقة للعادة، خارجة عن العرف، مقرونة بالتحدِّي، وهي مختصَّة بزمان النُّبُوَّة وتحصل بالدعاء، يُجريها الله تعالى على يد نبي تأييداً له، مع انتفاء المُعَارض، فمعناه: صدِّقوا يا عبادي رسولي هذا فيما يُبلِّغ عنِّي، والخواصُّ والعوامُّ يعجزون عن الإتيان بالمعجزة ولا يمكن نقضُها، ولا يكون تحصيلها بالكسب والجهد بل هي إنعام من الله تعالى لأنبيائه ورُسُله.

وجملة المعجزات راجعة إلى (ثلاثة معان) هي:

(إيجاد معدوم).. كخروج الناقة من الصخرة (بدعاء صالح) عليه السلام.

(أو إعدام موجود).. كإبراء الأكمه والأبرص (بدعاء عيسى) عليه السلام.
(أو تحويل حال موجود).. (كقَلْب عصا موسى) عليه السلام إلى حَيَّة تسعى.

هذا وإنْ كانت المعجزة مقرونة بالتحدِّي فإنَّ مِن لوازم التحدي أنْ تكون المعجزة مِن جِنس ما نبَغ به قوم النبيِّ صاحب المعجزة.

فمثلاً الناس في (زمن موسى) عليه السلام كان الغالب عليهم السِّحر وتعظيم السحرة، فجاءهم الله تعالى على (يد موسى) بمعجزة تُشْبه السِّحر وليستْ سحراً وهي (العصا واليد) فبهرت الأبصار وحيَّرتْ كل سحار.

(وقوم عيسى) عليه السلام كانوا مشهورين بالطِّب وعلم الطبيعة، فكانت (معجزة عيسى) (إبراء الأكمه والأبرص) وتسامت وارتقت فكان (يُحْيِي الموتى).

وكذلك (سيدنا محمد) صلى الله عليه وسلم المبعوث في زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء، فكانت أعظم معجزاته هي (القرآن الكريم) الذي أنزله الله تعالى على قلبه بلسان عربي مبين، عجز بلغاؤهم عن الإتيان ولو بسورة مِن مثله، بل {**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**}[الإسراء٨٨] وما ذاك إلا لأنَّ كلام الخلق لا يشبه كلام الخالق جَلَّ جلاله، وكما أنَّ الله تعالى بِحَقٍّ ليس كمثله شيء، فإن كلام الله بصِدْق ليس كمثله كلام.

هذا (والسيد المسيح عيسى ابن مريم) عليهما السلام قد جاء قومه (بني إسرائل) بعِدَّة معجزات وآيات.

الأولى: هي كلامه في (المهد) عندما أتت به أُمُّه قومها تحمله على صدرها فاتّهمها بعضهم (فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً) فتكلم (عيسى الطفل) ووصف نفسه بثماني صفات أُولاها (قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً..) الآيات.

وكان في قوله ردٌّ على مَن ادَّعى له الألوهية والربوبية، وفيه أيضاً براءة لأُمِّه الطاهرة.

ولكن (بني إسرائيل) قد طال عليهم الأمد، فقَسَتْ قلوبهم، وانحرف معظمهم عن الطريق الصحيح الذي أقامه لهم أنبياؤهم منذ (عهد موسى) عليه السلام إلى (ظهور عيسى) فيهم، فأخرجوا كتابهم المقدس (التوراة) عن روحها، وتهالكوا على المادة وتفرَّقوا أحزاباً، وما أنْ شاهد وسمع (الكهنة والأحبار) (معجزة عيسى الطفل) وكلامه في (المهد) حتى أحسُّوا بأنَّ سلطتهم الدينية في طريقها إلى الانهيار، لأنَّ (مجيء عيسى) رسولاً إليهم يعني إعادة الناس إلى عبادة الله وحده، وخضوعهم لله وحده، لهذا تكتم (رهبان اليهود) قصة (ميلاد عيسى) من غير أب، وحادثة كلامه في (المهد)، وعزموا على التخلُّص منه، فوشَوْا به إلا (هيرودوس) حاكم (فلسطين واليهود) آنذاك مِن قِبَل (الدولة الرومانية) مُدَّعِين أنَّ (عيسى) سيكون (ملك اليهود)،

فأمر الحاكم الروماني بقتل كل الأطفال الذكور المولودين في تلك الفترة ليتخلَّص من (عيسى) صغيراً قبل أنْ يكبر ويستفحل أمره.

فاختفت (السيدة مريم) ومعها (ابنها عيسى) عن الأنظار. قال (وَهْبُ بْنَ مُنَبِّه): ذهبتْ إلى (مصر) في تلك الفترة زاعماً أن (مصر) هي الربوة المعنية في قوله تعالى في سورة [المؤمنون ٥٠]: {وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ}، وقال (الحافظ ابن كثير) عن هذا القول: إنه بعيد جداً.

هذا ولَمَّا بلغ (عيسى) الثانيةَ عشرةَ من عُمُره كان قد مات (هيرودوس) الطاغية فظهرتْ (مريم وابنها عيسى) وسكَنوا في (قرية الناصرة) على (جبل الجليل بفلسطين) والتي سُمِّي (النصارى) نصارى نسبةً لها.

وكبر (عيسى) وشبَّ وأخذ يسوح في البلاد، ويزور (المعبد اليهودي في القدس) وينتقد كثيراً مما عليه القوم، وخاصة (تقديسهم يوم السبت) والذي قد أَمَر (موسى) عليه السلام مِن قَبْلُ بتخصيصه لعبادة الله، إذ القوم أفرطوا في حفظه بحَرْفِيَّة تامة وجامدة، وأسرفوا على أنفسهم إذ حرَّموا في (يوم السبت) أي عمل غير العبادة، حتى ولو كان واجباً إنسانياً أو مباحاً، مع وضعهم لأساليب من التحايل المكشوف لارتكاب ما حرَّموه على أنفسهم، كُلَّما تعارضت تعاليم الشريعة مع مصالحهم الخاصة.

هذا ولما ناهز (السيد المسيح) الثلاثين من عُمُره، كان النَّبِيَّان الكريمان (يحيى ووالده زكريا) قد قُتلا بيد (السلطة الحاكمة) فنزل الوحي على (عيسى ابن مريم) فأصبح عليه السلام (رسولاً إلى بني إسرائيل) وهو آخر أنبيائهم، فبدأت رحلته الشاقة في الدعوة إلى الله، وفي إصلاح

أحوال ومعاملات الكهنة والأحبار، وفي مساعدة الفقراء والمرضى والمحتاجين، وحاول جهده أنْ يبُثَّ الحُبَّ والتَّسامُح بين الناس وينزع الكراهية مِن قلوبهم، ويُخَلِّص الروح الإنساني من أثقال المادة، وعبادة الذهب، ومن المنكر والخديعة، وقد أيَّده الله تعالى بالآيات البينات، وزوَّده بالمعجزات الباهرات، والتي ذُكرت مُفصَّلة في سورتين:

الأولى سورة [آل عمران ٤٨، ٤٩] قال تعالى: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ . وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} .

السورة الثانية [المائدة ١١٠، ١١١] قال تعالى: {إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} .

المعجزات في [آل عمران] ذُكِرَتْ على (لسان عيسى) نفسه عند البشارة (لمريم)، وكما هو مُقدَّر في غيب الله فقد أنطقه الله في (المهد)

يخاطب بها قومه (بني إسرائيل) مُقرِّراً لهم أنَّ كل معجزة منها إنَّما هي من عند الله تعالى وبإذنه، وفي ذلك آية لهم إنْ كانوا مؤمنين.

وفي سورة [المائدة] ذُكِرَت (معجزات عيسى) امتناناً مِن الله تعالى عليه وعلى (أُمِّه مريم)، يُذكِّره الله نعمته عليهما، وذلك لِيُسْمِع الأُمَم ما خصَّه الله مِن الكرامة، وليؤكِّد حُجَّته سبحانه على الجاحد والكافر.

هذا وبتأمُّل المعجزات في السورتين نجدها على قسمين:

قسم يقنع أولي الألباب، وقسم آخر يقنع الماديين.

أما القسم الأول فيشمل: تأييد الله (لعيسى برُوح القُدُس) وتعليمه سبحانه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.

أما (روح القدس) فهو (جبريل) عليه السلام، مَلَك الوحي لأنبياء الله ورُسله، ولعلَّ المراد بتأييده به هو (ملازمة جبريل لعيسى) عليهما السلام منذ أنْ وُلِد إلى أنْ رُفِع إلى السماء، ويؤيِّد ذلك أنَّ (حياة عيسى وصفاته) كانت ملائكية، وأنَّ معجزته المادية جاءت متصلة بالروح كما سنرى.

وأما (الكتاب) فالمراد به - والعلم عند الله- إما كُتُب النبيين السابقين (كصحف إبراهيم وزبور داود) وغيرهما، وإما القدرة على الكتابة وجمال الخط باليد.

(والحكمة) هي: الفقه والعلوم الدينية، وسُنَن الأنبياء، والإصابة في القول والعمل، ووضْع الأمور في مواضعها.

(والتوراة) هي: الكتاب الذي نزَل على (موسى بن عمران) عليه السلام في (ست ليال خلون من شهر رمضان)، (والتوراة) هي: أساس الدين

الذي جاء به (موسى)، وفيها الشريعة المنظمة لحياة (المجتمع الإسرائيلي) والمتضمنة لقوانين التعامل والتنظيم، وقد حَكَم بها (موسى ومَن بعده) من أنبياء (بني إسرائيل) وأحبارهم على كثرتهم، قال تعالى في سورة [المائدة ٤٤]: **{إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللهِ}**.

(والتوراة عند اليهود) هي (أسفار موسى الخمسة) وعند (النصارى هي العهد القديم).

وروي أن (عيسى) عليه السلام كان يستظهر (التوراة)، ويقال (لم يحفظ التوراة كلَّها) عن ظَهْر قَلْب غير (موسى ويوشع وعُزَيْر وعيسى).

وأما (الإنجيل) فهو: الكتاب الذي أنزله الله على (عيسى ابن مريم) عليهما السلام، قال تعالى في سورة [المائدة ٤٦]: **{وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ}**.

(والإنجيل) كلمة يونانية معناها الإخبار بخير، أي: البشارة، وقد جاء (عيسى) مبشراً برسول مِن بَعْدِه اسمه (أحمد وهو نبينا محمد) ﷺ. وجمع الإنجيل: أناجيل، وعلى مرِّ الزمان تَرَك (النصارى الإنجيل) الذي أُنْزل على (عيسى)، وأضاعوه واستمسكوا بأناجيل أخرى عديدة ألَّف بعضها (تلاميذ المسيح)، وبعضها تلاميذ تلاميذه، كتبوا فيها (أحوال المسيح) وقصصه وأقواله ومواعظه ومعجزاته.

(والكنيسة المسيحية) تعترف بأربعة منها وهي: (إنجيل مَتَّى، وإنجيل مَرْقس، إنجيل لُوقَا، وإنجيل يُوحَنَّا) [إظهار الحق لرحمة الله الهندي ١/ ١٦١].

هذا وأما القسم الثاني مِن معجزات (عيسى ابن مريم) وهي التي تقنع الماديين إذ هي: من الأمور الحسية التي إنْ رآها المنصف يعرف أنها لا يمكن أن تكون من قدرة البَشَر، بل هي مِن قدرة الله تعالى وبإذنه، كانت لإثبات صِدْق (نبوة عيسى) وصِدْق إبلاغه عن الله.

وقد نصَّ القرآن الكريم منها على (أربعة أنواع)

الأول: الخَلْق مِن الطين كهيئة الطَّيْر مع النَّفْخ فيها، الثاني إبراء الأكمه والأبرص، الثالث إحياء الموتى، والرابع إخبار القوم بما يأكلون وما يّدَّخِرون في بيوتهم.

وسأحاول بعون الله إيضاح هذه المعجزات الأربع بإيجاز فأقول:

أولاً: (خَلْق الطَّيْر من الطين): كان (عيسى) عليه السلام يأخذ قِطعةً مِن الطين ويُصوِّرها ويشكِّلها مثل (هيئة الطَّيْر) بإذن الله، ثم ينفُخ فيها فتكون بعد النفخ مِن غير تَراخٍ ولا تأخير طَيْراً بإذن الله، يطير بين السماء والأرض أمَام أَعْيُن القوم.

وفي (آيات المائدة) تكرر لفظُ (بإذني) مرتين، وذلك تأكيداً لكونه واقعاً بقدرة الله تعالى وتخليقه، لا بقدرة (عيسى) وإيجاده، وفيه رَفْعٌ لِوَهْم من توهَّم في (عيسى) الألوهية، كما فيه إشارة إلى أنَّ ذلك لم يكن مِن (صناعة عيسى) ولم يَتَّخِذْه عليه السلام حِرْفَةً له.

ويلاحظ أنَّ التعبير في (آل عمران) جاء (فأنفخ فيه) بتذكير الضمير، لأنه يعود هنا على الطِّين.

بينما في (المائدة) جاء (فتنفخ فيها) بتأنيث الضمير، وذلك لأنه يعود على الأرجح على الهيئة، والله أعلم.

هذا وقُرىء في (الآيتين) طَيْراً بياء ساكنة على الجمع، كما قُرىء فيهما طائراً على الإفراد، وذلك مِثْلُ رَكْب ورَاكِب.

هذا ويقال أنَّ (عيسى) عليه السلام لم يُصوِّر لهم غير (الخُفَّاش) بضم الخاء وتشديد الفاء على وزن رُمَّان، وقيل: يُسمَّى (الوَطواط) بفتح الأول.

ورُوي عن (أبي سعيد الخُدْريّ) رضي الله عنه أنَّ (عيسى قال لبني إسرائيل): ماذا تريدون أنْ أخلُق لكم؟ قالوا: الخُفَّاش وتنفخ فيه الروح. واختاروه على وَجْه التعنُّت والتعجيز، إذ الخُفاش أشدُّ الطير خَلْقاً وأكمله.. فهو حيوان بغير رِيش، وله ثَدْي، وأنثاه تحيض وتَلِد، وله أسنان، ويضحك كما يضحك الإنسان، واسمه مشتقٌ مِن الخَفَش وهو: صِغَرُ العينين والضعف في البَصر، فالخُفَّاش لا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى ساعةً واحدة بعد غروب الشمس، وساعةً أخرى بعد طلوع الفجر، وهو لا يطير إلا ليلاً. وفي [تفسير القرطبي ١/ ٧٤] قال (وهب): كان الذي يصنعه (عيسى) يطير ما دام الناس ينظرونه، فإذا غاب عن أعينهم، سقط ميتاً، وذلك ليتميَّز فِعْل الخَلْق عَنْ فِعْل الخالق، وليُعْلَم أنَّ الكمال لله عزَّ وجلَّ { **فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** } [المؤمنون ١٤].

ثانياً: (إبراء الأكمه والأبرص)

في اللغة [المقاييس، المفردات، المصباح، اللسان]:

(برأ): الباء والراء والهمزة أصلان: أحدهما: الخَلْق، يقال: برأ الله الخلق يبرؤهم بُرْءاً، فالبارئ خُصَّ بوصف الله جلَّ ثناؤه، قال تعالى: {**هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**} [الحشر ٢٤].

والأصل الآخر هو: التباعد عن الشيء ومزايلته، ومنه البُرْءُ وهو السلامة من السَّقَم، يقال: بَرِئ المريض يَبْرَأ بُرْءاً وبرءاً معناه: شُفي وتخلَّص مما به، وأبرأه الطبيب يُبْرِئه إبراءً أي: شفَاه.

ويقال: بَرِئ يبرأ مِن فلان أي: تباعد وتخلَّى عنه، وبرِيء مِن الدَّيْن والعَيْب والتُّهمة أي: خَلُص وخَلا.

والبراءة: هي الإعذار والإنذار، قال تعالى: {**بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ**} [التوبة ١].

ويقال: برُؤ فهو بريء والجمع: بُرآء وأبرياء وبريئون أي: هو سليم الصدر خالص النية وخالٍ مما اتهم به، ويقال: بَرَّأه من كذا أي: قضى ببراءته منه فهو: مُبَرَّأ، وفي التنزيل العزيز: {**فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا**} [الأحزاب ٦٩].

وقولهم بارأتِ المرأة صاحبها معناه: صالحَته على المفارقة،

والبراء هو: أول ليال الشهر وآخرها.

هذا و[الأكْمه] بسكون الكاف وهاء في آخره مشتقٌّ مِن كمه يَكْمَه كَمَهاً فهو أَكْمَه وهي كَمْهاء، والأكمهُ على أرجح الأقوال هو: الذي وُلِد

أعمى، ولم يرَ ضوءاً قطُّ، وقد يكون مطموس العينين، وأمَّا الأعمى فهو مَن وُلد بصيراً ثم عَمِي.

(والأبرص) هو: الذي في جِلْده وضَحٌ ولُمَعُ بياضٍ شديد.

هـذا وقـد فَـشَتْ في (المجتمـع الإسرائـيلي) كثـير مِـن الأوجـاع والأمراض، ولهذا شاع فيهم عِلْم الطِّب، لكن عَجَز أطبَّـاؤهم في (عهـد عيـسى) مـع تميُّـزهم في الطـب عـن معالجـة هـذين المرضَـيْن (الكمـه والبرص)، ولم يستطع أحد منهم الإبـراء مـنهما، فـأراهم الله عـزَّ وجـلَّ المعجزة مِن جنس عملهم ومهارتهم، فكان (نبيُّهم عيسى) عليه الـسلام يُبْرئ لهم (الأكمه والأبرص) ، فكان ذلك دلـيلاً عـلى قـدرة الله تعـالى، وعلى صِدْق رسوله، وعلى عَجْز القوم.

قال (وَهْبُ بْنُ مُنَبِّه): رُبَّما اجتمع على (عيسى) مِن المرضى في اليـوم الواحد (خمسون ألفاً)، وإنما كان يداويهم بالدعاء، وكان الشِّفاء بإذن الله [زاد المسير ١٩٦].

إذن (فالسيد المسيح) ﷺ كان يُبْرئ (الأكمه والأبـرص) بالكلمـة وبالدعاء لا بإجراء عمليات جراحِيَّة، ولا بتحضير أدويـة وكيماويـات، لهذا سـتظَلُّ المعجـزة التـي جـاء بهـا ﷺ معجـزة إلى أنْ تقـوم الـساعة [معجزات الأنبياء للشعراوي ٢٧٦].

قال تعالى في [آل عمران] على (لسان عيسى ابـن مـريم): **{وَأُبْـرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ}** .

وقال تعالى في [المائدة] ممتناً إنعامه على (عيسى ابن مريم): {تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي}.

ثالثاً: (إحياء الموتى بإذن الله):

قال تعالى في [آل عمران] على (لسان عيسى ابن مريم): {وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ}.

وقال تعالى في [المائدة] ممتناً على (عيسى): {وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي}.

وهذه معجزة أكبر مِن سابقتيها، وقد ارتقتْ معجزة إبراء الأكمه والأبرص إلى (معجزة إحياء الموتى) وإخراجهم من قبورهم.

هذا ولم يأخذ (المسيح) عليه السلام هذه المسألة على إطلاقها فيحيي كُلَّ ميِّت، إنما قام بها في وحدات تُثْبِت صِدْق الآية، ولا تَعمُّ مدلول المعجزة، فهو عليه السلام بَشرٌ مخلوق وليس بإله خالق!!

قال (الإمام القرطبي) في [تفسيره ٤/ ٩٤]: (أحيا أربعة أَنْفُس) وهُمْ: (العازِر، وابن العجوز، وابنة العاشر، و(سام بن نوح)،

– فالله أعلم –

أمَّا (العازر).. فكان (صديقاً لعيسى ابن مريم) فأرسلتْ أُخته إليه: إنَّ أخاكَ العازر يموت، فلما حضر (عيسى) إليه مع أصحابه، وجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام، فقالوا لأخته: انطلقي بنا إلى قبره، فانطلقتْ معهم إليه، فقال عيسى عليه السلام: اللهم ربَّ السموات السَّبْع والأرضين السَّبْع، إنك أرسلتني إلى (بني إسرائيل) أدعوهم إلى دينك، وأخبرتَهم أنِّي أُحيي

الموتى بإذنك، فأحي يا حيُّ يا قيُّوم العازر.. فقام العازر بإذن الله وخرج مِن قَبْره، وَوَدَكُه يَقْطُر، وعاش وخلَّف أولاداً!!

هذا و(الوَدَك) بفتحتين هو ما يتحلَّب مِن دَسَم اللحم والشحم، يقال: كَبْشٌ ودِيك أي: سَمِين، ووَدَكُ الميْتة هو ما يسيل منها.

وأما (ابن المرأة العجوز).. فإنَّ (عيسى) عليه السلام مرَّ به وهو محمول على سريره فدعا الله ، فقام الميِّت بإذن الله، ونَزل عن سريره حيّاً، ورجع إلى أهله، و عاش ووُلد له!

وأما (ابنة العاشِر) والعاشِر هو العشَّار الذي يأخذ العُشُور.. قد ماتت ابنته فقال للمسيح: أتستطيع أنْ تحييها لنا وقد ماتت بالأمس؟ فدعا عيسى ربه تبارك وتعالى، فحييت وعاشت ووُلِد لها!

فلما رأى (بنو إسرائيل) ذلك من (عيسى) قالوا: إنك تحيي مَن كان موته قريباً فلعلَّهم لم يموتوا حقيقة، بل أصابتهم سكتة! فأحي لنا ..

[سام بن نوح]؟! ودَلُّوه على قبره.. فدعا (عيسى) ربَّه فخرج سامٌ مِن قبره، وقد شاب رأسه ظاناً أنَّ القيامة قد قامت.. وقال للقوم: صَدِّقوه فإنه نبيٌّ، ثم مات في الحال. فآمن بعيسى بعضهم وكذَّبه بعضهم وقالوا: هذا سحر مبين.

رابعاً: (إخبار القوم بما يأكلون وما يدَّخِرون):

قال تعالى على (لسان عيسى ابن مريم): **{وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ}**، وهذه الآية ذُكرت في [آل عمران] ولم تُذكر في [المائدة] وهي من (معجزات المسيح عيسى) عليه السلام جاء في [الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٩٥]:

وذلك أنّ قومه (بني إسرائيل) لَّمّا أَبرأَ لهم (الأكمه والأبـرص) وأحيـا (بعض الموتى) قالوا: هذا ساحر، فإذا كان نبيّاً حقّاً أخبرَنا بما نأكل في بيوتنا وما ندَّخِر للغد مِن طعامنا؟ فأخبرهم (عيسى) عليه السلام فقال: يـا فـلان أنـتَ أكلتَ كذا وادَّخرت كذا، وأنتَ أكلتَ كذا وكذا وادَّخرت كذا وكذا.

وقال (السُّدِّي ومُجاهد): كان (عيـسى) مِـن لَـدُنْ طفولتـه وهـو في الكُتَّاب يخبر الصبيان بما يفعل آباؤهم في بيوتهم، وبما يؤكـل فيهـا، ومـا يُدَّخر من الطعام.. حتى قال (بنو إسرائيل) لأبنـائهم: لا تُخـالِطوا هـذا الساحر، وكذلك إلى أنْ نُبِّئ فكان يقول لكلِّ مَن سأله عن هـذا المعنـى: أكلتَ البارحة كذا وادَّخرْت كذا. [المحرر الوجيز ١/ ٤٤٠].

وهذا الإنباء مِن (السيد المسيح) عليه السلام مِـن غـير اسـتعانة بآلـة، ولا مسألة متقدِّمة، فلا يكون إلا بـالوحي مـن الله سـبحانه، لأنَّ الله تبـارك وتعالى هو عالم الغيب والشهادة، قال تعالى:

{قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ} [النمل ٦٥].

وليس من المعقول أنَّ (عيسى) قد دخـل كـل بَيْـت، أو جـاءت لـه الأخبار عن كل بيت عما يأكله أهل هـذا البيـت أو ذاك، ولـو فُـرِض أنَّ الطعام له رائحة ستنتشر خارج البيت، أو أنَّ (عيسى) كان يـشُمُّ رائحـة الإنسان فيعرف نوع الطعام الذي أكله؟! فما بالك بما يدخرون في بيوتهم من أنواع الطعام؟!

ولابُدَّ من الإقرار بأنَّ هذه معجزة توضِّح أنها آيـة مِـن إخبـار مَـن يعلم مغيِّبـات الأمـور جـلَّ جلالـه.. وهـي كـما قـال الله تعـالى في [آل

عمران]: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} أي: فيها وفي غيرها مِن المعجزات آية ساطعة وعلامة قاطعة على صِدْق نبيِّكم (عيسى ابن مريم) إنْ كنتم (يا بني إسرائيل) موفَّقِين للإيمان، مصدِّقِين بالحَقِّ، غير معاندين. [البيضاوي ٢/ ٨--].

والله سبحانه يُطْلِع بعضاً مِن خَلْقه على شيء مِن غَيْبه، لِحِكْمة منه سبحانه، ولا يكون ذلك مِن إفاضة إلَّا على مَن شاء من رُسُله عليهم السلام، وذلك لإثبات صِدْقهم في البلاغ عنه.

قال تعالى في سورة [الجن ٢٦ – ٢٨]: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ}.

هذا (وبنو إسرائيل) كافَّةً كانوا مِن معجزات رسولهم (عيسى) عامَّةً. كما أخبر عنهم الله تعالى في سورة [المائدة ١١٠]: {فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} أي: ما هذا الذي جاء به (ابن مريم) من المعجزات إلَّا سحر واضح.

وفي قراءة (إلَّا ساحر) فالإشارة إلى (عيسى) نَفْسِه عليه السلام.

فقد الْتَصق جُمهورهم بالأجساد، وسادَهُم إنكار الرُّوح، وإنكار البعث، وزعموا أنَّ الإنسان جِسْم بلا رُوح.. فكان منطِقياً أنْ تجيء معجزات نبيِّهم (عيسى) حتَّى المادية منها تجيء إعلاناً لعالَم الرُّوح، ودعوةً لتربية الرُّوح، وتهذيبِ القلب، ودفعاً للإيمان بالبعث والنشور، والخروج مِن القبور، ليجازَى كل إنسان بما عمِل في هذه الدنيا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ..

ولم يُبالِ (عيسى) عليه السلام بتكذيب قومه له وإنكارهم لمعجزاته، وظلَّ يُعلِن شريعة الله تعالى التي بعَثه سبحانه بها إليهم.

(فالسيد المسيح عيسى ابن مريم) أرسله الله إلى (بني إسرائيل) خاصَّة، قال تعالى في [الصف ٦]: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم}، وكتاب شريعة بني إسرائيل هو (التوراة) التي أنزلها الله على (نبيهم موسى بن عمران) عليه السلام، قال تعالى في [الإسراء ٢]: {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}، ومن بعد (موسى) تتابع الأنبياء والمرسلون إلى (بني إسرائيل)، وكَثُر أحبارهم، وكتاب شريعتهم الذي يحكُمون به هو (التوراة) قال تعالى في [المائدة ٤٤]: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء}.

و(التوراة) كلمة عبرية معناها: الشريعة أو التعاليم الدينية، والتشريعات الحياتية.

هذا ولفظ (التوراة) ورد في القرآن الكريم (ثماني عشرة مرة).

أولها في [آل عمران ٣]: {وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ}،

وآخرها في سورة [الجمعة ٥]: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً}.

وكان آخر أنبياء (بني إسرائيل هو المسيح عيسى ابن مريم) جاء مصدقاً (للتوراة) وآتاه الله (الإنجيل)، قال تعالى في [المائدة ٤٦]:

{وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ}.

و(الإنجيل) كلمة يونانية معناها: البشارة، وفي كتاب الله العزيز جاء لفظ (الإنجيل) (اثنين وعشرين مرة)،

أولها في [آل عمران ٣]: {وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ}،

وآخرها في سورة [الحديد ٢٧]: {وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ}.

وأصبح (الإنجيل لعيسى) عليه السلام شريعة خاصَّةً وهي تقوم على ركيزتين أساسيتين نجدهما في قوله تعالى على (لسان عيسى) في [آل عمران ٥٠، ٥١]: {وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ}.

فالركيزة الأولى تتمثل في قوله: {وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ}.

(فشريعة عيسى) عليه السلام تعتمد ما في (توراة موسى) عليه السلام، فقد جاء (عيسى) مصدِّقاً ومطبِّقاً ما في (التوراة) مِن عقيدة التوحيد، ومن التشريعات الصحيحة المنظمة لحياة (المجتمع الإسرائيلي) غير أنَّ (عيسى) في تفسيره لشريعة (موسى) تجاوز الفهم الحَرْفي الجامد الذي تمسك به (أحبار اليهود)، ودعا إلى تطبيق حقيقة جوهر التشريعات السماوية، وأكمل عليه السلام ما نقَص مِن التوراة، وصحَّح ما حُرِّف منها.

أمَّا الركيزة الثانية فهي في قوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

(فشريعة السيد المسيح) جاءت بتعديل يتعلَّق بإحلال بعض ما حُرِّم على (اليهود) في (شريعة موسى)، سواءً منها ما حرَّمه الأحبارُ تشدُّداً منهم على أنفسهم وعلى أفراد مجتمعهم، كتحريم أي عمل في (يوم السبت) ولو كان مباحاً أو واجباً إنسانياً،

أو ما كان تحريمه في صورة عقوبات حلَّت (ببني إسرائيل) على معاصٍ وقعتْ منهم، وانحرافاتٍ صدرتْ عنهم وظُلْم، فأدَّبهم الله عليها بتحريم ما كان حلالاً لهم، قال تعالى في سورة [النساء ١٦٠، ١٦١]: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

وما حُرِّم من الطَّيِّبات في هذه الآية مِن [سورة النساء] مذكورٌ في سورة [الأنعام ١٤٦] في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

قال (سعيد بن جبير): كل ذي ظُفُر هو الذي ليس منفرِج الأصابع: كالجمَل والوَبر والأرْنب.. فإنَّها مِن ذوات الأظفار غير المشقوقة أي: غير منفرجة.

[تفسير القاسمي ٧/ ٣٣٩].

وفي [زاد المسير ٤٧٤] أضاف (النَّعام والأَوِزّ والبَطّ).

وفي [التفسير الكبير ١٣/ ١٨٣]: ووجبَ حَمْلُ الظُفُر على المخالب والبراثِن، لأنَّ المخالب هي آلاتُ الطيور الجوارح، والبراثِن هي آلات السِّباع في الاصطياد.

ومِن (البقَر والغَنم) حُرِّمت على (الذين هادوا) شحومُ الثُّروب والكُلى خاصَّة، أما بقية شحومهما مما علَق بالظَّهْر ومِن الحوايا أي: الأمَعاء والمصَارين، والشَّحْم الذي اختلط بعظْم في القوائم والرأس فهذه الأنواع الثلاثة على الأرجح مستثناة من التحريم، فهي كلحوم البقر والغَنم حلالٌ لهم.

هذا وقد شاءت إرادة الله تعالى أنْ يَرْحم (بني إسرائيل) (بالمسيح عيسى ابن مريم) عليه السلام فأحلَّ لهم بعض الذي حَرَّم عليهم مِن الأحكام ومِن ألوان الطعام.

وهذا التحليل والتعديل لا يَقْدَح في كون (عيسى) جاء مصدِّقاً (للتوراة)، إذِ التعديل نَسْخٌ لبعض الأحكام، والناسخ والمنسوخ كِلاهما حقٌّ وصِدْق، (وموسى وعيسى) كِلاهما نبيٌّ مرسَل مِن الله تعالى (لبني إسرائيل).

هذا وبعد أنْ بيَّن (عيسى) لقومه رُكْنَيْ شريعته بقوله: {**وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**}.. أعاد عليه السلام تذكيرهم بأنه قد جاءهم من عند الله بالآية، وكلُّها معجزات تتعلَّق بإنشاء الحياة، (كخلق الطَّيْر مِن الطِّين)، أو تتعلق بِرَدِّ الحياة، (كإحياء

الموتى)، أو بِرَدِّ العافية وهي فَرْع مِن الحياة، (كإبراء الأكمه والأبرص)، أو تتعلَّق بعِلْم غَيْبٍ بعيد عن مَدَى الرؤية، (كإخبارهم بما يـأكلون ومـا يدَّخرون في بيوتهم).

وقد شاهد القوم هذه المعجزات، وكُلُّها وغيرها تَـشْهَد عـلى صـحة نُبوَّة (المسيح عيسى ابن مريم) وعلى صِدْق رسالته.

ولهذا وجب على قوم (بني إسرائيل) تَقْوَى الله، وطاعة رسوله، لهذا خاطبهم (رسولهم عيسى) عليه السلام بقوله: { فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَطِيعُونِ} .

(الفاء) في (فاتقوا) هي فـاء الفـصيحة، لأنهـا أفـصحتْ عـن شَرْط مقدَّر، تقديره: إذا عرفتم مجيئي لكم بآية مِن ربِّكم، وأردتُم بيان مـا هـو الأنصح لكم فإني أقول لكم: (اتقوا الله).

(والواو) الداخلة على (أطيعون) عاطفـة.. والفعـل (أطيعـوا) أمـرٌ مبنيٌ على حذف النون لاتصاله (بواو الجماعة)، وهي فاعـل، (والنـون) بعدها للوقاية تقي الفعل مِن الكَسْر ومِن الإضافة.

(وياء المتكلم) المحذوفة بعد النـون مراعـاةً للفواصـل، أو اسـتغناءً عنها بكَسْر نون الوقاية هي في محلِّ نصْب مفعول به.

وجملة (أطيعون) معطوفة على جملة (فاتقوا الله)، والمعنى: فاتَّقوا الله يا قوم حقَّ تُقَاته، واخشَوْا عقابه عـلى تكـذيبكم لي، وإنكـاركم للآيـات والمعجزات، (وأطيعون) أي: وامتثلوا ما أمركم به الله،واجتنبُوا ما نهاكم عنه، لأنَّ طاعة الرسول مِن لوازم تقوى الله تعالى.

هذا وقد خُتِم (كلام السيد المسيح) بقوله لقومه: {إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} .

وبهذا القول يؤكِّد لهم عليه السلام أن الله تبارك وتعالى هو رَبُّه وربُّهم، وهو سبحانه خالقه وخالقهم، ومالكه ومالكهم، فهُوَ وهُمْ عَبِيدٌ لله تعالى، وكأنَّه عليه السلام يقول لهم: وإذا عرفْتُم يا قومي كون معبودي ومعبودكم واحد، وهو ربُّنا ورَبُّ الخلائق كلِّها، وجَب عليكم أنْ تعبدوه جلَّ شأنه، وتوحِّدوه، وتلتزِموا طاعته.

وهذا الجمْع بين (التوحيد والعبادة) هو (الصراط المستقيم)، وهو الدِّين القويم، وهو الإسلام والاستسلام لله تبارك وتعالى، وهو الذي رَضِيه ويرضاه سبحانه لعباده، وهو الذي يوصِل الناس إلى خيْرَيِ الدنيا والآخرة، ويدخلهم بفَضْل الله جنات النعيم.

وهكذا يُحدِّثنا القرآن العظيم بأنَّ (دعوة المسيح عيسى ابن مريم) لقومه لا تختلف في جوهرها عن دعوةِ غيره من الأنبياء، فهذه الكلمة العظيمة (إن الله ربي وربكم فاعبدوه) قد قالها الأنبياء جميعاً لأقوامهم، وهي دعوة الإسلام بمعناه الأصيل وهو: التوحيد الكامل، وهو إسلام الوجْه والقلْب والرُّوح لله تعالى، والإيمان بأنَّ الله هو ربُّهم ورَبُّ العالَمين لا شريكَ له في الملك، ولا مَثِيل له في الكَوْن، يَجِب صَرْف أنواع العبادة كلِّها إليه وَحْدَه، فهو واحِدٌ أَحد فرْدٌ صَمد، لم يلِد ولم يُولد ولم يكن له كُفُواً أحد.

وقال العلَّامة (الشيخ عبدالرحمن السَّعدي) في [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ١٢٣]: فالرسالة والدعوة والدِّين الذي جاء به (عيسى) عليه السلام هو (دين التوراة)، ودين الأنبياء السَّابقين، وهذا

أَكْبَرُ الأدِلَّة على صِدْق الصادقين، فإنه لو كان مِن الكاذبين لخالف ما جاء به الرُّسُل، ولنَاقَضهم في أصولهم وفروعهم، فعُلِم بذلك (أنَّ عيسى ابن مريم) رسول الله، وأنَّ ما جاء به حَقٌّ لا ريْبَ فيه.

هذا وقد مَضى عليه السلام يدعو قومه (بني إسرائيل) إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، وإلى الإيمان بيوم القيامة والحساب والجزاء.

وانطلق عليه السلام يدعوهم إلى تَنْقِيَة الأرواح، وتطهير القلوب، وإلى الحُبِّ والتراحم، والعفْو والتسامح فيما بينهم، وإلى العدْل والأمانة والتواضع في أحكامهم، وفي معاملاتهم وإلى مساعدة الفقراء والمساكين والمحتاجين، وإلى الزُّهْد في الدنيا والتطلُّع إلى ثواب الله تعالى وإلى الدخول في مَلَكُوته جلَّ جلاله.

فأثارتْ دعوته (كَهَنة اليهود) لأنَّها كانت تُعرِّيهم وتَفْضَح سلوكِيَّاتهم، وتَحْرِمُهم مما صنَعُوه لأنْفُسِهم مِن قداسة، ومن ثراء، ومن سُلْطة، لهذا شَرَعوا يكِيدُون له، ويُدبِّرون المؤامرات لإحراجه عليه السلام، ولإثبات أنه يُحطم (شريعة موسى) عليه السلام، وأخَذُوا يَكْفُرون به وبمعجزاته، ويُخطِّطون لقَتْله والتَّخلُّص منه، وأحسَّ (عيسى) مِن قومه الكُفْر فبحَث عمَّن ينصره في دعوته إلى الله فقال الحوارِيُّون: ﴿**نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾.

***

الفصل الحادي عشر:

قال الحواريون نحن أنصار اللّه

لقد أثارت (دعوة عيسى ابن مريم) ﷺ (كَهنة اليهود) المُسْتَفِيدين مِن انتصار الظُّلْم، ومن انتشار الضَّلال الذي كان يعيشه مجتمعهم، واشتدَّ غضبهم على (عيسى) فأخذوا يَسْخَرُون منه، ويُنكِرون معجزاته، ويَكفُرُون برسالته، وشَرَعُوا يَكِيدُون له المؤامرات، بل ويخطِّطون لقَتْله.

فالْتَجأ ﷺ إلى الله تعالى، يسأله العَوْن والنَّصير، فأمدَّه الله تعالى بالحواريِّين، قال تعالى في [آل عمران ٥٢ ، ٥٣]: { **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**} .

قوله: { **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ**} (الفاء) استئنافية، (ولما) حرف شرْط غير جازم، (وأحسَّ) فعل الشرط ومعناه عَلِم ووجَد وعرَف وأصْلُ ذلك الإبصار، ومنه قوله تعالى: {**هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً**} [مريم ٩٨].

أي هل ترى؟ ثم استعمل الإحساس في الوَجْدان والعِلْم بأي حاسة كانت، وحواسُّ الإنسان الظاهرة خَمْسٌ وهي (السَّمْع والبصَر والشَّمُّ والذَّوْق واللَّمْس)، فقولُنا أحسَّ يحس إحساساً معناه: عَلِم علماً لا شبهة فيه، كعِلْم ما يُدْرَك بالحواسِّ، والفعل (أحسَّ) يتعدَّى بنَفْسه وبالباء، فيقال: أحسسْتُ الشيء، وأحسَسْت بالشيء، ويقال: تحسَّسَ الخبر، أي: تطلَّب معرفته وتتبَّع أخباره، ومنه قوله تعالى: { **يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ**} [يوسف ٨٧].

(والحِسُّ) بكسر الحاء والحَسِيس هو: الصَّوْت الخَفِيُّ، ومنه قوله تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا} [الأنبياء ١٠٢].

وفي قوله تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ} تَنْبيهٌ أَنَّه قد ظَهَر مِن قومه الكُفْر ظهوراً جَلِيَّاً بانَ للِحسِّ، فضْلاً عن الفَهْم، والمعنى: أي عندما عَلِم وتيقَّن (عيسى) مِن جُمْهُور قومه (بني إسرائيل) إصرارهم على الكُفر بالله وبرسوله، واستمرارهم على الضَّلال والعِناد وقَصْد الإيذاء، والعَزْم على قَتْله، مع عِلْمِهم بأنه (المسيح) المُبشَّر به في (التوراة) قال عليه السلام: {مَنْ أنصارِي إلى الله}؟

والأنصار: جمعٌ مفردُه ناصِر ونَصِير، وفي القرآن الكريم: {وَكَفَى بِاللهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللهِ نَصِيراً} [النساء ٤٥].

يقال نَصَره على عَدُوِّه نَصْراً أي: أمدَّه وأعانه عليه، واستنصره أي: طَلَب نُصْرته، وتناصر القوم مناصرةً أي: نَصَر بعضهم بعضاً، وانتصر منه أي: انْتَقم منه.

(والأنصار) في العَهْدِ الإسلامي: هُمْ أهْل (المدينة المنورة) الذين نصروا رسول الله ﷺ، ويقابِلُهم (المهاجِرون) الذين هاجَرُوا مِن (مكَّة إلى المدينة). (وعيسى ابن مريم) عليه السلام استنصرَ جماعةً مِن قومه على مَنْ كَفَر منهم إذ قال: {من أنصاري إلى الله} أي: مَن يَأْنَس في نَفْسه العزْم الصَّادق، والاستعداد القوِيَّ للتَّضحية بالنَّفس والنَّفيس، فيتبَعُنِي إلى الله، ويُعِينُني على إقامة الحَقِّ وإظْهار الحُجَّة، وينصرني في الدعوة إلى الله نصراً غايته إلى الله وحْدَه.

(فالاستنصار وطلب النصرة) هي سُنَّةُ الله في (أنبيائه وفي أوليائـه)، إذ لا بُدَّ لكل صاحب عقيدة ودعوةٍ مِن أنصارٍ ينهَضُون معـه، ويُحَامُون دُونَه، ويَحمِلون دعوته، حتى يُبَلِّغها هو عن الله، ويُبلِّغُوهـا هُـمْ إلى مَـن يليهم، فهذا (لُوطٌ) عليه السلام كان يقول لقومه: {**لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**} [هود ٨٠].

وهذا (رسولنا) ﷺ كان يقول في مواسم الحَجَّ قبل أنْ يهاجر: {**مَن رجل يُؤْويني حتى أُبلِّغ كلام ربي، فإنَّ قريشاً قد منعوني أنْ أبلِّغ كلام ربي**}، حتى وجد عليه الصلاة والسلام (الأنصار) رضوان الله عليهم، فآوَوْه ونصَرُوه، وهاجر إليهم فحَمَوْه وحَمَلُوا مع إخوانهم (المهاجرين) لواء الإسلام مِن بَعْدِه ﷺ.

وما أنْ نادَى (عيسى) عليه السلام في قومه "مَن ينصرني إلى الله" حتَّى قال الحوارِيُّون (نحن أنصار الله) أي: أعوانُ دِينه، والباذِلون كُلَّ ما في وُسْعِنا لتأييده ونُصْرته. وأعلَنَوا رضوان الله عليهم إيمانهم، وأشهدوا رسولهم على ذلك، إذ قالوا {**آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**} أي صدَّقْنا بالله وبكتابه، فاشهد يا رسول الله في هذه الحياة وفي يوم القيامة بأنَّا مُسْلِمون.

(والحوارِيُّون) بتشديد الياء ، والمفرد (حوارِيٌّ)، وحوارِيُّ الرجل: صَفْوَته وخاصَّته وخالِصَته، ومنه قوله ﷺ: (لكل نبِّي حواريٌّ، وحوارِيِّ الزُّبَيْرُ) [رواه الشيخان].

وقوله ﷺ : (الزبير بن العوام ابْن عمَّتي وحوارِيٍّ مِن أمتي) [النهاية ١/ ٤٥٧].

فالحواريُّون عامة هم: صَفْوة الأنبياء، الذين خَلَصُوا وأخلصوا في التصديق بهم، وفي نُصْرتهم.

هذا وفي اللغة [المصباح ١٥٥، المقاييس ١/ ٣٢٤، المفردات ١٤٢، اللسان (حور)].

يقال: حَوِرَت العَيْن حَوَراً معناه: اشتدَّ بياضُ بياضِها وسواد سوادها. والحَوَرُ: نهاية الحُسْن مِن العَيْن عند العرب. والوصْف من الحور: أحْوَرُ وحَوْراء والجمْع حُورٌ. ولا يقال للمرأة حوراء إلَّا أنْ تكون مع حَوَر عينيها بيضاء نقيَّة اللَّوْن والجِلْد. وقيل الحَوَر: اِسْوداد المُقْلَة كلِّها كعُيُون الظباء، ولا يكونُ هذا في الإنسان.

(وحَواريُّو عيسى) عليه السلام هم خَاصَّته، وأخْلَص تلاميذه، والأصفياء مِن أتْباعه، وقد نُقُّوا من كلِّ عَيْب، وابيضَتْ قلوبهم ووجُوهُهم بأنوار الإيمان، وكانوا يَلْبَسُون الثِّياب البِيض.

وقيل: كانت صِناعة بعضِهم: غَسْل الثِّياب وتَحْوِيرها أي تَبْييضها.. وصناعة بعضهم صَيْدُ الأسماك.. وكان عددُهم (اثنَيْ عشَرَ رَجُلاً) وقيل: (تسعةً وعشرين) والعِلْم عند الله.

هذا وفي سورة [آل عمران ٥٢]: {**قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ الله آمَنَّا بِالله وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**}.

ففي هذه الآية أَعْلَن الحوارِيُّون إيمانهم بالله وحْدَه، وأشهدوا (نَبِيَّهم عيسى) على إسلامهم.

وفي سورة [المائدة ١١١] نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

فالله تبارك وتعالى الذي وَفَّق الحواريِّن إلى أنْ يستجيبوا لاستنصار (عيسى بن مريم) فقالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ﴾، كما جاء في آية [آل عمران]

والله سبحانه هو الذي أوحى إليهم وألهمهم بأن يؤمنوا به وبرسوله، كما جاء في آية [المائدة]: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾ فقالوا: ﴿آمنَّا﴾ أي: آمنَّا بما أمرْتَنا به، وقولهم هنا - والله أعلم - يشمل الإيمان بالله وبرسوله (عيسى)، وإذا كانوا قد أشهدوا في [آل عمران] رسولهم (عيسى) بأنهم مسلمون، فقد أشهدوا في [المائدة] ربَّهم جلَّ جلاله بأنهم مسلمون.

ولهذا - والعلم عند الله - جاء التعبير أولاً: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، وجاء في المرة الثانية: ﴿ وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾.

فحُذِفتْ النون من (أنَّا) في [آل عمران] تخفيفاً، وثبتَتْ في آية [المائدة] (أننا) إتماماً. والسِّرُّ في ذلك - والعلم عند الله - أن آية [المائدة] وَرَد فيها التَّفصيل فيما يجِب الإيمان به حيث قال: ﴿ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾. فناسَب ذلك وُرُود (أنَّنا)، على أَوْفَى الحالَيْن، وهو الورود على الأصل مِن دون حَذْف.

ولمَّا لم يقع إفصاحٌ بهذا التفصيل في آية [آل عمران] حيث قال الحواريون: ﴿آمنَّا بالله﴾ ولم يُصرِّحوا هنا (وبرسوله). إيجازاً للعلم به، ناسب هذا الإيجاز الإيجاز فقالوا: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، كما ناسب

الإتمام في المائدة الإتمام فقالوا: ﴿ وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾، فجاء كل تعبير على ما يجب،

فسبحان الله العظيم! تجلَّت حِكْمته في كُلِّ شيء وتناهت بلاغة كلامه في كل كلمة [ملاك التأويل ١/ ٣١٠].

وعلى هذا ورَد كلام الحواريين في سورة [آل عمران ٥٣]: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

فهُمْ بَعْد أنْ قالوا: إنهم أنصار الله، وأعلنوا إيمانهم بالله سبحانه، وأشهدوا نبيهم على إسلامهم، وتوجَّهوا - كما أَوْحَى الله إليهم وأَلْهمهم - توجَّهوا إلى الله تبارك وتعالى، فأَظْهَروا له امتثالهم لأَمْره بالإيمان بكتابه وبرسوله، إذ قالوا صراحةً وتفصيلاً: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ ﴾ وهو {الإنجيل} كتاب شريعتك بعد (التوراة) ﴿ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ رسولك (عيسى ابن مريم).

وهكذا يتوجَّه الحواريون بخطابهم وندائهم إلى ربهم جلَّ جلاله: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾، فكأنَّهم بهذا يَعْقِدُون البَيْعة مع الله مباشرةً.. وذلك لتَبْقَى البيعة في أعناقهم بعد الرسول، ويظَلُّ التعهُّد في ضمائرهم بإتِّباع منهج الرسول، ويكون هذا الدِّين قاعدة حياتهم، ونظام مجتمعهم.

ولهذا خَتَم الحوارِيُّون كلامهم هذا بقولهم: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: وإذا كان هذا هو إسلامنا وإيماننا واستسلامنا وانقيادنا لك يا ربنا، وهذا هو تصديقنا بكتابك، وإتِّباعنا لرسولك، وتمسُّكنا

بمنهجك القويم، فاكتُبْنا يا الله مع الشاهدين.. الذين يَشْهَدُون لكَ بالوحدانية، ولنبيك بالرسالة، ولدينك بالحق.. ووفِّقْنا يا الله في أنْ نَجْعَلَ مِن أَنْفُسِنا صورةً حَيَّةً صادقة لهذا الدِّين، وابْعَثْنا للجهادِ في سبيل تحقيق مَنْهَجِك في هذه الحياة.. لنكون مِن الشاهدين بِصِدْقٍ، ونكون مِن الشهداء بحَقٍّ.. وثَبِّتْ يا الله أسماءنا مع الأنبياء الذين يَشْهَدُون لأُمَمِهم، واكتُبنا مع (أمة محمد) ﷺ، لأنهم هم المخصوصون (يوم القيامة) بأداء الشهادة للرُّسل بالتبليغ لأقوامهم فهُمْ شُهَداء على الناس.

وهكذا ظَهر الحواريُّون رضوان الله تعالى عليهم في صورة كاملة للإيمان بالله وبرسوله، وأصبحَ نَصْرُهم لله ولدينه ولنبيه مضرب مَثَلٍ للمؤمنين الصادق، وقُدْوَةً حَسَنة لمن جاء مِن بَعْدِهم.. وحُقَّ لهم أنْ ينزِل في القرآن الكريم الذي أُنزِل على (سيِّدنا محمد خاتَم الأنبياء والمرسَلين) أنْ يَنْزِل فيه أَمْر الله تعالى للمؤمنين مِن الأُمَّة المحمَّدِية، بأنْ يكونوا أنصار الله وأنْ يقولوها (لمحمَّدٍ) ﷺ كما قال (الحواريون لعيسى ابن مريم) نحن أنصار الله. قال تعالى في سورة [الصف ١٤]: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ الله كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى الله قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ الله فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}**.

وهكذا تَسْتَنْهِضُ هذه الآية الكريمة هِمَّة المؤمنين بالدِّين الأخير، دين الإسلام، والنبي الخاتم (محمد بن عبدالله) ﷺ وهُمُ الأُمَناء على منهج الله في الأرض، وورثة العقيدة والرسالة الإلهية، والمختارُون لهذه

المهَمَّة الكبرى، هذه الآية تستنهض هِمَّتهم لنُصْرة الله، ونُصْرة دِينه في كُلِّ حين، كما قال (عيسى ابن مريم) للحواريِّين: (مَن أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله).

والمراد باستنهاضِ هِمَّة المؤمنين: أنْ يدوموا جميعاً على ما هُمْ عليه مِن نُصْرة دِين الله وإعلاء كَلِمته، وأنْ يكونوا أنصار الله في جميع أعمالهم وأقوالهم وأنفُسهم وأموالهم، ولا يتخاذَلُوا ولا يتواكَلُوا، وبهذا يُكْتَب لهم النصر على أعدائهم، كما فعل الحوارِيُّون مع نبيِّهم (عيسى) فنصرهم الله على مَن كَفَر مِن (بني إسرائيل).

قال تعالى في آية [الصف]: {فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ}.

أي: آمنت جماعة من (بني إسرائيل) بنبيِّ الله (عيسى ابن مريم) وهم (الحوارِيُّون والنَّصارَى الموحِّدون).

{وكفَرتْ طائفة} أيْ: وضلَّتْ جماعة أُخْرى مِن (بني إسرائيل)، وجَحَدُوا (بعيسى) وأرادُوا قَتْلَه وهُمُ (اليهود)، فأيَّد الله تعالى الذين آمَنُوا على عَدُوِّهم، فأصبَح المؤمنون ظاهرين وغالِبين عليهم بالحُجَّة والبرهان. كما ضلَّتْ جماعاتٌ أُخْرى مِن (النصارى) إذْ غالَوْا في (عيسى ابن مريم) عليه السلام، ورَفَعُوه فَوْق ما أعطاه الله مِن النُّبوَّة.. فمِنهم مَن قال: إنه الله، ومنهم من قال: إنَّه ابن الله، ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة (الأب والابن وروح القدس)، تعالى الله عمَّا يقولون عُلُوًّا كبيراً.

فأيَّد الله المسلمين المؤمنين الموحِّدين لله تعالى، المُصدِّقين (برسوله محمد) صلى الله عليه وسلم على الفِرْقتَيْن (اليهودِ المغضوبِ عليهم والنَّصارَى الضَّالِّين).

(والسيد المسيح عيسى ابن مريم) قد جاء مبشِّراً برسول الله (سيدنا محمد) عليه الصلاة والسلام، كما جاء في سورة [الصف ٦] في قوله تعالى:

{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}.

فما أَجْدَرَ (أتباع محمد) ﷺ أنْ يُنْتَدَبُوا مِن الله إلى نَصْر الله، كما انْتُدِب الحواريون مِن نبيِّ الله (عيسى) إلى ذلك، فنال الحوارِيُّون التكريم الدائم للأَمْر المؤقت، (وأُمَّةُ محمدٍ) مُهيَّأَةٌ للتكريم الدَّائم للأمرِ الدائم!!

فيأيها الذين آمنوا كَونُوا أنصار الله، وأنصار رسوله، وجاهِدُوا في سبيل الله بأموالِكم وأَنْفُسكم، ينصركم الله، ويؤيدكم على أعدائكم، ويُثبِّت أقدامكم، ويغفِرْ لكم ذنوبكم، ويُدْخِلكم جناتٍ تجرِي مِن تحتِها الأنهار!!

***

الفصل الثاني عشر

مائدة السماء

قال تعالى في سورة [المائدة ١١٢، ١١٣]:

{إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ}.

(إذ) أي: اذكر (يا محمد) لأُمَّتك قصة حين قال الحواريون: {يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء}، وذلك حين خرج (عيسى)عليه السلام من (مدينة القدس) فارّاً بدينه مِن ظُلم (كهنة اليهود) الذين أخذوا يدبِّرون له المكائد ويخطِّطون لقتله، فأخذ عليه السلام يجوب (قرى الشام وفلسطين) يدعو إلى دين الله القويم، وينشر الرحمة والفضيلة بين الناس، ويحاول أن يهدم صروح الظلم ويطمس معالم الشرك، وكان معه الحواريون خلصاؤه وخاصته من تلامذته وأتباعه الذين قالوا: نحن أنصار الله، وأعوان دينه، آمنا بالله وبكتابه (الإنجيل) الذي أنزله الله عليك يا (روح الله) واتَّبعناك يا رسول الله، وأشهدوه عليه السلام على إسلامهم، وسألوا الله تعالى أن يكتبهم مع الشاهدين.

وكان عددهم (اثنى عشر) حوارياً وانضم إليهم ستون رجلاً، وخرجوا مع (عيسى) في البلاد يَشُدُّون أزْره، ويحتملون معه وَعْثاء السفر وشظف العيش، ويُخْفونه عن أعين (رقباء اليهود) الذين كانوا يطاردونه حيثما حلَّ وارتحل، وكان مِن كل قرية يتْبعهم خَلْق كثير مِن الضعفاء والمساكين والمرضى وأصحاب العاهات، ويطلبون مِن (السيد المسيح) العون والشفاء، كما كان يتبعهم جماعات من أعدائه يتجسَّسون

عليه ويسخرون منه. وانتهى الارتحال (بعيسى والحواريين) ومَن معهم إلى (صحراء مقفرة) وهناك خَلَتْ بطونهم، وجفَّت حلوقهم، ووَهِنت قُواهم، وكان (عيسى) عليه السلام يُخَفِّف مِن آلامهم، ويُلْقِي عليهم وصاياه الدينية، ويوضِّح لهم ما انْبَهم عليهم فَهْمه مِن الأمور. وأحسَّ الحواريون أنهم في حاجة إلى أنْ يزدادوا يقيناً إلى يقينهم وإيماناً إلى إيمانهم فقالوا لنبيهم عليه السلام: {يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء} . هكذا نادى الحواريون نبيهم باسمه العَلَم ونسبوه إلى (أمه مريم) مُعْلنين اعترافهم ببشريته وعبوديته لله ربه وربهم، فالحواريون كانوا يعرِفون أنَّ (عيسى) ليس ربَّاً، وإنما هو عَبْدٌ مربوب لله، كما كانوا يعرِفون أنَّ رَبَّه عزَّ وجلَّ هو الذي يصنع المعجزات الخوارق على يديه وليس (عيسى) هو الذي يصنعها مِن عند نَفْسه وبقدرته الخاصة، لهذا نعتوه (بابن مريم)، ولهذا لم يطلبوا منه أن ينزل هو عليهم (مائدة من السماء)، بل قالوا: **{ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ}** .

والقارىء العَجِل لهذه الآية الكريمة أوَّل ما يتبادر إلى ذهنه، هو أنَّ الحواريين قد شكُّوا في قدرة الله تعالى إذ أنّ قولهم: (هل يستطيع ربك) معناه الظاهري: هل يقدر ربك؟ ولعلَّ هذا القارىء يلتمس للحواريين عذراً بأنْ يقول: سؤالهم هذا كان في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عزَّ وجلَّ، مستنداً في ذلك الرأي على قول (عيسى) عليه السلام في إجابته عن سؤال الحواريين: {اتقوا الله إنْ كنتم مؤمنين} على معنى لا تَشُكُّوا في قدرة الله تعالى.

أو يرى هذا القارىء أنَّ قولهم: (هل يستطيع ربك) إنما صَدَر ممن كان مع الحواريين، والحواريون نقلوه عنهم إلى (عيسى) عليه السلام.

وأما القارئ المتبصِّر بمفردات اللغة العربية واشتقاقاتها ومعانيها، فإنه لا يتبادر إلى ذهنه شكُّ الحواريين في قدرة الله تعالى، إذ أنهم (خاصَّة عيسى) وخلصاؤه وخيرة مَن آمن به ونَصَره.

والله سبحانه أمر المؤمنين من أمة (سيدنا محمد) صلى الله عليه وسلم بالتشبُّه بهم والاقتداء بنصرتهم في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ الله كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى الله قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ الله}** [الصف ١٤]. فالحواريون هم أنصار الله بنصِّ القرآن، ولا يجوز على أنصار الله أنْ يجهلوا قدرة الله.

قال (ابن الأنباري) : لا يجوز لأَحد أنْ يتوهَّم أنَّ الحواريين شَكُّوا في قدرة الله [حدائق الروح والريحان ٨/ ١٤٥].

وقولهم: (هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) فمعناه: هل يستجيب الله لك (يا عيسى)؟ وهل يطيعك لإرسال مائدة لنا من السماء، إذ أنَّ مِن معاني (استطاع): استجاب وأطاع بمعنى: أجاب، ويستطيع بمعنى: يطيع، ويطيع بمعنى: يجيب. وقولك فلان استطاع فلاناً أي: استدعى طاعته وإجابته. [تفسير النسفي ١/ ٤٨٥، المعجم الوسيط ٢/ ٥٧٠].

هذا وقد قرأ جماعة من الصحابة والتابعين والقراء منهم (عليٌّ، وابن عباس، ومعاذ، وعائشةٌ) وسعيد بن جبير، ومجاهد، والكسائي : (هل

تستطيع ربك) [بالتاء] في الفعل خطاباً (لعيسى) وبنصْب ربَّك على المفعولية [تفسير القرطبي ٦/ ٣٦٤، روح المعاني ٧/ ٨٥].

والمعنى: هل تستطيع (يا عيسى) أن تسأل ربك من غير صارف يصرفك عن سؤاله؟ وهل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله عما نسألك؟

هذا ويجوز أيضاً أن يكون قولهم: (هل يستطيع ربك) معناه: هل يفعل ذلك وقد علِموا أنه يستطيع إلا أنَّ عِلْمهم باستطاعته كان [علم دلالة وخبر] فأرادوا [علم معاينة ومشاهدة]، أي أراد الحواريون أن ينتقلوا من [علم اليقين إلى عين اليقين] ليروا بأبصارهم قدرة الله وهي تعمل، وذلك كما أراد (إبراهيم الخليل) عليه الصلاة والسلام عندما قال: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى} [البقرة ٢٦٠].

وفي ذلك اطمئنان للقلب، ولهذا قال الحواريون في ردِّهم على (عيسى): {وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا} كما قال (سيدنا إبراهيم) لربه عزَّ وجلَّ: {وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}.

هذا (والمائدة) هي الخِوان بكسر الخاء وضمها الذي عليه الطعام، قال (قطرب والفارسي): ولا تسمي المائدة مائدةً حتى يكون عليها طعام، فإن لم يكن فهي خِوان.

وقال (الأخفش): المائدة هي الطعام نفسه [تفسير القاسمي ٦/ ٢٢١٤]، وجمع المائدة: موائد.

وأهل اللغة يقولون: المائدة مشتقة مِن ماد يميد أي: تحرك واضطرب وتمايل، ومنه قوله تعالى: {وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ

بِكُمْ} [النحل ١٥]. فسميت كذلك، لأنها تميد وتضطرب من كثرة ما عليها من أطعمة وأشربة. كما قالوا: المائدة من ماده يميده أي: أعطاه وأطعمه ونفعه وأحسن إليه، والمائدة تعطي مَن حولها مما عليها. هذا ويقال للمائدة ميدة، قال (الجَرْمي) وأنشد:

وَمَيْدَةٌ كَثِيرةُ الأَلْوان تُصْنَع للإخوَانِ والجِيرَانِ

[لسان العرب ٣/ ٤١١، مقاييس اللغة ٢/ ٤٩٤، المصباح المنير ٥٨٧].

هذا وفي القرآن الكريم ذُكرت كلمة مائدة (مرتين) فقط، الأولى على (لسان الحواريين) والأخرى على (لسان عيسى ابن مريم) وذلك في [سورة المائدة] والتي سميت بها وهي (الخامسة) في ترتيب المصحف الشريف.

هذا وما أن سمع (عيسى) عليه السلام سؤال الحواريين: {هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ} [المائدة ١١٢]، حتى قال لهم في حزم وتحذير: {اتَّقُواْ اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [المائدة ١١٢]. أي خافوا ربكم واخشَوْه من هذا السؤال وأمثاله مِن طَلَب الخوارق واقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات، فإنَّ ما جئتكم به منها فيه الكفاية، إنْ كنتم صادقين في إيمانكم بكمال قدرة الله تعالى، وبصحة نُبوَّتي، واحذروا العاقبة واتركوا العناد واتقوا الله، فالمؤمن لا يطلب الخوارق ولا يقترح على الله، وأخشى أنْ يكون سؤالكم هذا فتنة لكم.

وما أن سمع الحواريون كلام نبيهم وتأنيبه لهم، وتحذيرهم مِن مِثْل هذا السؤال حتى أجابوه بقولهم: {قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ

قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ} [المائدة ١١٣] مبينين مبررات طلبهم، وأنهم ما سألوا المائدة إلا [لأربع فوائد] وهي:

الأولى في قولهم: (نريد أن نأكل منها) وذلك أَكْل حاجة أو تبرُّك، أما الحاجة، فلأنهم جياع قد خوَتْ بطونهم، وأصبحوا في حاجة إلى ما يمسك رمَقهم، ويخفِّف من سَغَبهم، ولا يجدُون ما يسُدُّ حاجتهم من طعام، فطلبوا مائدة يقتاتون منها ويتقوَوْن بها على العبادة.

وأما التبرك، فلأنها مائدة سماوية لا أرضية، فأرادوا نَيْل البركة بما سيكون عليها من أطعمة.

الفائدة الثانية في قولهم: (وتطمئن قلوبنا) أي: ويزداد يقينهم إلى أنَّ الله سبحانه قد بعث (عيسى) إليهم نبياً، وأنه تعالى قد اختارهم أنصاراً لنبيه وأنه أجابهم لما سألوه فتطمئن قلوبهم لما يؤمنون به من قدرة الله، وذلك بمشاهدة خَرْقِه للعاده بإنزال مائدة من السماء.

الفائدة الثالثة في قولهم: (ونعلم أن قد صدقتنا) أي: نعلم علماً عياناً كما علمناه استدلالاً ونتيقَّن يقيناً لا يحوم حوله شائبة من الشك بصدقك (يا عيسى) في النبوة والرسالة، وفيما أخبرتنا به مما كان ومما سيكون.

وكأن الحواريين في هذين التبريرين يُشْبِهون - مع الفارق الكبير - (سيدنا إبراهيم الخليل) عليه السلام عندما قال: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى} [البقرة ٢٦٠] فلما قال له الله: {أَوَلَمْ تُؤْمِن} قال إبراهيم: {بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة ٢٦٠].

الفائدة الرابعة في قولهم: "ونكون عليها من الشاهدين" أي: إذا أنزل الله علينا المائدة ورأيناها بأعيننا، وأكلْنا منها، نكون يا رسول الله على هذه المعجزة في الدنيا والآخرة من الشاهدين لله بالوحدانية وكمال القدرة، ولك بالنبوة والرسالة، ونشهد بذلك عند (بني إسرائيل) الذين لم يحضروا المائدة إذا رجعْنا إليهم فيؤمن المستعد منهم للإيمان، ويزداد الذين آمنوا إيماناً فيكثر تابعوك ويزداد المؤمنون بك.

هذا و(أنْ) في قولهم: "ونعلم أن قد صدقتنا" فهي أنْ المخففة من أنَّ الثقيلة، واسمها ضمير الشأن تقديره أنه، وجملة (صدقتنا) في محل رفع خبر أن، و(قد) فاصلة بين أن وخبرها لأنَّ خبر أن المفتوحة إن كان جملة فعلية فعلها غير جامد ولا يفيد الدعاء وجب الفصل بينه وبين أن بفاصل مثل: [قد أو السين أو سوف أو لو] أو غير ذلك، من ذلك قوله تعالى: {**عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُمْ مَرْضَى**} [المزمل ٢٠].

هذا وما أن رأى (السيد المسيح) ﷺ أن للحواريين غرضاً صحيحاً في طلبهم إنزال المائدة وأنهم لا يريدون تعجيزاً ولا عنتاً، توجه إلى الله عزَّ وجلَّ في ضراعة وخشوع، وغَضَّ بصره وبكى وبكى وأخذ يدعوه كما نصت عليه آية [المائدة] : {**قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**} [المائدة ١١٤].

نعم نعم هكذا نادى (السيد المسيح) رَبَّه عزَّ وجلَّ بقوله: "اللهم ربنا".

(اللهم) أصله: يا الله حُذفت منه (ياء النداء) وعُوِّض عنها (الميم) في آخره، فصارت اللهم وكأنَّ هذا اللفظ العظيم تتهيأ به نفس الإنسان لمناجاة الله عز وجل في تقديس وثقة في أنَّ الله يستجيب لعبده.

وكلمة (ربنا) منادى حُذف منه حرف النداء تخفيفاً ودلالة على قُرْب المنادى من قلب المنادي.

(اللهم) و(ربنا) نداءان يقومان على حب العبد لمولاه تبارك وتعالى، فلا يوسط بينه وبينه سبحانه أي واسطة حتى وإنْ كانت هذه الواسطة حرفاً من حروف النداء، هذا ولفظ (اللهم) ورد في القرآن الكريم (خمس مرات).

أولها في [آل عمران ٢٦]: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ}،

وآخرها في [الزمر ٤٦]: {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}.

وأما لفظ (ربنا) ورد منادى في القرآن الكريم (ستاً وثمانين) مرة وكلها من غير ياء النداء:

أولها في [البقرة ١٢٧]: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}،

وآخرها في [التحريم ٨]: {رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا}.

قال [أبو السعود ٢/ ٧٣]: نادى (عيسى) ربه مرتين مرةً بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات (اللهم)، ومرة بوصف الربوبية المُنْبِئة عن التربية إظهاراً لغاية التضرع (ربنا).

هذا وقد قدَّم (عيسى) عليه السلام نداء الألوهية أولاً (اللهم) معترفاً بعبوديته لله جلَّ وعلا ملتزماً بالتكاليف القادمة منه سبحانه.

ثم جاء بنداء الربوبية (ربنا) الدال على معنى المُلْك والتدبير والتربية والإحسان، وقد أتى بضمير الجمع في (ربنا) وذلك للإشارة إلى أنَّ الرب سبحانه هو رَبُّ كلِّ شيء ورب المؤمن والكافر.

فكأنَّ (عيسى) عليه السلام قال: يا الله يا معبودَنا بحَقٍّ ويا ربَّنا بصدق، يا مالكنا كُلَّنا، ومتولِّي أمورنا، ومربِّينا، أنزِل علينا بمَنِّك وفضلك مائدة من السماء يراها هؤلاء المقترحون بأبصارهم، وتتغذَّى بها أبدانهم وأرواحهم.

ثم قال عليه السلام: "تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا" أي يا رب اجعل المائدة تعمُّنا بالخير والفرحة، ويكون يوم نزولها لنا نحن معشر المؤمنين عيداً خالصاً بِنا دُون غيرنا نحتفل به ونعظِّمه، ويكون يوم فرح وسرور لنا ولمن معنا في زماننا مِن أهل ديننا، ولمن يأتي بعدَنا مِن أولادنا وأتباعنا كي نعبدك فيه يا الله.

قال (كَعْبُ الأحبار): وقد نزلت المائدة عليهم (يوم الأحد)، ومِن أجْل ذلك اتَّخذه (النصارى) عيداً لهم.

قال (الخليل بن أحمد): (العيد) كل يومِ جَمْع، كأنهم عادوا إليه، وهو يعود كل عام.

وقال (ابن الأنباري): سُمِّي عيداً للعَوْد فيه من التَّرَح إلى المَرَح [زاد المسير ٤٢٠] فالعيد هو السرور العائد.

وفي اللغة [المصباح ٤٣٦، المفردات ٣٥٥، المقاييس ٢/ ١٩٦، اللسان ٣/ ٣١٨]: (العيد) هو الموسم الذي يحتفل فيه الناس بذكرى كريمة أو حبيبة، وهو يعاود مرة بعد مرة، وجمعه (أعياد) على لفظ الواحد فرقاً بينه وبين (أعواد) الخشب.

وقيل: أصله من عاد يعود أي رجع فالياء فيه أصلها الواو، وقُلبت ياءاً لانكسار العَيْن قَبْلها مثل ميزان وميقات.

وقيل (ليومي الفطر والأضحى): عيدان، لأنهما يعودان في كل سنة، وهُمَا في الشريعة يوما فرح وسرور للمسلمين، كما نَبَّه رسول الله ﷺ بقوله: (أيام أَكْل وشُرْب وبِعال).

هذا وفي القرآن الكريم لم يَرِد لفظ عيد إلا (مرة واحدة) وذلك في سورة [المائدة ١١٤] في قوله تعالى على لسان المسيح عيسى ابن مريم: **{اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ}**.

قوله: (وآية منك) أي تكون هذه المائدة آية وعلامة منك يا الله، تدل على وحدانيتك وكمال قدرتك، وتكون حجة شاهدة على صِدْق نبوَّتي وصحة رسالتي منك إلى (بني إسرائيل).

هذا وقد ختم (السيد المسيح) دعاءه بقوله: (وارزقنا وأنت خير الرازقين)، الجملة الاسمية هنا عند (البلاغيين) تسمى (تذييل جارٍ مجرى التعليل)، والمعنى واعطنا يا ربنا هذه المائدة التي سألناك إياها، وارزقنا منك رزقاً واسعاً متنوعاً ننتفع به ونستعين به على عبادتك،

وأنت يا الله خير الرازقين وأفضل المعطين وأجود الأجودين، فأنت خالق الرزق ومعطيه بلا عوض، بل اللهم ربنا لا رازق في الحقيقة غيرك ولا معطي سواك.

هذا ومِن محاسن دعاء (عيسى ابن مريم) أنه قدَّم القيم الروحية والفائدة الدينية على الفائدة المادية إذ قال: (تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك) ثم قال: {وارزقنا وأنت خير الرازقين}.

مع تعميمه النفع والفرح لجميع أتباعه من الأولين والآخِرين، ومع اختياره لكلمة الرزق دون الأكل حتى يَعُمَّ الطلب من الله، فالرزق يشمل كل شيْ يحتاج إليه الناس مِن أَكْل وشُرب ومَلْبس وعِلْم وهداية.

بينما الحواريون قدَّموا بشريتهم إذ قدَّموا الفائدة المادية على القيمة الروحية فقالوا: (نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا) ولا غرو في ذلك (فعيسى) عليه السلام نبيٌّ رسول من أولي العزم، وهُمْ مهما كانت درجتهم فلا يَصِلُون إلى درجة الأنبياء.

واختلف المفسرون في أنَّ (عيسى) عليه السلام هل سأل المائدة لنفسه ولقومه، أو سألها لقومه فقط، وإنْ كان قد أضافها إلى نفسه في الظاهر. قال [الإمام الرازي ١٢/ ١١٠]: كِلاهما محتمل والله أعلم.

هذا وقد استجاب الله تعالى لدعاء نبيه عليه السلام ووعَدَه بإنزال المائدة عليهم وحذَّرهم سبحانه مِن أنْ يكفروا بعد إنزال هذه الآية، قال تعالى في سورة [المائدة ١١٥]: **{قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ}**.

قرأ (نافع وابن عامر وعاصم) (مُنَزِّلها) بالتشديد، وقرأ (باقي السبعة): (مُنْزِلها) بالتخفيف، وقرأ (الأعمش): (إني سأُنْزِلها) بسين الاستقبال.

وقيل: منزلها بالتشديد أي مَرَّةً بعد أخرى، ومنزلها بالتخفيف أي مرةً واحدة، و(عليكم) أي على الحواريين ومن معهم وهذا وَعْدٌ مِن الله تعالى (لنبيه عيسى) بإنزال المائدة مرة أو مراراً، ووعْدُه الحَقُّ، وإنَّ الله لا يخلف الميعاد.

لكنه سبحانه رتَّب شرطاً على هذا الوعد، متوعداً بعذاب، أيِّ جاحد بهذه النعمة بعد أنْ ينزلها إذ قال: {**فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ**}.

(الفاء) في (فمن) عاطفة، و(مَنْ) اسم شرط جازم يجزم فعلين، (يكفر) فعل الشرط مجزوم، (بَعْدُ) ظرف زمان مبني على الضم في محل نصب، (منكم) جارٌّ ومجرور في محل نصب حال بالفاعل يكفر، (فإني) الفاء واقعة في جواب الشرط، لأنه جملة اسمية سبقت بإنَّ الثقيلة التوكيدية، وجملة إن واسمها وخبرها في محل جزم جواب من الشرطية، و(عذاباً) أي تعذيباً فهو مفعول مطلق.

والمعنى: فمن يكفر بعد إنزال المائدة منكم أيها الحواريون الذين طلبتموها فإني أعذبه عذاباً شديداً لا أعذِّب مثله أحداً من سائر كُفَّار العالمين، و(العالمين) إمَّا عامة على الإطلاق، وإما عالَمي زمانهم. وسبب هذا التعذيب لأن الجاحد يكون قد شاهد الآية الباهرة وكَفَر عناداً وظلماً فاستحقَّ العذاب الأليم والعقاب الشديد.

قال (الزجاج): ويجوز أنْ يكون ذلك العذاب مُعجَّلاً لهم في الدنيا، ويجوز أنْ يكون مؤخَّراً إلى الآخرة.

هذا وقد روى (قتادة) رحمه الله: أنَّ مَن كفَر منهم عُذِّب في الدنيا بمسخه (قردة وخنازير) ومكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا.

وأمَّا عذاب الآخرة فيشير إليه ما رُوي عن (عبدالله بن عمر) رضي الله عنهما قال: إنَّ أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون.

وقد اختلف العلماء في (نزول المائدة) على قولين،

أحدهما أنها لم تنزل وهذا قول (الحسن) و(مجاهد)، أما (الحسن) فقال: إن القوم لما سمعوا قوله تعالى {فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين استغفروا وقالوا لا نريد المائدة ولا حاجة لنا فيها.

وأمَّا (مجاهد) فقال: هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لخَلْقه لينهاهم عن مسألة الآيات مِن أنبيائه، ولم ينزل على الحواريين شيء.

أما القول الثاني فالمائدة نزلت، وهذا قول الجمهور مِن المفسرين واختاره (الإمام ابن جرير) لأن الله تعالى قال: "إني منزلها عليكم" وهذا وَعْدٌ بالإنزال جزماً من غير تعليق على شرط، ووعْد الله ووعيده حَقٌ وصِدق.

و(الحافظ ابن كثير) أورد في [تفسيره ٢/ ١١٦] عِدَّة أخبار رُويت عن السلف في نزول المائدة على الحواريين وعلَّق عليها بقوله: وكل هذه الآثار دالة على أنَّ المائدة نزلتْ على (بني إسرائيل) أيام (عيسى ابن مريم) عليه السلام إجابةً مِن الله لدعوته كما دَلَّ على ذلك ظاهر سياق القرآن العظيم.

وقال [صاحب روح المعاني ٧/ ٩٠]: والجمهور على أنَّ المائدة نزلت وعليه المُعَوَّل.

وفي تصدير قوله تعالى: "إني منزلها" بكلمة التحقيق (إنَّ) وجَعْل خبرها اسماً تحقيقٌ للوعد وإيذانٌ بأنه سبحانه مُنْجِزٌ له لا محالة.

هذا والذين قالوا بنزول المائدة تعدَّدت أقوالهم في (الطعام الذي أُنزل فيها) وأرجحها - والعلم عند الله - ما رُوي عن (سلمان الفارسي) ﷺ: أن الله تعالى أنزل عليهم سُفْرةً حمراء بين غمامتين، غمامة فوقها وغمامة تحتها وهُمْ ينظرون إليها (وعيسى) يبكي ويتضرع ويقول: إلهي اجعلها سلامةً ورحمة ولا تجعلها مُثْلةً وعذاباً، حتى استقرَّت بين يديه، والحواريون مِن حولِه، وعلى السفرة مِنْديل، فقال لهم (عيسى): لِيَقُمْ أحسنكم عملاً فليأخذْ هذا المنديل، ويكشف لنا عن السفرة!

فقالوا: (يا روح الله) أنتَ أولانا بذلك، فقام (عيسى) وتوضَّأ وصلَّى وبكى، ثم تناول المنديل وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا على السُّفرة (سمكة ضخمة مشوية) ليس عليها فُلوس أي: قِشْر، وليس فيها شَوْك، وعند رأسها ملحٌ، وعند ذَنَبِها خلٌّ، وحولها بقول من كل صنف إلا الكُرَّاث، وحول البقول خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمنٌ، وعلى الرابع جبنٌ، وعلى الخامس قديد، وفي رواية خمسُ رُمَّانات!!

فقال (شمعون) (رأس الحواريين): (يا روح الله) أَمِنْ طعام الدنيا هذا؟ أم من طعام الجَنَّة؟ فقال (عيسى): سبحان الله أَما آن لكم أنْ تعتبروا من الآيات، وتنتهوا عن تنقير المسائل؟ وما أخوفني عليكم!؟

ثم قال عليه السلام: ليس شيءٌ مما ترَوْن من طعام الدنيا، ولا من طعام الجنة، إنما هو شيءٌ ابتدعه الله في الهواء بالقدرة البالغة العالية، فقال له كُن فكان أسرع مِن طَرْفة عَيْن، فكلوا مما سألتم باسم الله، واشكروا ربكم يُمْدِدكم ويَزِدكم من فضله.

قيل: فأكل منها خَلْق كثير فشبع كل جائع، وصحَّ كل مريض، وما على السفرة ظَلَّ كهيئته حين نزلتْ لم ينقص منه شيء، ثم إنَّها ارتفعت إلى جوِّ السماء وهم ينظرون إلى ظِلِّها في الأرض حتى توارى عنهم، والله أعلم!!

قال [صاحب الظلال رحمه الله ٢/ ٩٩٨] – بتصرف – :

وهذا الحوار – حوار طَلَبِ مائدةٍ من السماء – يكشف لنا عن طبيعة (قوم عيسى) المستخلَصين منهم وهم (الحواريون) .. فإذا بينهم وبين (أصحاب رسولنا) ﷺ فرقٌ بعيد.. إذ الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله، فآمنوا، وأشهدوا نبيهم على إسلامهم، ومع هذا فَهُم بعد ما رأَوْا من معجزات (نبيهم عيسى) ما رأوا، يطلبون خارقةً جديدة تطمئِنُّ بها قلوبهم، ويعلمون منها أنه قد صَدَقهم!!

أمَّا (أصحابُ محمد) ﷺ، فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم. لقد آمنت قلوبهم رضوان الله عليهم واطمأنَّت منذ أنْ خالطتها بشاشة الإيمان، ولقد صدقوا رسولهم، فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان، ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا (القرآن الكريم).

هذا هو الفارق الكبير بين (حواريي عيسى) عليه السلام (وصحابة محمد) ﷺ، وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون، ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله.

هذا وقد استمر (نبي الله عيسى) في دعوته إلى الله تعالى، وأعداؤه من (كهنة اليهود) يخططون لقتله.

***

الفصل الثالث عشر :
وما قتلوه وما صلبوه

لقد أعلن (السيد المسيح عيسى ابن مريم) ﷺ لقومه (بني إسرائيل) أنه رسول الله إليهم جاءهم مصدِّقاً لما بين يديه من (التوراة) وليُحِلّ لهم بعض الذي حُرِّم عليهم، وأنَّ الله ربه وربهم آتاه (الإنجيل) فيه هدى ونور، وأيَّده من عنده بالآيات المعجزات، فوجب على قومه أن يعبدوا الله ويتَّقوه، وأنْ يطيعوا رسوله فيما يدعوهم إليه مِن التوحيد والإيمان بيوم الجزاء والحساب، وفيما يأمرهم به من تنقية الأرواح، وتطهير القلوب، والتخفُّف من المادِّيات، ومن الحُبِّ والعفو والتسامح فيما بينهم، ومن العدل والأمانة والتواضع في أحكامهم ومعاملاتهم، ومن مساعدة الفقراء والمرضى والمحتاجين.

فأثارت دعوته (كهنة اليهود)، لأنها أخذتْ تفضحهم وتَحْرِمهم مما صنعوا لأنفسهم على مدى أزمان طويلة مِن قداسة، ومن ثراء، ومن سُلْطة، لهذا حسَدوا نبيهم (عيسى) ﷺ، وعادوه، وكفروا به، وسخروا بمعجزاته، وقال الذين كفروا منهم إنه ساحر، وسلَّطوا عليه سفهاءهم.

ورمَوْا (أُمَّه الطاهرة) بالفاحشة بهتاناً، ووشَوْا به عند (الوالي الروماني) الذي كان يحكم (دمشق وفلسطين) زاعمين له أن (عيسى) يفتِن الناس، ويُفسد على المَلِك رعاياه، ويقول: إنه (مَلِكُ اليهود) الذي سيهدِم (عرش الرومان)، فغضِب الوالي وأباح للقوم (دم عيسى)، فأخذوا يخططون لقتله، وفجأة ووسط ضجة شعبية قالوا: إنهم (قتلوا المسيح رسول الله)، فردَّ الله تعالى عليهم قولهم ونفاه بما جاء في [سورة النساء ١٥٦ – ١٥٨] في قوله تعالى:

{وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً}.

أي: بكفر (بني إسرائيل) (بالمسيح) وإنكارهم (نبوة المسيح)، وإنكارهم قدرة الله تعالى على خلْق الولد من دون أب، وقذْفهم (السيدة مريم) مع ظهور الأدلة القاطعة على براءتها، لهذا في (سورة النساء) هذه وصف الله تعالى (طعن اليهود) فيها بأنه بهتانٌ عظيم، كما وصف سبحانه في (سورة النور) (طعن المنافقين) في أمِّ المؤمنين (السيدة عائشة) بأنه بهتان عظيم، وهذا يدل على أن الذين يطعنون في (عائشة الصِّديقة بنت الصِّدِّيق) هم بمنزلة (اليهود) الذين يطعنون في (مريم الصديقة الطاهرة).

هذا وبعد أنْ كَفر (جمهور بني إسرائيل بالسيد المسيح)، وقالوا في أمه البهتان العظيم، قالوا تخرُّصاً وتبجُّحاً: "إنَّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله"، وقال الله تعالى وهو أصدق القائلين: "وما قتلوه وما صلبوه". إذاً فقد كذَب (اليهود) فيما قالوا، وصدق الله العظيم فيما أخبر.

هذا وفي اللغة: [المصباح، المفردات، المقاييس، اللسان] يقال (قَتله يقتُله قتْلا): إذا أماته وأزهق روحه، فهو (قتيلٌ والمرأة قَتيل) أيضاً إذا كان وصفاً لها، والجمعُ فيهما (قَتْلَى)، (والقِتْلة) بالكسر اسم الهيئة يقال: قتله قتلة سوء، (والقَتْلة) بالفتح المرَّة الواحدة، و(المَقْتَل) بفتح الميم والتاء هو الموضع الذي إذا أصيب لا يكاد صاحبه يَسْلم، وجمعه

(مَقاتِل)، وقولهم: (ومَقْتَل الرجل بين فَكَّيه) أي: لسانه وما ينطق به، و(المقتلة) هي: معركة القتال.

أما قولهم: (قلْبٌ مُقتَّل) أي بَرَّح به العشق، (وتقتَّلت المرأة في مِشْيتها) أي: تثنَّتْ وتكسَّرت، (وتقتَّلت للرجل) أي تدَّللت وتزَّينت حتى عَشِقها.

هذا ويقال (صَلَبه يَصْلِبه ويَصْلُبه صلْباً) من بابي ضرب، وقتل أي: شَدَّ صُلْبه على خشبة قائمة وثبَّت يديه ورجليه، وعلَّقه على هذه الحالة حتى الموت فهو (مصلوب).

قال تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ} [النساء ١٥٧]. وقال تعالى: {وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ} [يوسف ٤١] على البناء للمفعول. وقال تعالى: {وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه ٧١] بالتشديد للمبالغة. ويقال صَلُب الشيء يَصْلُب صلابة معناه: اشتدَّ وقَوي فهو (صُلْبٌ) وسمِّي (الظَّهر) صُلبا لصلابته وقوَّته، ولما فيه مِن فَقَار تشدُّه، وجمعه أصلاب، قال تعالى: {خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} [الطارق ٦، ٧]. وقال: {وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ} [النساء ٢٣].

هذا (وصليب النصارى) هو: الذي يتقرَّبون به ويقدِّسونه لكونه على هيئة الخشَب الذي زعموا أن (عيسى) صُلب عليه،

والثوب المصلَّب: هو الذي عليه نَقْشُ صليب، وفي الحديث: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى الصليب في ثوب أو في موضع قضبه، أي: قطعه [النهاية ٣/ ٤٤].

أما قوله: "شبه لهم" فمادته (ش ب هـ)، الشين والباء والهاء أصلٌ واحد يدل على تشابه الشيء وتشابكه لوناً ووصفاً، يقال: (شبَّهتُ الشيء بالشيء) بمعنى: أقمته مقامه لصفةٍ جامعةٍ بينهما، (وأشبه الولد أباه وشابهه): إذا شاركه في صفةٍ من صفاته، ويقال (اشتبهت الأمور وتشابهت) أي: الْتَبست واستشكلت فلم تتميز ولم تظهر، (وشبَّهته عليهم تشبيها) مثل لبَّسته عليهم تلبيساً وزناً ومعنًى.

(فالمشابهة) هي: المشاركة في معنًى مِن المعاني، (والاشتباه) هو الالتباس.

هذا وفي قوله تعالى: "رسول الله" قولان - والعلم عند الله -

أحدهما: أنه من (قول اليهود) الذين قالوا: إنَّا قتلنا (المسيح عيسى ابن مريم)،

والثاني: أنه من قول الله تعالى [زاد المسير ١ ٣٤١].

فإذا كان من قول الله تعالى، فهو مستأنف، وجاء مدحاً (لعيسى) وتنزيهاً له عن مقالتهم القبيحة التي كانوا يَذْكُرونه بها، وفيه أيضاً إشارة لوقاحتهم في قتْل رُسُل الله، وفيه إثبات مِن الله أنَّ (عيسى) رسول الله رَغْم أنوفهم.

وأمَّا إذا كان قوله: "رسول الله" مِن (قول اليهود القتلة) فهو متصل بقولهم: "إنا قتلنا (المسيح عيسى ابن مريم) رسول الله على أنهم قالوه على سبيل التهكُّم والاستهزاء وأنَّ (عيسى) ادَّعى النبوة والرسالة، فهو

في نظرهم رسول الله على زعمه وزَعْم مَن اتبعه، وذلك كقول (فرعون): {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} [الشعراء ٢٧]، وفي قولهم هذا أيضاً دليل على عظيم جُرْمهم وكُفْرهم، إذ قد عرفوا أن (عيسى) رسول الله ومع ذلك أقدموا على قتله.

وقتْل أنبياء الله ورُسله عليهم السلام هو خطيئة مِن (خطايا اليهود) ورذيلةٌ من رذائلهم، مارسها أسلافهم، ورضي وسكت عنها مَن بَعْدَهم، وقد تحدَّث عنها القرآن الكريم في أكثر من موضع، ونـدَّد بها، وانتقم لها الله العزيز الجبار، من ذلك قوله تعالى: {لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ} [المائدة: ٧٠].

وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[آل عمران: ٢١].

وقوله تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ الله وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ الله وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [آل عمران: ١١٢].

هذا وإذا كان اليهود الذين عاصروا (عيسى ابن مريم) وكفروا به، وهو آخر أنبياء (بني إسرائيل)، قد زعموا أنهم قتلوه عليه السلام، متباهين متبجِّحين بذلك، فإنَّ الله تعالى قد كَذَّبهم ووبَّخهم بقوله وهو أصدق

القائلين: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً} [النساء ١٥٧، ١٥٨].

نعم (فاليهود) في الواقع ما قتلوا (المسيح عيسى)، بل قتلوا شخصاً آخر ظانِّين أنه (المسيح) ، وقَبْل أنْ يصلبوا المقتول أرجفوا بقتله، وأشاعوا بين الناس أنهم قتلوا (المسيح عيسى ابن مريم) رسول الله ولهذا قالوا: (إنا قتلنا المسيح)، ولم يقولوا: (إنا قتلنا وصلبنا المسيح).. وبعد أنْ قتلوا الشخص الآخر، وبعد أنْ أشاعوا كَذِبتهم قاموا بصلب المقتول، فتوهَّم الناس أنهم قتلوا رسول الله وصلبوه.. فقال الله تعالى وهو الذي يعلم السِّرَّ في السموات والأرض: "وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم".

هذا وقد تعدَّدت وتعارضت الروايات فيمن شُبِّه لهم،

أذكر لكم منها بإيجاز روايتين:

الأولى: أنَّ رهطاً مِن (اليهود) اجتمعوا على قَتْل (عيسى) عليه السلام انتقاماً لجماعة منهم دعا عليهم (السيد المسيح)، فأخبر الله تعالى نبيَّه بأنه سيرفعه إلى السماء! فقال (عيسى) لتلاميذه الحواريين:

أيكم يرضى أنْ يُلْقَى عليه شَبَهي، فيُقتَل مكاني، فهو رفيقي في الجنَّة؟ فقام شابٌّ منهم وقَبِل هذه المهمَّة، فألقى الله عليه (شبه عيسى) ، (ورفع عيسى) مِن فتحة في سقف البيت إلى السماء، ودخل الرهط من (اليهود) فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه!

الرواية الثانية: أن (يهوذا الإسخريوطي) وهو أحد حواريي (عيسى) عليه السلام، قد نافق فدل (كهنة اليهود) على المكان الذي يختبىء فيه (عيسى) وبقية الحواريين. وذلك مقابل (ثلاثين قطعة من النقود)، فأرسلوا معه جماعة من الجنود، فاقتحموا على (عيسى) مخبأه، ففتحت رَوْزَنة في سقف البيت، ورُفع منها (عيسى) عليه السلام إلى السماء، وألقى الله على (يهوذا) شبَه عيسي فأخذه الجنود اليهود ظانِّين أنه (عيسى)، وأوثقوه وأهانوه، ولم يَفْلح (يهوذا) في إقناعهم بأنه ليس (عيسى) حتى قتلوه وصلبوه ووضعوا الشَوْك على رأسه.

هذا ولم يَرِد شيء من ذلك التفصيل في كتاب الله العزيز، ولا في سُنَّة رسوله الصحيحة فلا نُكُلَّف الإيمانَ به.

هذا وفي قوله تعالى: {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ}، قال (الحافظ ابن كثير في التفسير ١/ ٥٧٤): يعني بذلك مَن ادَّعى أنه قتل (المسيح) من اليهود، وممن سلَّم لهم من (طوائف النصارى) فكُلُّهم في شكٍّ من ذلك وحَيْرة وضلال وسُعُر.

وفي [تفسير الرازي ١١/ ٨٠]: (فالنَّصارى) بأَسْرِهم متَّفِقون على أن (اليهود قتلوا المسيح عيسى ابن مريم)، ثم اختلفوا في الذي قُتل فيه، وطوائفهم الكبار ثلاثة: النِّسْطُورية، والملَكَانية، واليَعْقُوبية..

أما النسطورية: فقد زعموا أن (المسيح) قُتِل وصُلب من (جهة ناسوته) لا من جهة لاهُوته، وقالوا: كان فينا (ابن الله) ما شاء ثُم رفعه الله إليه.

وأما الملكانية: فقالوا: (المسيح ثالث ثلاثة) وأنَّ القتل والصلب وصلا إلى (اللاهوت) بالإحساس والشعور، لا بالمباشرة.

والطائفة الثالثة اليعقوبية: قالوا: القتل والصلب وقعا (بالمسيح) الذي هو جوهرٌ متولِّد من جوهرين، وقالوا: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء.

فهذه شكوك النصارى ومذاهبهم الذين اختلفوا في (المسيح) عليه السلام.

أما (اليهود) الذين اختلفوا فيه، فإنهم لما قتلوا الشخص المُشبَّه به، وكان الشَّبه، اختلفوا فيه..

فقال بعضهم: الوجه وجه (عيسى)، والبدَن بدن غيره، فهذا المقتول (ليس عيسى).

وقال بعضهم: بل هذا هو (عيسى).

وقال بعضهم: إنْ كان هذا (عيسى) فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين (عيسى)؟

فذلك (اختلاف اليهود) فيه.

قال تعالى: { **مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ** }.

أي: ما لليهود بقتل (عيسى) من يقين أُقتل أَمْ لم يُقتل؟ إلا اتِّباع الظَّنِّ، فهم يتَّبعون في ذلك ظنَّهم الذي تخيَّلوه، و{**إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**} [يونس ٣٦].

والقرآن الكريم يقرِّر قراره الفصل، فكما قال في أول الآية: {**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ**} قال في نهايتها: {**وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً**} [النساء ١٥٧].

أي: وإنَّ القتَلَة ما قتلوا (المسيح عيسى ابن مريم) رسول الله وهُمْ متيقِّنون أن المقتول هو (عيسى بعَيْنه) بل كانوا شاكِّين متوهِّمين، وقد نجَّى الله تعالى نبيَّه ﷺ من أعدائه ومريدي قَتْله.

{وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران ٥٤].

هذا وإذا كان (نبي الله عيسى) قد نجا ولم يُقْتل ولم يُصْلب، فأين هو ساعة القبض على شبهه؟

والجوابُ القاطع نَجِدُه في قوله تعالى: {بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً} [النساء ١٥٨].

وجمهور المفسرين قالوا: {رفعه الله إليه} أي: إلى السماء.

(فنجاة عيسى) ﷺ من القتْل، ورَفْعهُ إلى السماء ثابتٌ بهذه الآية.. وفي (الحديث النبويِّ) ورَد أنَّ (عيسى) في السماء الثالثة (الجامع الصحيح)، وفي حديث المعراج أنه ﷺ في السماء الثانية.

أقول: وسواء كان في الثانية أو الثالثة أو الرابعة.. فذاك موضعٌ رفيع لا يجري فيه حُكْمٌ غير حُكْم الله عزَّ وجلَّ.

وكما أخبرنا رسول الله ﷺ: أن (عيسى) مُقيمٌ هناك إلى أن يُنزِله الله تعالى إلى الأرض فيقتل (الدجَّال) أو يكسر الصليب، ويملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً، ويمكث فيها مدة من الزمن، ثم يموت كما يموت البشر، كما سيأتي الحديث عن ذلك إن شاء الله.

هذا (ورَفْعُ عيسى) بروحه وجسده من الأرض إلى السماء لا صعوبة فيه بالنسبة إلى قدرة الله تعالى وحكمته. فالله سبحانه عزيزٌ في مُلْكه يَغْلِب ولا يُغْلَب، حكيمٌ في صُنْعِه، كاملٌ في عِلْمه، لا يُرام جنابه، ولا يُضام مِن

لاذ ببابه. وبهذه العِزَّة العزيزة أنقذ سبحانه عبده ورسوله (عيسى) من (اليهود الماكرين وحُكَّام الروم الظالمين) وبحِكمته الحكيمة سبحانه وتعالى جازى كل عامل بعمله وبما يستحِقُّه.

هذا و(النصارى) الذين ادَّعَوْا (ألوهية عيسى) أو أنه (ابن الله)، كان الواجب عليهم أنْ يعترضوا على مسألة قَتْله وصلبه المزعومة، وأنْ ينكروا وقوعها، إذ كيف يقولون بألوهية أو ابن ألوهية، ثم يجيء أعداؤهم وأعداؤه فيَقْدِرون عليه ويقتلونه ويصلبونه؟!

وأما قول بعضهم إنَّ القتل والصَّلْب وقعا (على ناسوته لا على لاهوته)، أو وصلا إلى (اللاهوت بالشعور لا بالمباشرة)، وما إلى ذلك من مزاعمهم، فهي من ضَلَالهم وضُلَّالهم. وأقبحُ من ذلك قولُ بعضهم: إنَّ الله ضحَّى بابنه الوحيد ليغفِر خطيئة الإنسان الأول (وهو آدم عليه السلام) وخطايا ذُرِّيته، فهذا ضلال آخَر يضاف إلى ضلالهم الأول.

وقد أرشدَنا الله تعالى نحن المسلمين مِن (أمَّة سيدنا محمد) ﷺ أنْ نسأله سبحانه وتعالى في كُلِّ ركعة مِن صلواتنا أنْ يهدَينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم، وهُمُ (المؤمنون) غير المغضوب عليهم وهم (اليهود) ولا الضالين وهُم (النصارى). فالحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين(سيدنا محمد) وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا ومادام الله تبارك وتعالى قد أخبر بأنه رفع نبيَّه (عيسى) إليه بقوله تعالى في [النساء ١٥٨]: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾، وجب علينا أن نُصدِّق هذا، كما صدَّقنا مِن قَبْلُ أنَّ (عيسى) جاء مِن أمٍّ دون أب.

فالميلاد والنهاية بالنسبة (للسيد المسيح) كلٌّ منهما عجيبة، فهو عليه السلام دخل الحياة بمعجزة، فلماذا لا يخرج منها بمعجزة؟!

هذا وفي سورة [آل عمران ٥٥] جاء ذِكْر (رفْع عيسى ابن مريم) إلى السماء على وجه الامتنان مِن الله عليه، وذلك في قوله تعالى:

{إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}.

أي: اذكُر (يا محمد) لأمَّتك وللناس أجمعين، إذ قال الله تعالى لعبده ونبيِّه (عيسى) عليه السلام على سبيل الامتنان بنعمته سبحانه عليه:

{إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}..

قوله: "متوفيك" مادته (و ف ى)، في اللغة [المقاييس ٢/ ٦٤٠، المفردات ٥٤٣، المصباح ٦٦٧، الكليات ٣١٣، اللسان وفى، المعجم ٢/ ١٠٤٧]:

الواو والفاء والحرف المعتل، كلمة تدل على إكمال وتمام، ومنه (الوفاء)، وهو إتمام العهد وإكمال الشرط.

يقال: وفَّى بعهده وفاءً، وأوفى به إيفاءً.. إذا تمَّمه ولم ينقص منه شيئاً. والفاعل: [وفيٌّ وموُفٍ]، والجمع: (أوفياء ومُوفون).

وفي كتاب الله العزيز: **{وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا}** [البقرة ١٧٧].

(والوافي): الذي بلغ التَّمام، يقال: كَيْلٌ وافٍ، قال تعالى: **{وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ}** [الأنعام ١٥٢]. ويقال: أوفاهُ حقَّه ووفَّاه، أي: أعطاه إياه وافياً تامًّا.

ويقال: توفِّي فلانٌ حقَّه واستوفاه، أي: أخذه وافياً تاماً.

قال تعالى: {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ} [الزمر ٧٠].

وقال تعالى: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر ١٠].

ومنه يقال للميت: توفَّاه الله، أي: أماته وقبض روحه، فالوفاةُ: موت، والجمع: وَفَيات. والفعل من الوفاة: تُوفِّي على ما لم يُسَمَّ فاعله، وذلك لأن الإنسان لا يتوفَّى نفسه بل الله يتوفَّاه.

فالمتوفِّي.. بالكسر على صيغة اسم الفاعل هو الله تعالى أو أحدُ ملائكته.

والمتوفَّى.. بالفتح على صيغة اسم المفعول هو العبدُ المخلوق.

قال تعالى: {وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ} [النحل ٧٠].

وقال تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ} [السجدة ١١].

هذا وكما عُبِّر عن الموت بالتَّوفّي، عُبِّر عن النوم أيضاً بالتَّوفي..

قال تعالى: {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} [الزمر ٤٢].

وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ} [الأنعام ٦٠].

فالموتُ نوْمةٌ كبرى، والنوم موتةٌ صغرى.

هذا ومادة (وفى) في القرآن الكريم وردت (ستاً وستين مرة):

أولها [البقرة ٤٠]: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}.

وآخرها في [المطففين ١، ٢]: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ}.

وعلى هذه المعاني المتعددة تعدَّدت أقوال المفسرين في تأويل كلمة (متوفيك) في قوله تعالى: {يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}، على عِدَّة معانٍ أشهرها ثلاثة وهي: الموت، والنوم، والأخذ تاماً..

فعلى المعنى الأول: (متوفيك)، أي: مميتك.

قال (ابن عباس) رضي الله عنهما: أمات الله (عيسى) ثم أحياه.

وقال (وَهْبُ بْنُ مُنبِّه): توفَّى الله (عيسى ثلاث ساعات) مِن أول النهار حين رفعه إليه.

وقال غيرهما: واو العطف تأتي لمُطلق الجمع بين المتعاطِفَيْن، فلا تقتضي الترتيب، وعليه ففي الآية تقديم وتأخير تقديره: إني رافعك إلي ومتوفيك يعني بعد ذلك .. والسرُّ في ذِكْر الوفاة مع الرفع ليُعْلَم أن الوفاة أمر مقطوعٌ به، ولكنَّ الرفع هو عملية مرحلية!

وعلى المعنى الثاني: المراد بالوفاة في الآية : النوم.

كما قال الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ} [الأنعام ٦٠].

وكما كان رسولنا ﷺ يقول إذا قام من النوم: {الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا}.

وقال (الحسن): رفَع الله (عيسى) في منامه.

ورُوي عن (الربيع): أن الله تعالى رفع (عيسى) عليه السلام إلى السماء وهو نائم رفقاً به.

وعلى المعنى الثالث: (متوفِّيك)، أي: قابضُك من الأرض وافياً تاماً ببدنك وبروحك، وأصونك عن أنْ يقتلك أعداؤك، وإني متمِّمٌ عُمُرك حتى تستوفي أجَلك فتموت حَتْف أنفِك.

وهذا المعنى هو أولى وأرجح المعاني، لأنَّ الله تعالى أرحم مِن أنْ يجمع على (عبده عيسى) ميتتين قبل الرفع إلى السماء، وبعد الإنزال منها!

قال تعالى: "ومطهِّرك من الذين كفروا"، أي: منجِّيك (يا عيسى) من الذين كفروا بك وبرسالتك، وأرادوا قتْلك، وذلك برفْعي إياك إلي، أي: إلى السماء.

هذا وقد جاء التعبير القرآني (مطهرك) دون (مخلِّصك)، وذلك للإشارة إلى نجاسة الكفر والكافرين، وللدلالة على إعلاء شأن (عيسى) عليه السلام وعظيم منزلته عند ربه تبارك وتعالى.

قال تعالى: {**وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**} [آل عمران: ٥٥].

والذين اتَّبعوك (يا عيسى) هم (النَّصارى) الذين آمنوا بك وبشريعتك، واعتنقوا دينك، وصدَّقوا أنك عبدالله ورسوله.. يجعلهم الله تعالى فوق الذين كفروا بك وهم (اليهود)، وذلك بالقهر والسلطان.

وأمَّا بعد (بعثة محمد خاتم النبيين)، فالذين اتَّبعوا (عيسى) عليه السلام هم (المسلمون)، لأنهم يؤمنون بالله وملائكته وكُتبه ورسله، ولا يفرِّقون بين

أَحد مِن رسله، فهُم أتباع كل نبي، وهم أولى به من أمته الذين يزعمون أنهم على مِلَّته، وقد حرَّفوا وبدَّلوا فيها.

ولهذا (فدِين الإسلام) لا ولن يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كلِّ دين إلى يوم القيامة.

وقد انتقم الله الجبَّار من (اليهود) الذين كفروا (بالمسيح)، وقذفوه واتهموه في أمه، وسخروا من معجزاته، وأرادوا قتله.

كما انتقم من (النَّصارى) الذين غالوا في (عيسى)، فجعله بعضهم (ابن الله)، وقال آخرون: (هو الله)، وقال آخرون منهم: (هو ثالث ثلاثة) الأب والابن وروح القُدُس.

انتقم سبحانه من هؤلاء وهؤلاء في (الدنيا) بالقتل والسَّبي)، وأخْذ الأموال، وإزالة الممالك { إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ } [الفجر ١٤].. وفي (الدار الآخرة) عذابهم أشدَّ وأشقَّ، قال تعالى: {ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ} [آل عمران ٥٥ – ٥٨].

صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم، ونحن على ذلك إن شاء الله من الشاهدين والشَّاكرين.

***

الفصل الرابع عشر :
نزول عيسى من السماء

لقد عِشْنا ولله الحمد مع سيرة (السيد المسيح) ومَن ما يتصل به في كتاب الله العزيز، منذ ميلاده عليه السلام حتى رفعه إلى السماء، وبقي علينا من هذه السيرة جانبان:

الأول: نزوله عليه السلام من السماء إلى الأرض في آخر الزمان.

والثاني: شهادته عليه السلام على قومه يوم القيامة.

أما الجانب الأول فقد ورد في (القرآن الكريم) مجملاً وفي (الحديث النبوي) مفصَّلاً.

قال تعالى في سورة [الزخرف ٦١]: **{وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}**.

وقال تعالى في سورة [النساء ١٥٩]: **{وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً}**.

قال [الحافظ ابن كثير في التفسير ٤/ ١٣٢] في قوله تعالى: { وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ } : والصحيح أن (الضمير) في (وإنه) عائد على (عيسى) عليه الصلاة والسلام، فإن السياق في ذِكْره، ثم المراد بذلك نزوله عليه الصلاة والسلام قبل يوم القيامة.. ويؤيِّد هذا المعنى القراءة الأخرى (وإنه لعَلَمٌ للساعة) أي: أمارة ودليل على وقوع الساعة. وقال (مجاهد): {وإنه لعَلَمٌ للساعة) أي: (خروج عيسى ابن مريم) عليه السلام قبل يوم القيامة. وهكذا رُوي عن (أبي هريرة وابن عباس وعكرمة) وغيرهم، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر (بنزول عيسى ابن مريم) عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحَكَماً مُقْسطاً.

وفي [زاد المسير ١٢٨٢]: قرأ الجمهور (وإنه لعِلْم) بكسر العين وتسكين اللام، أي (نزول عيسى) عليه السلام شرط من أشراط الساعة الكبرى يعلم به قربها. والشرط الدال على الشيء يسمَّى علَماً لحصول العلم به.

وقرأ (ابن عباس وقتادة وابن محيصن) بفتح العين واللام (وإنه لعَلَم) أي نزول (عيسى) عليه السلام علامةٌ ودليل للساعة.

قلتُ: وسياق آية [الزخرف] يشير إلى أن الضمير في (وإنه) يعود على (عيسى) عليه السلام إذ قال الله تعالى في هذه السورة [الزخرف/ ٥٧ – ٦٢]:

{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}.

وأكثر المفسرين على أنَّ هذه الآيات نزلت في (مجادلة عبدالله بن الزِّبَعْرى التميمي السهمي) رسول الله ﷺ حين نزل قوله تعالى في سورة [الأنبياء ٩٨].

{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}.

وقد تلا ﷺ هذه الآية على (رهط من رجال قريش) ثم قام عليه الصلاة والسلام فشقَّ ذلك على (مشركي قريش) وقالوا: شَتَم (محمد) آلهتنا، وأقبل ابن الزِّبَعْرى فأسمعوه الآية، فقال لهم: أما والله لوجدتُ

محمداً لخصمتهُ، سلُوه: هل كلُّ ما يعبد من دون الله في (جهنم) مع مَن عبده؟ فنحن نعبد (الملائكة)، (واليهود) تعبد (عزيراً)، و(النصارى) تعبد (المسيح عيسى ابن مريم) فعجب (الوليد بن المغيرة) ومن كان معه من مشركي مكة من هذا القول، ورأوا أنَّ (ابن الزِّبَعْرى) قد احتج وخاصم، وأخذوا يصِدُّون ويضِجُّون ويرتفع لهم صياحٌ وجَلَبة فرحاً وضحكاً معرضين عن الحق، (وأخذوا يضربون (عيسى) مثلاً لآلهتهم، ويشبهوه بها، ويقولون آلهتنا ليست خيراً منه، فإن كان (عيسى) في النار لأنه عُبِد من دون الله، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه. فذُكِر ما حصل لرسول الله ﷺ فسكت، فأنزل الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**﴾ [الأنبياء ١٠١]. وقال ﷺ : (**كلُّ من أحب أن يُعْبَد من دون الله فهو مع مَن عَبَده، إنهم إنما يعبدون الشيطان، ومَن أمرهم بعبادته**).

وفي رواية أنَّ رسول الله ﷺ قال (لابن الزبعرى): (ما أجهلَكَ بلغة قومك! (ما) لِما لا يَعْقِل، فلا تقع الآية على الذين اتخذهم الكفار آلهة، من الملائكة والأنبياء والصالحين، وإنما المراد الأصنام التي عبدوها) [التفسير الكبير ٢٧/ ١٨٩].

وقوله تعالى: "ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون" معناه: (يا محمد) إنَّ (مشركي قريش) ما ذكروا لك (عيسى) إلا ليجادلوك به، ويغالطوك، لأنهم قد عَلِموا أنَّ المراد من قوله: "إنكم وما تعبدون" الأصنام التي يعبدونها، وهم أرباب اللغة يعلمون أن (ما) لغير العاقل، ولو أراد الله تعالى الملائكة والناس لقال: "إنكم ومَنْ تعبدون".

ووصف الله تعالى مشركي قريش بأنهم قوم خَصِمون، أي: مبالغون في الخصومة والجدل والمغالطة والعناد، وهم يُدرِكون من أول الأمر ما يَقْصِد إليه القرآن الكريم، وأن (عيسى) ليس بوارد على الآية لأنه عَبْدٌ عاقل صالح، وهو لم يأمر أحداً بأنْ يعبده، ولم يرض بذلك، ثم هم لم يكونوا يعبدون (المسيح) عليه السلام حتى يوردوه ويضربوه لك مثلاً؟ لهذا تعيَّن أن مقالتهم إنما كانت جدلاً ومِراءً منهم، فهي باطلة وشبهة واهية.

هذا وقد قال رسول الله ﷺ: (ما ضَلَّ قوم بعد هُدًى كانوا عليه إلا أُورِثوا الجدل). والجدل أي: يقصد الإنسان في خصومته الانتصار على مَن يناظره بحَقٍّ أو باطل.

هذا وقد جاء التعقيب في آيات [الزخرف ٥٩] قوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائيلَ} أي: ما (عيسى ابن مريم) إلا عبد الله تعالى، أنعم عليه بالنبوة، وجعله (لبني إسرائيل) مثلاً أي: أمراً عجيباً حقيقاً بأن يسير ذِكْره كالأمثال السائرة، ينظرون إليه، ويتأسَّوْن به، حيث خلَقه الله من أُمٍّ من غير أب، وجعل له من المعجزات ما لم يجعله لغيره في زمانه، فهو عليه السلام عبد وليس إلهاً يُعبد، ولا جريرةٌ له في عبادة (النَّصارى) إياه، فقد نَسُوا المثَل وضَلُّوا السبيل، وقد استطرد السياق إلى أسطورتهم حول (الملائكة) فبيَّن سبحانه أنَّ الملائكة خلْقٌ من خلْق الله، ولو شاء الله لجعل الملائكة يَخْلُفون الناس في هذه الأرض، أو لحوَّل بعض الناس إلى ملائكة، فالأمر كلُّه إلى مشيئته سبحانه، (فعيسى والملائكة) قِسْمان مخلوقان لا يصلحان أنْ يكونا إلهاً يعبد.

وقوله تعالى: {فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ} أي: فلا تَشُكُّنَّ أيها الناس في (الساعة) فإنها واقعة وكائنة لا محالة، فاتبعوني على التوحيد والهدى فإني رسول الله إليكم جميعاً، وهذا الدين الذي أنا عليه وأدعوكم إليه، هو صراط مستقيم لا عِوَج فيه ولا يَضِلُّ سالكه، وأحذِّركم من أنْ يصُدَّكم الشيطان عن الإسلام فهو لكم عدو مبين منذ أبيكم (آدم) إذ أخرجه من الجنة ونزع عنه لباس النُّور. وأغفلُ الغافلين مَن يعلم أنَّ له عدواً ثم لا يحذر منه، بل يصبح تابعاً له، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله!!

وفي [تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٩]: وذاك الذي قاله (ابن الزِّبَعْرَى) خطأٌ كبيرٌ، لأن الآية إنما نزلت خطاباً (لأهل مكة) لعبادتهم الأصنام التي هي جمادٌ لا يعقل، ليكون ذلك توبيخاً وتقريعاً لعابديها.

هذا وقد أسلم (عبدالله بن الزبعري) بعد ذلك، وكان مِن الشعراء المشهورين وبعد أن كان يهاجي المسلمين ورسولَ الله ﷺ قال معتذراً:

يا رسولَ المليكِ إنَّ لسَاني ... راتِقٌ ما فتَقْتُه إذْ أنا بُورُ

إذْ أُجارِي الشَّيطانَ في سَنَنِ الغَيِّ ... ومَنْ مَالَ ميْلَهُ مَثْبُورُ

تلكموا آية سورة [الزخرف] في نزول (عيسى ابن مرْيم) آخر الزمان.

أما آية السورة الثانية [النساء ١٥٩] فهي قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً}.

(الواو)استئنافية، و(إنْ) بمعنى ما النافية وهي كقوله تعالى:

{وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} [مريم ٧١]، و[من أهل الكتاب] أي: (اليهود والنصارى) على أرجح التفاسير، و(إلا) أداة استثناء مُفرَّغ، (ليؤمنن به) اللام موطِّئةٌ لقسَمٍ محذوف تقديره: والله ليؤمنن، والفعل المضارع مبنيٌ على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعوذ على (مِن أهل الكتاب)، والضمير في (به) يعود على (عيسى ابن مريم) عليه السلام على أرجح الأقوال. أما الضمير في (قبل موته) فللمفسرين فيه قولان:

الأول أنه يرجع إلى الكتابيِّ، والثاني أنه يرجع على (عيسى) عليه السلام.

فالمعنى على القول الأول:

ما أحدٌ مِن (اليهود والنصارى) إلا ليؤمننَّ (بعيسى) أنه عبدالله ورسوله، وذلك قبل أنْ تزهق روح الكتابيِّ عند احتضاره، عندما يعاين ملك الموت، فينكشف له الحقُّ وينجلي له ما كان جاهلاً به فيؤمِنُ (بعيسى)، (واليهودي) يعلم حينئذ أنه رسول صادِقٌ وليس هو إله ولا ابن إله. وهذا قول (مجاهد وسعيد بن جبير وابن عباس) في أحد قوليه إذْ قال رضي الله عنه: ليس (يهوديٌّ) يموت أبداً حتى يؤمِنَ (بعيسى) وهي على قراءة (أُبَيُّ بن كعب) (قبل موتهم) [زاد المسير ٣٤٢].

قال (عكرمة لابن عباس) : فإن خرَّ الكتابيُّ مِن سَقْف بيتٍ، أو احترق، أو أكله سبُعُ؟ قال (ابن عباس): يتكلَّم بها في الهواء، ولا تخرج روحه حتى يؤمن (بعيسى) عليه السلام.

فقيل: أرأيت إنْ ضُرِب عُنُق أَحدٍ منهم؟ قال: يتلجلج بها لسانه.

وأخرج (ابن المنذر) عن (شَهْرِ بن حَوْشَب) قال: قال لي (الحجَّاج): إني لأُوتَى بالأسير مِن (اليهود والنصارى) فأضرب عنقه فلا أسمعه يقول شيئاً، فقال (شهر): إذا قَرُب خروج روحه ضربتْه الملائكة، فَيُقِرُّ بأنَّ (عيسى) عبدالله ورسوله، فقال له (الحجاج): مِن أين أخذتَ هذا؟ قال: أخذتُه مِن (محمد ابن الحنفية) أي: ابن علي بن أبي طالب ﷺ، فقال الحجاج: أخذتَها مِن عَيْن صافية.

هذا ولكن إيمان الكتابيِّ هذا لا ينفعه حينئذ، ولا ينقله عن الكفر، لأنه إيمانٌ اضطراري عند اليأس، وحين التَّلبُّس بحالة الموت، وهذا الوقت يُلْحَق (بالبَرْزَخ) وذلك كما قال تعالى: {**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ**} [النساء ١٨].

وإنَّ إيمان أولئك الكتابيِّن عندما جاءتهم سَكْرة الموت، هو مثل إيمان (فرعون) حين أدركه الغرق وقال: {**آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**} فسمع في تلك اللحظة صوتَ الحقِّ: {**آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**} [يونس:٩١].

قال [الحافظ ابن كثير ١/ ٥٧٧]: وهذا التأويل هو الواقع، ورواية (ابن عباس) سَنَدُها صحيح، ولكنْ لا يلزم أنْ يكون هذا التأويل هو المراد بهذه الآية، بل المراد بها هو **التأويل الآخر** ويعني رحمه الله:

أن (الضمير) في (قبل موته) يرجع إلى (عيسى ابن مريم) وأنه عليه السلام حيٌّ عند الله الآن فيكون المعنى: ما مِن أَحدٍ مِن أهل الكتاب (اليهود

والنصارى) الذين يوجَدون زمان نزول (عيسى) إلا ليؤمنن (بعيسى) قبل (موت عيسى) أي: الموتة الحقيقية وذلك بعد نزوله عليه السلام من السماء إلى الأرض قبل يوم القيامة، ويومَها تكون المِلَّة واحدة، وهي (ملة الإسلام). وهذا قول (قتادة وابن زيد وابن قتيبة والحسن) وهو أحد قولي (ابن عباس) إذ قال رضي الله عنه: إذا نزل (المسيح) إلى الأرض لا يبقى (يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ) ولا أحدٌ يعبد غير الله، إلا اتبعه وصدَّقه وشهِد أنه روح الله وكلمته وعبْده ونبيُّه.

قلت: والإيمان (بعيسى) يومها يتضمن (الإيمان بمحمد) صلى الله عليه وسلم، وقد اختار (الإمام ابن جرير الطبري ٩/ ٣٨٦) هذا التأويل وقال: هو أولى الأقوال بالصحة والصواب. وقال [ابن كثير ١/ ٥٧٧] هذا الذي قاله (ابن جرير) هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بُطلان ما ادعته (اليهود) من قتْل (عيسى) وصَلْبه وتسليم مَن سلَّم لهم مِن (جهلة النَّصارى).

[واللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية] قالت في فتواها عن المسيح رقم [١٦٢١]: وهذا المعنى أي: أن الضمير في (قبل موته) يعود على (عيسى) هو المتعين، فإن الكلام سبق لبيان (موقف اليهود من عيسى) وصنيعهم معه عليه الصلاة والسلام، وبيان سُنَّة الله في إنجائه، وَردَّ كيد أعدائه، فيتعيَّن رجوع الضمير في (ليؤمننَّ به) وفي (قبل موته) إلى (عيسى) رعايةً لسياق الكلام، وتوحيداً لمرجع الضميرين، وقد ثبتتْ أحاديث كثيرةٌ صحيحة

مِن طرق متعددة بلغتْ مبلغ التواتر، أنَّ الله تعالى رفع (عيسى) إلى السماء، وأنه سينزل آخر الزمان، حكماً عدلاً، وأنه سيقتل (المسيح الدجَّال)، وأنه يحكم (بشريعة محمد) ﷺ، ويصلِّي خلْف واحد مِن أمَّته المحمدية، وأنه سيكذِّب هؤلاء وهؤلاء من (اليهود والنصارى) الذين تباينتْ أقوالهم فيه، وخلَتْ عن الحق (ففرَّط اليهود) بما رمَوْه به وأمَّه من العظائم (وأفرط النصارى) بإطرائه وادِّعائهم فيه ما ليس فيه، إذ رفعوه في مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية، تعالى الله عما يقول هؤلاء وهؤلاء علواً كبيراً..

قلتُ: وبالتأمل في الآية الكريمة وفي أدِلَّة المفسرين يصحُّ قبول القولين، والله أدرى وأعلم.

أي: يجوز أن يرجع (الضمير) في (قبل موته) إلى الكتابي. فقبل أن يموت الكتابيُّ وعند خروج روحه (يؤمن بعيسى).. وذلك منذ (بعثة عيسى) إلى ما قبل نزوله عليه السلام.. وهذا الإيمان اضطراريٌّ لا ينفع صاحبه. كما يصِحُّ أنْ يرجع الضمير إلى (عيسى)، وذلك بعد نزوله وقبْل موته عليه السلام، كُلُّ أهل الكتاب الموجودون في ذلك الزمان لابُدَّ وأنْ يؤمنوا (بعيسى)، وهذا الإيمان ينفعهم لأنه إيمانٌ اختياري.

ومَن لم يؤمن مِن هؤلاء يُقْتَل على يد (عيسى)، ولا مانع من أنْ يؤمن المقتولُ قبْل موته وخروج روحه، ولكن لا ينفعه إيمانه هذا لأنه إيمانٌ اضطراريٌّ. هذا والمِلَّة آخِر الزمان أيام (نزول عيسى) عليه السلام تكون واحدة وهي (ملة الإسلام).. والإيمان (بعيسى) يتضمن الإيمان (بمحمد) عليهما الصلاة والسلام.

وقد ناهزتِ الأحاديث المتواترة (السبعين حديثاً) جمعها (الإمام السيوطي) في كتابه [نزول عيسى ابن مريم آخر الزمان) منها:

- قال (أبو هريرة) رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده ليوشِكَنَّ أنْ ينزِل فيكم ابن مريم حكَماً مقسِطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخِنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد). وفي رواية: (حتى تكون السجدة خيراً مِن الدنيا وما فيها).

- ومنها قوله رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ قال: (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم) [رواهما الشيخان].

- وعن (جابر بن عبدالله) رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحَقِّ ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم : تعالَ فصَلِّ لنا، فيقول عيسى: لا، إنَّ بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله لهذه الأمة) [رواه الإمام أحمد في مسنده].

وقوله تعالى : {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً} أي: في ذلك اليوم، يشهد (عيسى) عليه السلام على قومه (بني إسرائيل) على (اليهود) أنهم كذَّبوه وطعنوا فيه، وعلى (النصارى) بأنهم ادَّعَوْا فيه الألوهية، ويشهد أنه لم يأمرهم بذلك، ولم يرض به. وشهادة المسيح هذه مذكورة مفصلةٌ في [سورة : المائدة].

***

الفصل الخامس عشر :
شهادة عيسى على قومه يوم القيامة

قال الله تعالى في سورة [المائدة ١١٦]:

{وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}

الله أكبر! إنَّ هذا لَمَشْهَدٌ عظيم مِن (مشاهد يوم القيامة) وهو: استجواب الله عزَّ وجلَّ نبياً مِن أنبيائه بحضرة قومه على رؤوس الأشهاد، في قضية عظيمة هي (قضية الألوهية) المدَّعاةُ لهذا النبي.

أحبتي الأكارم ذلكم النبي البريء هو: (عيسى ابن مريم) كلمة الله وروحه ورابع أولي العزم من الرسل، وآخر أنبياء (بني إسرائيل)، عليه الصلاة والسلام.

وقومه هؤلاء هم (النصارى) من (بني إسرائيل) الذين أرسله الله تعالى إليهم في الدنيا، وآتاه (الإنجيل) فيه هُدًى ونُور، ومصدِّقاً لما بين يديه من (التوراة) فأمرهم عليه السلام بتوحيد الله، وبشَّرهم برسول يأتي من بعده (اسمه أحمد) صلى الله عليه وسلم.

فإذا قومه ضلُّوا السبيل، وغالَوْا في نبيهم (عيسى ابن مريم)، وزعموا أنه (ابن الله) واتخذوه وأمه إلهين من دون الله، والعياذ بالله..

وكأنما الدنيا قد انطوت بخيرها وشرها، بإيمان أهلها وبكفرهم، وكأنما (القيامة) قامت، وحُشِر الناس كلُّ الناس إلى رَبِّ الناس جلَّ شأنه.

وإذا (بالقرآن الكريم) كلام الله العظيم، يعرِض أَمامنا مشهداً رهيباً من (مشاهد القيامة)، ذلكم هو سؤال كل نبي عن قومه.

{يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [المائدة ١٠٩].

أما (عيسى ابن مريم) فيوجَّه إليه سؤالٌ خاصٌّ، ولكنه رهيبٌ مُرْعِب:

{وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ}؟!

[الواو] في بدء الآية عاطفةٌ، عطفتْ على الأرجح هذه القصة على قصة: {إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ} [المائدة ١١٠].

ويجوز أن تكون الواو استئنافية، والكلام مفتتح به.

و [إذا] ظرف لما مضى من الزمان، ومعناه هنا : المستقبل وهو متعلِّق بمحذوف تقديره: (اذكر يا محمد) لأُمَّتك وللناس، حين يخاطب الله تبارك وتعالى عبْده ورسوله (عيسى ابن مريم) في الآخرة، توبيخاً للكفرة وتبكيتاً لهم قائلاً: (يا عيسى) هل أنتَ دعوتَ الناس في الدنيا إلى عبادتك، والاعتقاد بألوهيتك وألوهية أُمك مريم؟!

في [تفسير البحر المحيط ٤/ ٥٨]: قال (ابن عباس) رضي الله عنهما: هذا القول يكون مِن الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق، ليَعْلَم الكفار أنهم كانوا على باطل.

هذا وفي خطاب الله تعالى نبيَّه بقوله: (يا عيسى ابن مريم)، إشارة إلى أنَّ الله تعالى أحدٌ صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

وقد أجمع المفسرون على أنَّ الاستفهام في قوله تعالى: (أأنت قلت)؟ استفهامٌ إنكاريٌّ، المراد منه تهديد وتوبيخ (للنصارى) الذين ادَّعَوْا أن (عيسى) إله أوابن إله!

وفيه (تعريف عيسى) أنَّ قومه كفروا بَعْدَه، وادَّعَوْا عليه ما لم يقلْه. [تفسير القرطبي ٦/ ٣٧٥].

إذاً فالسؤال الموجَّه إلى (عيسى) عليه السلام، المقصود به (غير عيسى)، وهو وارد على المثل السائر: (إياكِ أعْنِي واسْمَعِي يا جارة) [مجمع الأمثال ١/ ٨٠]، والله تعالى يعلم ماذا قال (عيسى) للناس، ولكن مجيء السؤال بهذه الصورة: (يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمِّيَ إلهين من دون الله)، يزيد من بشاعة موقف المؤلِّهين لهذا العبد الصالح البريء، ولأمه من دون الله!

إذْ زعموا أنَّ (عيسى) هو الله، أو أنه ابن الله، وأن (مريم) لم تلد بشراً، وإنما ولدت إلهاً، ولهذه البَعْيضِيَّة عبدوها وقدَّسوها، وتوجَّهوا لها في صلاتهم ودعائهم، وخشعوا وخضعوا لِذِكْرها، وصُوَرِها وتماثيلها، معتقدين (السلطة الغيبية) لها، وأنها تنفع وتضر، إما بنَفْسها أو بواسطة ابنها، وهم يُسمُّونها (والدة الإله)!

وعبدوا وقدَّسوا معها (ابنها عيسى) مع الله جاعلين الله ثلاثة –العياذ بالله– أو عبدوهما من دون الله، أي متجاوزين توحيد الله وإفراده بالعبادة،

ومعتقدين أنَّ المعجزات التي ظهرتْ على (يد عيسى ومريم) إنما من خَلْقهما، وليستْ من خَلْق الله سبحانه، تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً!!

وصدَق الله العظيم، القائل في محكم التنزيل:

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الله هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} [المائدة:٧٢].

والقائل: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلاثَةٍ} [المائدة: ٧٣].

ومن أجل ذلك أصبح (النصارى قوم عيسى ابن مريم) أشدَّ الأمم استحقاقاً إلى التوبيخ والملامة، لأن طعْن سائر الأمم كان مقصوراً على أنبيائهم، بينما طعْن (هؤلاء النصارى الضالِّين) تعدَّى إلى (جلال الله تعالى وكبريائه)، حيث وصَفُوه سبحانه بما لا يليق بعاقل أنْ يَصِف الإله به، وهو اتخاذ الزوجة والولد.

{كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً} [الكهف: ٥].

ومن أجْل ذلك الاستجواب الرهيب في ذلك اليوم المرهوب:

{وَإِذْ قَالَ الله يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ الله}؟!

يجيء الجواب من (عيسى) الرسول الصالح الصَّدُوق واجفاً راجفاً خاشعاً مُنيباً، يبرأ بالتَّسبيح لربه العليم الجليل: {قال سبحانك}! أي: تقديساً لك يا الله عن كل سوء، وبراءةً لك يا ربي من كل عيب، وتنزيهاً لك يا خالقي ومعبودي عن أنْ يُعْبَد معك أو دونك، وأنا عبْدك وابن أَمتِك، ناصيتي وناصية (أمي مريم) بيدك فسبحانك!

هذا وكلمة (سبحانك) عند اللغويين هي: اسم مصدر، وهو عَلَمٌ للتسبيح، وهو منصوبٌ على المفعولية المطْلقة بفعل محذوف وجوباً تقديره: أسبِّحُكَ سبحان، أي: أنزهك تنزيهاً، والتنزيه صفةٌ ذاتية في الله سبحانه وتعالى، فهو سبحانه منزَّه منذ الأزل وإلى الأبد، والوجود كلُّه مسبِّح لله تبارك وتعالى، وكلُّ ما في السموات والأرض سبَّح ويُسبِّح وسيظل مُسبِّحاً لله العزيز الحكيم:

{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء ٤٤].

(والسُّبُّوح القُدُّوس) بضم أولها وقد يُفْتَحان، هُما من أسماء الله تعالى ولفظ (سبحانه) لا يقال إلا لله جلَّ جلاله، ولا يأتي إلا مضافاً نحو:

{سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الصافات ١٥٩].

و {سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} [القلم ٢٩].

و {سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا} [الزخرف ١٣].

و {سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ} [يونس ١٠].

و {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [النحل ١].

هذا وقد جاء (سبحانك) في القرآن الكريم مضافاً إلى (كاف المخاطب) مراداً به الذَّاتُ العَلِيَّة (تسع مرات):

أولها في [البقرة ٣٢]: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا}.

وآخرها في [سبأ ٤١]: {قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ}.

هذا وينتقل (عيسى ابن مريم) عليه السلام مِن التسبيح إلى التبرُّؤ المطلق من أنْ يكون مِن شأنه هذا القول أصلاً، قائلاً لربه جلَّ جلاله: {مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ}.

نعم هكذا يُبرِّىء عليه السلام نَفْسه العالمة بالحقِّ مِن قول ما ليس بحَقٍّ، وكأنه يقول: يا ربي ما ينبغي لي ولا يليق بي أنْ أقول قولاً لا يَحِقُّ لي أنْ أقوله، وأنا يا الله لستُ أستحِق العبادة حتى أدعو الناس إليها، وأنت يا ربي أيدتني بالعصمة عن مِثل هذا القول الباطل، فأنا مربوب ولستُ برب، وأنا عابدٌ ولستُ بمعبود!

هذا وقوله: (ما يكون لي أن أقول)، أبلغ من (ما قلتُ هذا الكلام)، لأن في هذا القول الأخير ادِّعاء الطهارة والنزاهة، والمقام مقام خضوع وتواضع.

ولم يقل عليه السلام: (إني لم أقلْه)، وذلك تأدُّباً مع الله تعالى، وتصاغُراً أَمامه سبحانه، وتذللاً في حضرة الجلال!!

وبعد هذا التَّسبيح والتَّنزيه والتبرُّؤ مِن القول العظيم الذي قالته طائفة مِن قومه (النصارى) ونسَبوه إليه، يفوِّض (عيسى) عليه السلام الأمر كلَّه إلى عِلم الله تعالى، المحيط بكل شيء، قائلاً لربه عزَّ وجلَّ في استسلام وتسليم: {إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [المائدة ١١٦].

(إنْ) شرطية جازمة، (والتاء) في (كنت) اسم كان في محل رفع، وجملة (كنت) في محل جزم بإن الشرطية، (والتاء) في (قلته) في محل رفع

فاعل، (والهاء) في محل نصب مفعول به، وجملة (قلته) في محل نصب خبر كان. (والفاء) في (فقد) واقعةٌ في جواب الشرط و(قد) للتحقيق، وجملة (علمته) في محل جزم جواب الشرط. و(أنت) ضمير منفصل تأكيد (لاسم إنَّ وهو كاف المخاطب)، و(علَّام) هو صيغة مبالغة في ذات الحدث، ومبالغة في تكرار الحدث، والمعنى: أن الله سبحانه يعلم غَيْب كلِّ واحدٍ مِن خَلْقه، وغيب كل ما في كونه.

ومعنى الآية: يا الله إنْ كان قد صدَر -لا قدَّر الله- هذا القول مِنِّي في الدنيا لقومي فقد علمتَه.

يا عليم يا خبير، يا مَن لا يخفى عليك شيءٌ في الأرض ولا في السماء، وأنتَ يا ربي تعلم بأنيِّ لم أقل ذلك بلساني أبداً، بل وأنت تعلم أني ما أردتُ ذلك القول في نفسي، وما أضمرتُه، فإنك تعلم سِرِّي وحقيقة نفسي، وما انطوتْ عليه، وأنا لا أعلم حقيقة ذاتك، وما احتوتْ عليه من صفات الكمال، ولا أعلم شيئاً مما استأثرتَ به من غَيْب وعِلْم، وإنَّ ما انطوتْ عليه نفسي هو من جملة الغيوب، وإنك أنت علَّام الغيوب، والعالِم بالخفايا والنَّوايا، ولا يعزُبُ عن عِلْمِك شيء، وعِلْمُك الواسع محيطٌ بما كان وما سيكون، وما هو كائنٌ وما لم يكن، ولا يعلم الغيب غيرُك يا الله، فأنتَ تعلم ما أُسِرُّه وما أُخفيه، فكيف -أستغفر الله- لا تعلمُ ما قُلتُهُ وما أظهرتُه؟!

وفي هذا القول إقرارٌ من (عيسى) عليه السلام بالعَجْز أَمام عظمة الله جلَّ شأنه، وفيه مبالغةٌ في الأدب في إظهار الذُّلِّ في حضرة ذي الجلال، وكلُّ

ذلك مِن توفيق الله تعالى (لنبيِّه عيسى) ومِن عونه له في ذلك المشهد العظيم!!

ففي [زاد المسير في علم التفسير ص ٤٢٢]، رُوي عن (عطاء بن السَّائب) عن (مَيْسرة) قال: لَمَّا قال الله تعالى (لعيسى): {أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله} رَعَدَ كُلُّ مَفْصِلٍ منه، حتَّى وقع مخافة أنْ يكون قد قاله؟!

وأخرج (الترمذي) عن (أبي هريرة) ﷺ عن النبي ﷺ قال: (تلقَّى عيسى حُجَّته ولقَّاه الله: (سبحانك ما يكون لي أنْ أقول ما ليس لي بحق) إلى آخر الآية. قال (أبو عيسى) هذا حديثٌ حسنٌ صحيح.

وانظر [تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٠، وتفسير القرطبي ٦/ ٣٧٥].

وبعد هذه التسبيحة الطويلة الخاشعة، والتبرئة الصادقة، يبين (عيسى) عليه السلام حقيقة ما قاله لقومه من (بني إسرائيل) موضِّحاً موقفه منه فيقول لربه جلَّ شأنه: **{مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}** [المائدة ١١٧].

أي يا ربي إنِّي ما قلتُ للناس في شأن الإيمان وأساس الدين، إلا ما أرسلتني به وأوحيتَه إليَّ، وأمرتْني بإبلاغه، وهو: اعبدوا الله وحده، والزموا عبادته، ولا تشركوا به شيئاً، فالله ربي وربكم، وخالقي وخالقكم، فأنا عبدٌ مخلوقٌ مربوب مثلكم، إلَّا أن الله تعالى خصَّني بالرِّسالة إليكم (يا بني إسرائيل).

قال (الإمام الرازي): وضَع (عيسى) القول موضع الأمر فقال: "ما قلت لهم إلا ما أمرتني به"، ولم يقل: (ما أمرتهم إلا بما أمرتني). وذلك نزولاً على موجب الأدب لئلا يجعل نفسه وربه آمرين معاً.

قلت: ولكن الله في سؤاله قال (لعيسى): "أأنت قلت للناس"، فجاء (جواب عيسى) مناسباً للسُّؤال: "ما قلت لهم".

قال تعالى على (لسان عيسى): {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ}.

في اللغة [المقاييس ١/ ٤٨١ –٦٢٨، المصباح ٢٣٤ – ٣٢٤، المفردات ٢-٦- ٢٧١، المعجم الوسيط ١/ ٣٦٣ – ٤٧٩، اللسان: شهد – رقب]:

(الشهيد): مِن شَهَدَ، الشين والهاء والدال، أصل يدل على حضور وعِلْم وإعلام، يقال: شَهِد الشيء أي: اطَّلع عليه وعاينه وأخبر به فهو (شاهِد)، والجمع (شهود وأشهاد)، وشهيد صيغة مبالغة من شاهد، والجمع شهداء. وشاهَد الشيء مشاهدةً مثل: عاينه معاينة، وشهِد المجلس بمعنى: حضره ومنه قوله تعالى: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة ١٨٥].

(والشهادة) معناها: الإخبار بما شوهد بالبصر أو بالبصيرة، وفي التنزيل العزيز: {وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا} [يوسف ٨١] أي: ما أخبرْنا.

(وعالَم الشهادة) هو عالَم الأكوان الظاهرة، ويقابِله (عالم الغيب)، (والشَّهيد) هو: القتيل في سبيل الله، سُمِّي بذلك لحضور ملائكة الرحمة عنده وقت الاحتضار، أو لأنه يشهد في تلك الحالة ما أُعِدَّ له من النَّعيم.

(والشاهد والمشهود) قيل: (المشهود) هو يوم الجُمُعة أو يوم عَرفة أو يوم القيامة، (والشاهد) هو كلُّ مَن شَهِده. (وشهِد بالله) أي: حَلَف، (وتشهد): نطق بالشَّهادتين، وفي التعارُف (تشهَّد) قرأ التَّحِيَّات في الصلاة.

هذا (ومادة شهد) جاءت في القرآن الكريم (مئةً وتسعاً وخمسين مرة)، منها لفظ (شهيد) مفرداً جاء (خمساً وثلاثين مرة).

أوَّلها في [البقرة ١٤٣]: { لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً } . وآخرها في [العاديات ٦، ٧]:

{إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} .

أمَّا (الرقيب): فمِن رَقَبَ، فالراء والقاف والباء، أصل واحد يدل على انتصاب لمراعاة شيء، ومن ذلك الرقيب، وهو الحافظ يقال: رقبه يرقُبه رقْباً بمعنى: حفظه وحرسه ولاحظه.

(ورقبه) أيضاً انتظره، والوصف (رقيب)، والجمع (رقباء).

(ورقبه) أيضاً أي: أصاب رقبته، وراقبتُ الله أي: خشِيته وخِفت عذابه. وسمِّي الحافظ رقيباً إما لمراعاة رقبة المحفوظ، وإمَّا لرفعة رقبته!!

هذا (والرَّقيب) من أسماء الله الحُسنى، وهو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء. وفي القرآن الكريم وردت (مادة رقب) (أربعاً وعشرين مرة) منها لفظ (رقيب) ورد (خمس مرات):

أولها في [النساء ١]: {إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً} .

وآخرها في [الأحزاب ٥٢]: {وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً} .

والفرق بين (مشهدية المخلوق) و(رقابة الخالق) أن الإنسان الشهيد، هو الذي يشهد السلوك ولا يَقْدِر أنْ يمنع الناس عن فِعل ما يفعلون، أمَّا الخالق الرقيب : فهو الشاهد الذي يقدِر أنْ يمنع الحدث، ويمنع الناس عما ارتكبوا مِن مخالفات، كأنْ يبعث لهم مَنْ يذكِّرهم ليهديهم، أو يَكُفَّ أيديهم.

وقول (عيسى) ﷺ: {وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ} إلى آخر الآية معناه: يا ربي كنتُ أنا شهيداً على قومي، أرعى أحوالهم بموجب أمْرك، أُقِرَّ الحقَّ، وأُنكِر الباطل، وذلك مدة بقائي بين أظهرهم، ووجودي فيما بينهم، ومقامي فيهم، فلما توفَّيتني وقبضتني وافياً بروحي وجسدي بالرفع إلى السماء، كنتَ أنتَ يا الله الرقيب عليهم، والحفيظ لأعمالهم، والشاهد على أقوالهم وأفعالهم، عصَمْتَ من شِئت منهم عن الشرك، وخَذلْت مَن خذلْت من الضالين، فقالوا ما قالوا، وأنت يا الله على كلِّ شيء مطَّلعٌ، وشهيدٌ على مَن عصى وأطاع، لا يخفى عليك شيءٌ في الأرض ولا في السماء، أمَّا أنا فلا أعلم ما أحدثوا من بعدي، ولا يمكنني بيان ما وقعوا فيه من الضلال. وبعد هذا البيان، فَوَّض (عيسى) ﷺ الأمر كُلَّه ومنه أمْر الجزاء إلى ربه جلَّ جلاله فقال: {إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحُكِيمُ} [المائدة ١١٨].

أي: يا الله إنْ تعذِّب مَن كفَر مِن قومي، فإنهم عبادك، وقد عبدوا غيرك، وخالفوا أمرك، وقالوا ما قالوا وأنت العادل، لأنَّك قد أوضحت لهم الحق فكفروا.

وإنْ تغفِر لَمَن تاب منهم وآمن، فذلك تفضُّل منك، لأنه قد كان لك أنْ لا تغفر لهم بعد عظيم فِرْيَتِهم، وفي مغفرتك لهم (أنت العزيز) الـذي تَغْلِبُ ولا تُغْلَب، ولا يمتنع عليك ما تشاء، وفي تعذيبك إيـاهم (فأنـت الحكيم) في صنعه وفيما تريد، ولا ينبغي لأحد أن يعـترض عليـك، فـإن عذبتهم فلا اعتراض عليك، لأنَّك المالك المطْلق لهم، ولا يستطيع أَحـدٌ منهم دفْع ذلك عن نَفْسه، لأنهـم عبـادك الأرِقَّـاء في أَسْر مُلْكـك، وإنْ غفرت لهم – ولستْ فاعلاً إذا ماتوا على الكفر – فلا اعتراض عليك.

(وكلام عيسى) هذا لا يتـضمَّن شـيئاً مِـن الـشفاعة، بـل يتـضمن التسليم كلَّه: فالعفو لا يُنْقِص عِزَّك، ولا يَخْرُج عن حكمك.

قال [الحافظ ابن كثير ٢/ ١٢١] عن هذه الآية: هذا الكلام يتضمن ردَّ المشيئة إلى الله عزَّ وجلَّ فإنه الفعَّال لما يشاء، الذي لا يُسأل عمَّا يفعـل وهُـمْ يُسألون، كما يتضمن كلامه عليه السلام التبرِّي من (النصارى) الذين كـذَبوا عـلى الله وعلى رسوله، وجعلوا لله نِدّاً وصـاحبةً وولـداً، تعـالى الله عـما يقولـون علوّاً كبيراً. ثم قال رحمه الله: وهذه الآية لها شأنٌ عظيم ونبأٌ عجيب.

وقد ورد في (الحـديث) أن النبـي صلى الله عليه وسلم قـام بهـا ليلـة حتَّـى الـصَّباح يُردِّدها. فقد روى [أحمد بن حنبل رحمـه الله في المـسند ٥/ ١٤٩] بـسنده عن (أبي ذرٍّ) رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها: "إنْ تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" فلما أصبح، قلتُ يا رسول الله ما زلـتَ تقـرأ هـذه الآيـة حتـى

أصبحت تركع بها وتسجد بها، قال ﷺ: (إني سألت ربي عزَّ وجلَّ الشفاعة لأُمَّتي، فأعطانيها وهي نائلةٌ إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً).

وروى (الإمام مسلم) عن (عبدالله بن عمرو بن العاص) رضي الله عنهما أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في (إبراهيم) عليه السلام: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي} [إبراهيم ٣٦]. وقوله عزَّ وجلَّ في (عيسى) عليه السلام: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة ١١٨].

فرفع ﷺ يديه فقال: (اللهم أمَّتي أمتي) وبكى، فقال الله جلَّت رحمته: {يا جبريل} اذهبْ إلى محمد فسَلْه – وربُّك أعلم – ما يبكيك}؟ فأتاه (جبريل) عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله: {يا جبريل اذهبْ إلى محمد فقل له إنا سنُرْضيك في أُمَّتك ولا نسوءك}.

فهذان الحديثان صريحان في أنَّ الشفاعة لا ينالها أحدٌ يشرك بالله شيئاً.

هذا ولنا مع هذه الآية الكريمة: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، ثلاث وقفات، في صورة سؤال وجواب، تكشف جانباً من (الإعجاز اللغوي في التعبير القرآني):

الوقفة الأولى: قال بعضهم لماذا خُتِمت الآية بهذه الفاصلة "فإنك أنت العزيز الحكيم" ولم تُختم بقوله: [فإنك أنت الغفور الرحيم ليناسب ما قبله] وإن تغفر لهم؟!

والجواب على ذلك – والله أعلم – أن الآية اشتملت على شرطين هُما (إن تعذبهم) و(وإن تغفر لهم) فإنْ كان التذييل (بأنك غفورٌ رحيم) يناسب الشرط الثاني، فإنه لا يناسب الشرط الأول، بل هو يضعِّف المعنى، إذ كيف يتوافق التعذيب مع المغفرة والرحمة؟ أمَّا الفاصلة الواردة في الآية (فإنك أنت العزيز الحكيم) فهي مناسبةٌ للشرطين المتقدمين، إذ أنَّ تعذيبه سبحانه إياهم، ومغفرته لهم منوطان بعزَّته وحِكمته عزَّ وجلَّ؛ لذا كان (العزيز الحكيم) أليق بهذا الوضع، لأنه متعلقٌ بالعقاب والثواب جميعاً، وليس بحالٍ واحدة (فالعزيز الحكيم) قادرٌ على الثواب والعقاب عن حكمة وصواب، لا عن عَجْز ولا استقباح، أضف إلى ذلك أن المقام مقام (تبرؤ عيسى) عليه السلام مما نُسب إليه من القول الباطل، وليس مقام طَلَبِ عفوٍ ومغفرة. وكلامه عليه السلام مبنيٌّ على التَّسليم لله سبحانه، وتفويض الأمر كلِّه لله، فلو خُتِمت الآية (بأنك غفور رحيم) لكان تعريضاً بطلب المغفرة، ولا يصِحُّ سؤال المغفرة للمشركين، لا مِن نبيٍّ ولا مِن غيره لقوله تعالى: {**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى**} [التوبة ١١٣] وإذا كان طَلَبُ المغفرة للمشركين لا يَحْسُن مِن أيِّ أَحد فهو من (عيسى ابن مريم) لا يصح من باب أولى وألزم، لأن الأمر هنا يتعلق به هو، فكيف يطلب المغفرة أو يعرِّض بها لمن افترى عليه وجعلوه وأُمَّه في درجة أعلى مِن الله عزَّ وجلَّ؟ ولهذا ولذاك جاء التذييل في هذه الآية (فإنك أنت العزيز الحكيم) ملائماً تماماً لسياق الآيات ودالاً على [إعجاز القرآن الكريم].

الوقفة الثانية: لماذا جاء التعبير القرآني هنا: (فإنك أنت العزيز الحكيم) ولم يأتِ: فأنت عزيزٌ حكيم؟!

والجواب – والعلم عند الله – أن تعريف الصفتين بأل وسبقهما بالضمير أنت يدل على توكيد الحُكْم، وكمال صفتي العزة والحكمة مع قَصْرهما على الله عزَّ وجلَّ دون غيره ، فمعناها هنا: لا عزيزٌ ولا حكيمٌ على وجه الكمال والحقيقة سواك يا الله؛ لذا فالتعريف في الآية (فإنك أنت العزيز الحكيم) أولى من التنكير: (فإنك أنت عزيز حكيم).

الوقفة الثالثة: لماذا جاء الترتيب في الفاصلة هكذا: (فإنك أنت العزيز الحكيم)، ولم يأت هكذا: (فإنك أنت الحكيم العزيز)؟

والجواب – والعلم عند الله– : أن صفة الحكمة تحتاج إلى العزة، والعزة تقتضي الحكمة، وكأنَّ المعنى: (عزَّ فحكم).

هذا ومن (لطائف اللمحات اللغوية) في التعبير القرآني أنَّ (صفة العزيز) اقترنتْ في القرآن الكريم (بإحدى عشرة) صفة من صفات الله العُلا..

تقدَّم (العزيز) على عشرة منها، وتأخر عن الصفة الحادية عشرة..

أما الصفات التي تقدم معها (العزيز) عليها فهي:

(الوهاب والجبار والمتكبر والمقتدر) مرةً واحدة مع كل صفة.

و(الغفور) مرتين، و(الغفار والحميد) ثلاثاً ثلاثاً و(العليم) خمس مرات و(الرحيم) ثلاث عشرة مرة.

و(الحكيم) ثماني وأربعين مرة.. من ذلك:

قـوله تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ} [ص: ٩].

وقوله تعالى : {الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ} [الحشر: ٢٣].

وقوله تعالى: {فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ} [القمر :٤٢].

وقوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ } [الملك: ٢].

وقوله تعالى: {وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ} [غافر: ٤٢].

وقوله تعالى: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [البروج: ٨].

وقوله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [يس: ٣٨].

وقوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء: ١٩١].

وقوله تعالى: { وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ١٠].

هذا و(السِّرُّ اللطيف) في تقديم (صفة العزيز) على هذه الصفات العشر هو - والله أعلم - أنَّ هذه الصفات مترتبة على العزة وناتجة عنها، فالعزة سبب لها، ومؤدِّية إليها، لهذا تقدَّم (العزيز) عليها.

وكأنَّ المعنى: عزَّ الله فحَكَم، وعز فرحِم. وعز فعلم، وعز فَحَمِد، وعز فغفر، وعز فوهب، وعز فتجبَّر، وعز فتكبَّر، وعز فاقتدر.

أما الصفة الحادية عشرة والتي اقترنت بها (صفة العزيز) في القرآن الكريم فهي (القوي) وقد تأخَّر (العزيز عن القوي) فيها وذلك في (سبع مرات) وكأنَّ المعنى: (قَوِي فعَزَّ) والآيات السبع هي:

١ - {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} [هود ٦٦].

٢ - {وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج ٤٠].

٣- {مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج ٧٤].

٤ - {وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً} [الأحزاب ٢٥].

٥ - {اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} [الشورى ١٩].

٦ - {وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحديد ٢٥].

٧- {كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة ٢١].

فسبحان الله العظيم تجلَّت حكمته في كل شيء، وتناهت بلاغة كلامه في كل كلمة وتعبير!![1]

***

(١) انظر: كتاب (من عجائب القرآن اللغوية) ١/٢٠٥/ أ. د/فؤاد محمود سندي.

الفصل السادس عشر :
خلاصة سيرة عيسى ابن مريم

وهكذا عِشْنا معاً بتوفيق الله زمناً ليس بالقصير مع سيرة (المسيح عيسى ابن مريم) ومَن وما يتصل به في كتاب الله العزيز.

وخلاصة ما جاء في هذه السيرة المباركة، وما بقي لنا منها أوجزهُ في النِّقاط التالية:

أولاً: (المسيح عيسى ابن مريم) هو رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وهو عليه السلام رابع أولي العزم من الرسل، وهو آخر (أنبياء بني إسرائيل)، كان بين ميلاده وبين (وفاة موسى الكليم) عليهما السلام ١١٦٥) ألفٌ ومائةٌ وخمسٌ وستون سنة تقريباً، وبينهما رسلٌ وأنبياء كثيرون، قصَّ القرآن الكريم علينا حياة (سبعة) منهم وهم: (داود، وسليمان وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى) عليهم السلام. وليس (بين عيسى وبين رسولنا محمد) صلى الله عليه وسلم نبيٌّ ولا رسول.

وقد كان بين (ميلاد المسيح عيسى) عليه السلام (وميلاد المصطفى محمد) صلى الله عليه وسلم (٥٧٠) (خمسمائة وسبعون سنة تقريباً).

ثانياً: ميلاد (المسيح عيسى) عليه السلام كان معجزةً عجيبة، إذ وُلِد مِن أمٍّ من غير أب، من أجْل ذلك عُني القرآن الكريم بذِكْر أطراف من (سيرة أمِّه مريم ابنة عمران)، (وسيرة جدته لأمه حنة امرأة عمران). وقد اصطفى الله تعالى (آل عمران) مع من اصطفاهم من الأخيار عليهم الصلاة والسلام.

وكان (عمران) هو إمام (بني إسرائيل) في زمانه، وخادم (بيت المَقْدِس)، وامرأته كانت عاقراً، شاء الله تعالى أنْ تحمل امرأته منه، وأن يتوفى (عمران) قبل أن تلد.

فلما وضعتْها أنثى، سمَّتها (مريم) أي: العابدة الطائعة لربها، وعَوَّذتها بربها وذريتها من الشيطان الرجيم، وقدمتها محرَّرةً (لخدمة بيت الله).

{ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا }

[آل عمران ٣٧]، لا بالوحي بل بالقُرْعة.

ثالثاً: (وزكريا) عليه السلام كان من أنبياء (بني إسرائيل)، وهو شيخ الأحبار في زمانه، وقد بلغه الكِبر وهو زوج (خالة مريم) وكانت عاقراً، وقد قام عليه السلام (بكفالة مريم) خير قيام، وبنى لها (محراباً) خاصاً مرتفعاً في (المسجد الأقصى) تتعبَّد فيه، لا يدخل عليها غيره.

{كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}

[آل عمران ٣٧].

ورأى (زكريا) أنَّ رِزْق الله العظيم يأتي بلا أسباب، فدعا هنالك ربه أنْ يهب له ذريةً طيبة، فاستجاب الله دعاءه وأصلح له زوجه ووهب له (يحيى).

{مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ}

[آل عمران ٣٩].

رابعاً: (ترعرعتْ مريم) في (كفالـة زكريـا) ورأت مِـن أفـضال الله عليها وعليه ما زادها إيماناً وحُبّاً في الله تعالى، وسمعتْ وهي في (محرابها) صوت الملائكة تقول لها: **{يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّـرَكِ وَاصْـطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ}** [آل عمران ٤٢].

وتحثُّها على إطالة القنوت لربها عزَّ وجلَّ، ودوام السجود له منفـردةً في (محرابها) أكثر من (الركوع مع الراكعين) جماعةً في (المسجد الأقصى).

ثم تلقَّت (مريم) البشرى الكبرى مِن الله تبارك وتعالى:

{إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران ٤٥، ٤٦].

خامساً: عرفتْ (مريم) بفطنتها أنَّ ولدها سيولَد مِن غير أب لأنه لا يمكن أن ينتسِب الولد قبل ولادته إلى الأم مع وجود الأب، وتيقَّنتْ أنها هي (العذراء) التي كـان (بنـو إسرائيـل) ينتظـرون ، وكـل أُسْرَةٍ مـنهم تستشرف أن تكون ابنتها هـي تلـك العـذراء التـي عرفـوا خبرهـا مـن علمائهم وأحبارهم وكتبهم.

وانتبذتْ (مريم العذراء) مِن أهلهـا (مكانـاً شرقيـاً) فاتخـذتْ مـن دونهم (حجاباً) ، قال تعالى: **{فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَـلْنَا إِلَيْهَـا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْـكَ إِنْ كُنْـتَ تَقِيّـاً قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً}** [مريم ١٧ – ١٩].

وتساءلت متعجِّبة: {قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً} [مريم ٢٠].

وجاء الجواب الحاسم القاطع: {قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران ٤٧].

سادساً: عرفتْ (مريم) أن (ابنها المسيح) سيُخْلَق في رَحِمها بكلمة الله (كن) ويجعله الله أيةً للناس، وعلامة على وجوده وطلاقة قدرته.. إذ خَلَق (آدم) من غير ذَكَر ولا أنثى، وخَلَق (حوَّاء) مِن ذَكَر بلا أنثى، وخَلَق (بقية البشر) مِن ذَكَر وأنثى، وسيَخْلُق (ولدها) مِن أنثى بلا ذَكَر).

فظلَّتْ رضوان الله عليها محافظةً على نفسها، وقد أحصنتْ فرجها، فنفخ الله العظيم فيها مِن روحه فحملتْ (بعيسى) عليه السلام.

{فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ} [مريم ٢٢، ٢٣].

واجتمعتْ عليها آلام الوَحْدة والوَحْشة والمخاض، والاستحياء من أنْ يراها الناس ومعها وليدها، فيظُنُّون بها الظنون فيأثمون عند الله؛ لهذا تمنَّت (مريم) أنْ لو ماتت قبل هذا وكانت نَسْياً منسِياً.

{فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً} [مريم ٢٤، ٢٥].

سابعاً: اطمأنت (مريم) فهيأتْ نَفْسها ووليدها للرحيل.

{فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً} [مريم ٢٧].

هكذا اتَّهموها بلا تريُّث ولا تحقُّق، ورَدَّ عنها وليدها الرضيع وهو في المهد:

{قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً} [مريم ٣٠].

ولم يتكلم (عيسى) بعد ذلك إلى أنْ بلغ مبلغ الكلام، ولم يستطع (كهنة اليهود) أن يقيموا على (مريم) حَدَّ الرجْم، لأنهم تبيَّنوا براءتها من كلام وليدها المعجزة، وتستَّروا هُمْ ومَن بَعْدَهم عن (كلمة عيسى) في المهد، فلم يَذْكُروها في كُتبهم؛ لأنها تشهد (ببشرية عيسى) وعبوديته لله.

ثامناً: اختفت (مريم) وابنها عن الأنظار، خوفاً من (هيردوس) الوالي الظالم الذي أراد (قتْل عيسى) خشية أنْ يكون هو الذي سيقضي على (حكم الرومان) كما زعمتْ له (اليهود).. وبعد أن مات الوالي الظالم (ظهرتْ مريم وابنها) وكان (عيسى) قد بلغ الثانية عشرة من عُمُره، فسكنا في (قرية الناصرة) على (جبل فلسطين)، وأخذ (عيسى) يسوح في البلاد، ويزور (المعبد اليهودي) فيُنْكِر عليهم كثيراً من الأفعال والأعمال والحِيل البعيدة عن (روح التوراة)، وكان يلتقي كثيراً (بالنبي يحيى بن زكريا) عليهما السلام، ويصغى إلى ما يدعو إليه من توحيد الله تعالى، وتطبيق تعاليم (شريعة موسى) عليه السلام.

تاسعاً: غضب (الوالي الروماني) الجديد على (النبي يحيى) لكثرة معارضته عليه فيما يهوى أن يفعل من مخالفات دينية.. وأخيراً أمر بقتله، وقَدَّم (رأسه مهراً لِبَغِيٍّ)، وأمَر بقتْل (أبيه زكريا) عليهما السلام.. وكان

(عيسى ابن مريم) آنذاك قد بلغ الثلاثين من عمره، فأوحى الله تعالى إليه في تلك السِّن، وجعله رسولاً إلى (بني إسرائيل)، فبدأ عليه السلام رحلته الشاقة في الدعوة إلى الله تعالى وإصلاح (المجتمع الإسرائيلي) ونشْر الفضيلة ومحاربة الرذيلة.. وأيَّده الله عزَّ وجلَّ (بروح القُدُس) وأيَّده بمعجزات بينات في مقدمتها: (خلْقه الطير من الطين ونَفْخ الروح فيه بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، وإحياء الموتى بإذن الله، وإخبار القوم بما يأكلون وما يدخرون، وعلَّمه الله الكتاب والحكمة والتوراة وأنزل عليه (الإنجيل). فعاداه قومه وسخروا من معجزاته واتهموه بالسِّحر.

عاشراً: فلمَّا أحسَّ (عيسى) من قومه الكفر، بحث عمن ينصره في رسالته فقال الحواريون: {**نَحْنُ أَنْصَارُ الله آمَنَّا بِالله وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**} [آل عمران ٥٢].

فأخذ (المسيح) يجوب (قرى الشام وفلسطين) يدعو إلى دين الله القويم، وكان معه تلامذته الحواريون (الاثنا عشر رجلاً)، وانضم إليهم ستون آخرون، وكان يتبعهم من كل قرية خلْقٌ كثير من الضعفاء والمساكين، وانتهى الارتحال (بعيسى) ومَن معه إلى (صحراء مقفرة)، ولبَّى الله الكريم دعاء نبيِّه فيهم، فأنزل عليهم (مائدة من السماء)، وكان (أعداء عيسى من اليهود) يكيدون له، وأغضبوا الوالي عليه، فأباح لهم (دم عيسى) فخطَّطوا لقتله وفجأة قالوا:

{ **إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ الله**} [النساء ١٥٧].

فكذَّبهم الله تعالى بقوله تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ} [النساء ١٥٧].

وقال تعالى : { بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً }

[النساء ١٥٨].

وقد كان (عُمُر عيسى) ﷺ حين رفعه الله إلى السماء بروحه وجسده (ثلاثاً وثلاثين سنة) فكانت نبوته ﷺ (ثلاث سنوات)، وقيل إنَّ (أمه مريم) عاشت بعد رفْعه (ست سنوات) وماتت وهي في (الخمسين) ودفنت في (بيت المقدس) والله أعلم.

أحد عشر: وبعد (رفْع عيسى إلى السماء) مرَّت الأيام، وكرَّت الأعوام إلى أنْ بلغتْ (مائتين من السنين) وقيل (ثلاثة قرون)، عند ذلك بدأ (أتباع عيسى) الذين سمُّوا أنفسهم (بالمسيحيين) نسبةً إليه ﷺ أو (بالنَّصارَى) نسبةً إلى (قرية الناصرة) التي سَكَنها (عيسى مع أمه).. وأخذ هؤلاء ينقسمون إلى طوائف، وجمهورهم انحرف عن دين التوحيد وقالوا في (عيسى) ما لم يقلْه هو لهم.. فبعضهم قال: (إن الله هو المسيح ابن مريم)، وبعضهم قال (عيسى ابن الله) وبعضهم الآخر قال: (إن الله ثالث ثلاثة الله والمسيح وأمه أو روح القدس). وبهذا ضلَّوا، وأخبر الله تعالى عنهم في كتابه العزيز بأنهم قد كفروا، وأنهم (كاليهود) قالوا في (عيسى) غير الحق، (فاليهود) طعنوا فيه واتهموا أمه وأرادوا قتْله، (والنصارى) أَطْروه فألَّهوه.. وقال تعالى وهو الحقُّ وقوله الصدق:

{إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ} [النساء ١٧١].

اثنا عشر: وفي (آخر الزمان) سينزل (عيسى ابن مريم) من السماء إلى الأرض، يحكم (بشريعة محمد) ﷺ ويصلي خلْف (إمام المسلمين) ويقتل الدَّجال،ويكسِر الصَّليب، ويملأ الأرض عدلاً كما مُلِئت جَوْراً.

وأنَّ نزوله عليه السلام ثابتٌ بالكتاب والسُّنة وبإجماع الأُمة مِن أهل السنة والجماعة.

(ويهلك الله في زمانه المِلَل كلَّها إلاَّ الإسلام، ثم تقع الأَمَنة على الأرض، حتى ترتع الأُسُد مع الإبل، والنِّمار مع البَقر، والذِّئاب مع الغَنم، ويَلْعب الصبيان بالحيَّات لا تضرُّهم، فيمكُث أربعين سنة)، ثم يتوفى ويصلِّي عليه المسلمون [الشيخان ٢٢٢٢، ١٥٥، وأحمد ٢/ ٤٠٦].

وقيل في خبرٍ أنه عليه السلام يُدفَنُ في (المدينة المنورة) بجوار (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه، والله أعلم.

ثلاثة عشر: (ويوم القيامة) يشهد (عيسى ابن مريم) على قومه (بني إسرائيل) اليهود والنصارى، على رؤوس الخلائق، ليعلم الكفار أنهم كانوا على باطل.. ثم يُفَوِّض عليه السلام الأمر لربه عزَّ وجلَّ قائلاً:

{إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة ١١٨].

فيقول الله تعالى:

{هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [المائدة ١١٩].

وبهذا مِسْكِ الخِتام، نودِّع إخوتي المسلمين (سيرة السيد المسيح عيسى ابن مريم)..

فأقول: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات ١٨٠ - ١٨٢].

***

مواضع الإعجاز اللغوي والتعبيري

المراجع

م	اسم المرجع	المؤلف
١	الأحكام ...	الجصاص
٢	أسرار التعبير القرآني...	د/ عبدالفتاح لاشين
٣	أسرار التكرار في القرآن ...	الكرماني محمود بن حمزة
٤	إظهار الحق ...	رحمة الله الهندي
٥	الإكليل ...	السيوطي الإمام جلال الدين
٦	إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات	العكبري أبوالبقاء عبدالله
٧	أنبياء الله...	أحمد بهجت
٨	بدائع الفوائد ...	ابن القيم الجوزية محمد بن أبي بكر
٩	بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز...	الفيروز أبادي مجد الدين محمد بن يعقوب
١٠	بنو إسرائيل في القرآن والسنة...	الطنطاوي د/ محمد سيد
١١	تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)...	أبوالفداء إسماعيل بن كثير
١٢	تفسير أبي السعود ...	أبوالسعود
١٣	تفسير أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن	الشنقيطي الشيخ محمد الأمين
١٤	تفسير البحر المحيط...	أبوحيان محمد بن يوسف الأندلسي
١٥	تفسير البغوي...	البغوي..
١٦	تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل).	ناصر الدين عبدالله بن عمر الشيرازي

١٧	تفسير التسهيل لعلوم التنزيل...	الغرناطي محمد بن أحمد
١٨	تفسير تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان	السعدي الشيخ عبدالرحمن بن ناصر
١٩	تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن	الهرري محمد الأمين
٢٠	تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل).	علي بن محمد البغدادي
٢١	تفسير الرازي (التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب)..	الرازي فخرالدين محمد بن عمر
٢٢	تفسير روح البيان...	
٢٣	تفسير روح المعاني...	الألوسي أبوالفضل محمود
٢٤	تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)..	أبوجعفر محمد بن جرير
٢٥	تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من عبر التفسير	الشوكاني محمد بن علي
٢٦	تفسير الفراء (معاني القرآن)....	أبوبكر يحيى بن زياد
٢٧	تفسير في ظلال القرآن...	سيد قطب ..
٢٨	تفسير القاسمي (محاسن التأويل)...أويلأويل .	القاسمي...
٢٩	التفسير القرآني للقرآن...	الخطيب عبدالكريم.
٣٠	تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)....	القرطبي أبوعبدالله محمد بن أحمد
٣١	تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)...	النسفي أبوالبركات عبدالله بن أحمد

٣٢	تيسير المنان في قصص القرآن...	أحمد فريد .
٣٣	جمهرة اللغة...	ابن دريد .
٣٤	الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح...	ابن تيمية شيخ الإسلام
٣٥	حاشية الجمل على الجلالين...	الجمل .
٣٦	حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي	شيخ زادة .
٣٧	حاشية الصاوي على الجلالين...	الصاوي أحمد بن محمد
٣٨	حلية الأولياء وطبقات الأصفياء...	أبونعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني
٣٩	درة التنزيل وثمرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات	الإسكافي الخطيب أبوعبدالله
٤٠	دلائل النبوة...	البيهقي.
٤١	ديوان الإمام الشافعي...	الإمام بن إدريس الشافعي
٤٢	زاد المسير في علم التفسير..	ابن الجوزي أبوالفرج جمال الدين
٤٣	سنن ابن حبان...	ابن حبان .
٤٤	سنن ابن ماجه...	أبوعبدالله محمد بن يزيد القزويني
٤٥	سنن أبي داود...	سليمان بن الأشعث السجستاني
٤٦	سنن الترمذي...	أبوعيسى محمد بن عيسى
٤٧	سنن النسائي...	النسائي .
٤٨	سيدنا عيسى بشر رسول وليس إلهاً...	الجندي أحمد السيد موسى
٤٩	شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك...	بهاء الدين عبدالله بن عقيل المصري.
٥٠	شرح الكافية	الرضي الاستراباذي .

٥١	شرح النووي على صحيح مسلم..	النووي .
٥٢	صحيح البخاري..	الإمام محمد بن إسماعيل البخاري .
٥٣	صحيح مسلم...	الإمام مسلم بن الحجاج القشيري .
٥٤	صفوة التفاسير...	الصابوني محمد علي .
٥٥	فتح الباري شرح صحيح البخاري...	ابن حجر العسقلاني .
٥٦	الفصل في الملل والأهواء والنحل...	ابن حزم الظاهري الأندلسي
٥٧	قرة العيون والنواظر في الوجوه والنظائر...	ابن الجوزي أبوالفرج جمال الدين.
٥٨	قصص الأنبياء...	ابن كثير أبوالفداء إسماعيل.
٥٩	قصص الأنبياء...	النجار عبدالوهاب .
٦٠	قصص الأنبياء والمرسلين...	الشعراوي محمد متولي .
٦١	قصص القرآن...	البجاوي وجاد المولى وأبوالفضل .
٦٢	الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل...	الزمخشري محمود بن عمر .
٦٣	كلمة الله السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام...	الخياري السيد محمد أحمد
٦٤	لسان العرب...	ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم.
٦٥	المرأة في القصص القرآني...	الشرقاوي د/ أحمد محمد .
٦٦	مريم والمسيح...	الشعراوي محمد متولي .
٦٧	مجمع الأمثال...	الميداني .
٦٨	المستدرك على الصحيحين...	الحاكم النيسابوري محمد بن عبدالله .

٦٩	مسند أحمد ...	ابن حنبل الإمام الإمام أحمد بن محمد.
٧٠	المسيح عيسى ابن مريم...	السحار عبدالحميد جودة .
٧١	المسيح عيسى ابن مريم مصدق لما بين يديه من التوراة	الشعيبي د/ عبدالله عبدالعزيز .
٧٢	المصباح المنير في غريب الشرح الكبير..	الفيومي.. أحمد بن علي .
٧٣	المفردات في غريب القرآن...	الراغب الأصفهاني .
٧٤	معجزات الأنبياء...	الشعراوي محمد متولي .
٧٥	معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم...	د/ إسماعيل عمايرة ود/ عبدالحميد السيد .
٧٦	معجم الكليات في المصطلحات والفروق اللغوية..	الكفوي أبوالبقاء أيوب .
٧٧	المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم...	عبدالباقي محمد فؤاد .
٧٨	معجم مقاييس اللغة...	ابن فارس أبوالحسين أحمد.
٧٩	المعجم الوسيط...	مجمع اللغة العربية- القاهرة.
٨٠	ملاك التأويل...	الغرناطي أحمد بن إبراهيم.
٨١	من عجائب القرآن اللغوية...	سندي. أ.د/ فؤاد محمود محمد سندي.
٨٢	نتائج الفكر في النحو...	السهيلي أبوالقاسم .
٨٣	النحو القرآني قواعد وشواهد...	ظفر د/ جميل أحمد .
٨٤	نزول المسيح آخر الزمان...	السيوطي جلال الدين .
٨٥	النشر في القراءات العشر...	ابن الجزري .
٨٦	النهاية...	ابن الأثير .

٨٧	نهاية الأرب...	النويري .
٨٨	اليهود في القرآن...	طبارة عفيف عبدالفتاح .

***

الفهرس

***

مطابع الصفا
ALSAFA
PRINTERS
مطابع الصفا مكة المكرمة ت ٥٥٦٢٨١٠

المؤلف في سطور



أ. د/ فؤاد محمود محمد سندي

- ولد بمكة المكرمة ١٣٦٢هـ ـ ١٩٤٢م.
- ليسانس آداب جامعة الملك سعود ١٣٨٢هـ.
- دبلوم دراسات إسلامية، معهد القاهرة ١٣٩٢هـ.
- ماجستير نحو وصرف بتقدير (ممتاز) جامعة الأزهر ١٣٩٨هـ.
- درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى في اللغويات، جامعة الأزهر ١٤٠٦هـ.
- ١٩ عاماً في تدريس اللغة العربية بالمرحلة الثانوية بمكة المكرمة، وصنعاء، وإسلام آباد.
- ١٩ عاماً في الإشراف التربوي ورئاسة شعبة اللغة العربية بالإدارة العامة للتربية والتعليم (بنين) بالعاصمة المقدسة.
- ١٢ عاماً أستاذاً متعاوناً مع جامعة أم القرى ـ كلية اللغة العربية.
- سنة ١٤١٩هـ اختير مشرفاً تربوياً مثالياً على مستوى الإدارة.
- سنة ١٤٢٠هـ نال جائز الأداء المتميز على مستوى الوزارة.
- ١٤٢٢/٧/١هـ أحيل على التقاعد نظاماً.
- من ١٤٢١/١/١هـ يقوم بإعداد وتقديم برنامج لمحات لغوية من القرآن الكريم (إذاعة نداء الإسلام) ثم (إذاعة البرنامج الثاني).

كتبه المطبوعة:

- من لطائف التعبير القرآني في سير الأنبياء: آدم ونوح وإبراهيم.
- قبسات من إعجاز كلام الله في سيرة كليم الله سيدنا موسى (القسم الأول).
- المنتقى من سيرة المصطفى ﷺ ومن وما يتصل به في كتاب الله (الجزء الأول).
- من عجائب القرآن اللغوية.

له تحت الطبع:

- القسم الثاني من سيرة كليم الله

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٢٢٦٤
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٠-٢٢٠٧-٣